أسست عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

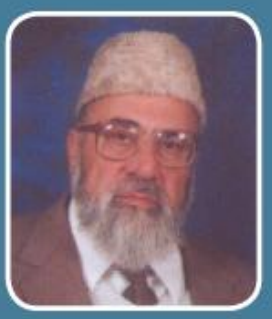

الشيخ زهير الشاويش
وحديث الذكريات

العدد (٥٤٦) صفر ١٤٣٢هـ - يناير ٢٠١١م

التاريخ الإسلامي بين الحقيقة والتزييف

فلسفة الحياة عندنا

الحفاظ على الثوابت الشرعية والاجتهاد في المتغيرات

الوعي الإسلامي

جديد
إصداراتنا

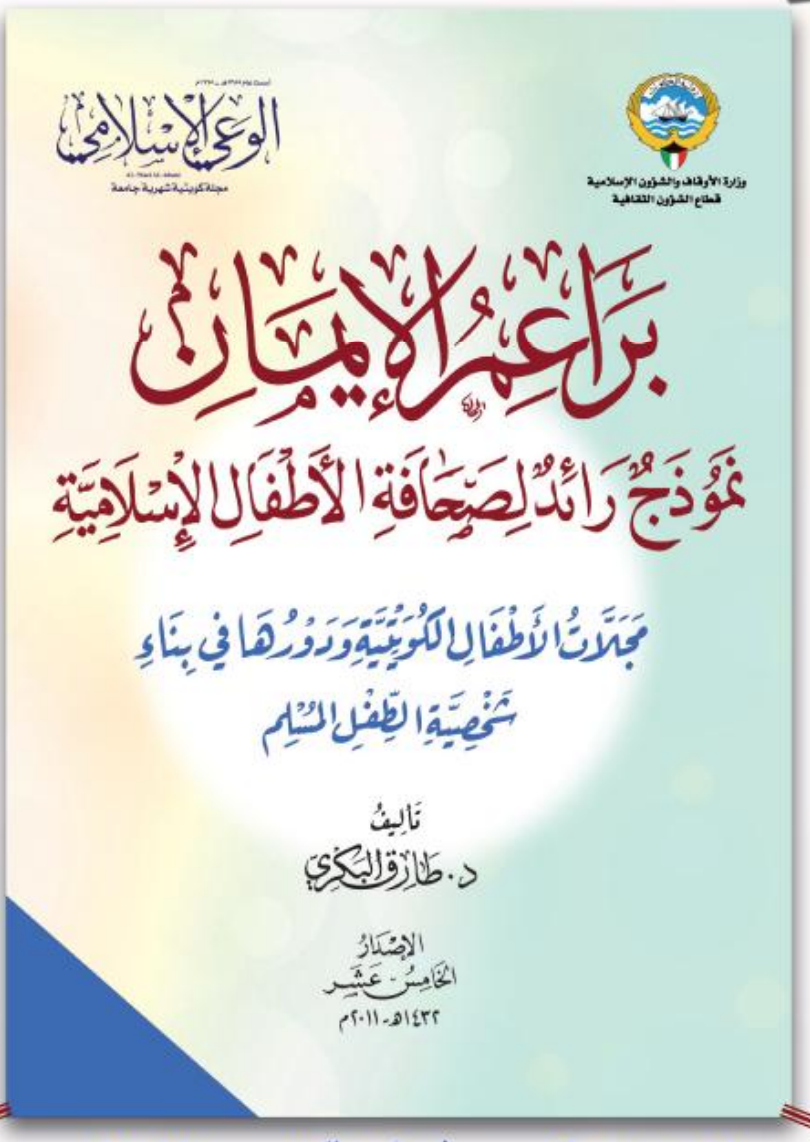

الإصدار الخامس عشر لمجلة «الوعي الإسلامي

هذا الكتاب يعد رافداً لثقافة الطفل المسلم وهو يؤسس لمجلة أطفال نموذجية رائدة

الافتتاحية

الإنسان والتاريخ

إن علم التاريخ علم عظيم المقدار، شهدت بفضله الآيات والأخبار، واعتنى بنقله الأثبات والأخيار، وأنفقوا في ذلك نفائس الأعمار، يطلع به العاقل على ما مر من الأعصار، فيزيده من الكياسة والاستبصار، بما حدث للأمم الماضية من الحوادث التي فيها عظة واعتبار، وإن لكل زمان رجالاً، ولكل حلبة مضماراً ومجالاً، فغير بدع إن تشبهت بالأوائل، وتأسيت بذوي العلم والفضائل، على أن تأخر الزمان لا ينافي التقدم في الإحسان، فقد يتأخر الهاطل عن الرعد، والنائل عن الوعد، ولقد كان من فضل أولئك الرواة الأخيار، أن كشفوا عن الأمة كل غمة بما رووا من الأخبار، وجلوا غياهب كل ظلمة بنيرات الآثار، ولولا هذا العلم الجليل حقا لماتت الدول، ولم يصل إلينا من أخبار الماضين غير الأقل، شكر الله صنيعهم، وعمّر بواسع مغفرته جميعهم.

وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار من بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وفن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، وحتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط.

والهدف من هذا العلم، وقوف الإنسان على حقيقة نفسه، ليعرف طبيعته كإنسان، وما يستطيع أن يعمل أو يقدم لبني جنسه، للاستنارة بالماضي، لتجنب الأخطاء، والاستزادة من الصواب، لإصلاح الحاضر وبناء المستقبل، وثمرته الاتعاظ وكبح النفوس عن الاغترار بزهرة الدنيا والنظر بتقلب أحوالها..

في صورة الدهر ما أغنى عن العبر
لذي فؤاد وذي فهم وذي نظر
وفي لياليه والأيام ناصحة
قد لقنت قلب مغتّر ومعتبر

ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، وأنه لا يحدث له أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره فيزداد عقلا، ويصبح لأن يقتدي به أهلاً، ولقد أحسن القائل: وجدت العقل عقلين، فمطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت في مطلع كل شهر عربي

العدد ٥٤٦

العام الثامن والأربعون

صفر ١٤٣٢ هـ

يناير ٢٠١١ م

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير

سليمان خالد الرومي

التحرير

تمام أحمد الصباغ

د. طاهر خذيري

عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك

أبورواش زكي محمد

الإشراف الفني

الشركة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات

رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي

صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت - هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١

البريد الالكتروني:

info@alwaei.com

manager@alwaei.com

المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.

والمقالات لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة أو المجلة.

في هذا العدد

المعتقدات الدينية في المجتمع الجزائري ٣٨

موضوع الغلاف

تاريخنا الإسلامي تاريخ ناصع البياض بني على أصول وقواعد ثابتة فهو لا يعرف التزييف على الرغم من المحاولات اليائسة المكشوفة التي قام بها المستشرقون وغيرهم لتشويه حقائقه.

حلقة نقاشية حول أسباب الانصراف عن الأدب ٦٢

مكتبات قرطبة العامرة ٨٠

التوزيع

وكيل التوزيع: المجموعة التسويقية لتوزيع الصحف والمطبوعات

هاتف: ٢٤٩١٩٦٢٠ - فاكس : ٢٤٨٣٩٤٨٧

- السودان. الخرطوم - العمارات - شارع ٧٣ - ص.ب ١١١٦ - دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع - ت ٧٩٣٢٨٣ (٠٠٢٤٩١١) نقال ٢٩٩٥ (٠٠٢٤٩١٢٣٠) ف ٧٩٣٢٨٤ (٠٠٢٤٩١١)
- اليمن - عدن - ص.ب ٦٤٨ - ت ٢٥٥٦٩٢ / ٢٥٥١٧٠ (٠٠٩٦٧٢) ف ٢٥٩١٦٣ - دار ومكتبة ٢٦ سبتمبر
- لبنان - شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات - ت ٢٧٧٠٨٨ / ٢٧٧٠٠٧ ٠١ (٠٠٩٦١) ص.ب ١٨٤/٢٥
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت ٢١٢٦٢٩٨ / ٢١٢٠٣٢٩ (١١ ٠٠٩٦٣) ف ٢١٢٢٥٣٢ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت ٤٦٣٠١٩١ / ٤٦٣٠١٩٢ (٦٢٦٩٠٠) ف ٤٦٣٥١٥٢
- مصر - القاهرة - شارع الجلاء . رمز بريدي ١١٥١١ - ت ٥٧٩٦٩٩٧ (٠٠٢٠٢) ف ٣٣٩١٠٩٦
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت ٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢٠١٢٢) ف ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة ٢٦٦٥٣٩٤ - ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع - دار الأهرام
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت ٥٩٧٤٥٦ / ٥٩١٩١٩ (٠٠٩٦٨) ف ٥٩٣٢٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ص.ب ٦٣٣ - ت ٤٣٥٦٠٠١ (٠٠٩٧٤) ف ٤٣٢٥٨٧٤ - دار العروبة للصحافة والطباعة والنشر.
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

- الكويت : ٥٠٠ فلس
- السعودية : ٧ ريالات
- البحرين : ٥٠٠ فلس
- قطر : ٧ ريالات
- الإمارات : ٧ دراهم
- سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة
- الأردن : دينار واحد
- مصر : ٢ جنيه
- السودان : ٥٠٠ جنيه
- موريتانيا : ٢٠٠ أوقية
- تونس : ٢ دينار
- الجزائر : ١٠ دنانير
- اليمن : ٧٠ ريالا
- لبنان : ٢٠٠٠ ليرة
- سورية : ٣٠ ليرة
- المغرب : ١٠دراهم
- ليبيا : دينار واحد
- اوروبا : ١,٥ جنيه استرليني او مايعادله
- اميركا ودول العالم : ٣ دولارات أو مايعادلها.

المحتويات

٣	الافتتاحية: الإنسان والتاريخ	رئيس التحرير
٥	كلمة العدد: مزيدا من الاهتمام بثقافة الطفل	التحرير
٦	العلامة محمد زهير الشاويش وحديث الذكريات	التحرير
١٠	فلسفة الحياة عندنا	فتح الله كولن
١٣	حوار مع محمد صالح الإبراهيم	سليمان الرومي
١٦	ملف العدد: ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ	د.مصطفى طه
٢١	ملف العدد: أثر الروايات الضعيفة في تشويه التاريخ الإسلامي	محمد الهامي
٢٤	ملف العدد: حوار مع د.محمد جلاء ادريس	منير أديب
٢٧	ملف العدد: الاستشراق والاستمرار في تزييف وعي الغرب	محمد فتحي النادي
٣١	ملف العدد: تاريخ منصف	محمد عبدالحميد
٣٤	دراسات: الحفاظ على الثوابت الشرعية والاجتهاد في المتغيرات	د.صالح النهام
٣٨	دراسات: المعتقدات الدينية في المجتمع الجزائري	د. مها عيساوي
٤٣	دراسات: الأصولية في البيئة الغربية ٢/٢	د. سامي عطا
٤٦	دراسات: بيع الاسم التجاري (الحقوق المعنوية)	د. سيد حبيب
٥٠	اصبعي السادسة: بائع الموز الحكيم	عبادة السيد نوح
٥١	ملف الأدب : المقدمة: غاية الأدب	التحرير
٥٢	ملف الأدب: نظرات في بلاغة القرآن وبلاغة العرب ٢/١	د. محمد الحجوي
٥٦	ملف الأدب: خصائص اللغة العربية وخلودها ٢/١	محمد مصطفى ناصيف
٥٨	ملف الأدب: آفاق جديدة للغة العربية داخل الوطن وخارجه	فوزي تاج الدين
٦٠	ملف الأدب: الشاعر محمد عاكف يوظف الشعر لخدمة قضايا الأمة	علاء فاروق
٦٢	ملف الأدب: «الوعي الإسلامي» ناقشت أسباب الانصراف عن الأدب	التحرير
٦٥	أنباء الكتب: تغير الظروف و أثره في اختلاف الأحكام في الشريعة	محمد عويس
٦٧	ملف الأسرة: مقدمة الأسرة: الدعوة النسائية	التحرير
٦٨	ملف الأسرة: الأسرة المسلمة وتوحيد القيادة	شعبان محمد شعبان
٧٠	ملف الأسرة: جرح الطلاق النفسي لا يستثني الرجال	د. خالد سعد النجار
٧٢	ملف الأسرة: فن التعامل مع الناس	كمال عبدالمنعم خليل
٧٦	ملف الأسرة: خصوصية المرأة في كتابة قصص الأطفال	عبدالباقي يوسف
٧٨	ملف الأسرة: فضل ممارسة الألعاب الرياضية لأطفالنا	د. ناني علي ابراهيم
٧٩	ملف الأسرة: ثرثرات عجوز طيبة	محمد محمود غدية
٨٠	منارات: مكتبات قرطبة العامرة	محمد شعبان
٨٤	أعلام: الشيخ محمد محمود الحامد الحموي	تركي النصر
٨٦	طب: مشاكل البلوغ	د. عبدالرحمن النمر
٨٨	فتاوى الوعي	التحرير
٩٠	التميز	خالد خلاوي
٩٢	جديد العلوم	هالة محمد
٩٤	بريد القراء	التحرير
٩٦	ينابيع المعرفة	التحرير
٩٨	مسك الختام/ هذا الحنين إليه	أحمد بشار بركات

كلمة العدد

مزيدًا من الاهتمام بثقافة الطفل

أولى الإسلام الطفولة اهتمامًا بالغًا، وقد عني القرآن الكريم في كثير من آياته بأمور تربية الأطفال وتنشئتهم على الأخلاق القويمة ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان: 13)، كما ركزت كثير من أحاديث الرسول ﷺ على ضرورة الاهتمام بالأطفال وتربيتهم تربية إيمانية واعتبرتها مسؤولية «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...» (متفق عليه).

إن إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» التي أعطت تربية الطفل وثقافته جزءًا كبيرًا من اهتماماتها بإصدار مجلة «براعم الإيمان»، كما خصصت إصدارين من إصداراتها للأطفال، تقوم اليوم بنشر إصدارها الخامس عشر تحت عنوان «براعم الإيمان: نموذج رائد لصحافة الأطفال الإسلامية» للدكتور طارق البكري، و«الوعي الإسلامي» تدعو من خلال هذا الإصدار الذي يعد إضافة ومساهمة منها في رفد ثقافة الاطفال الى الاهتمام بإعلام الطفل وقضاياه وهذا ما نأمله من كتابنا في تواصلهم مع المجلة والله المستعان.

«الوعي الإسلامي»

الاشتراكات

- **داخل الكويت:** للأفراد ٥ ,٧ دنانير. للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- **الدول العربية:** للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- **دول العالم:** للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- **للمؤسسات:** ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

الشيخ العلامة محمد زهير الشاويش في حديث الذكريات لـ«الوعي الإسلامي»:

المكتب الإسلامي شارك فيه أكثر من عشرين عالماً أبرزهم الألباني والأرناؤوط والحتّاوي

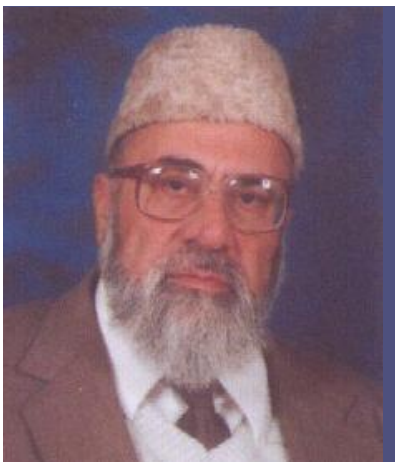

حوار: التحرير

الشيخ العلامة محمد زهير الشاويش له باع طويل في حركة العلم والتعليم، ساهم على مدار ستة عقود في تكوين عشرات من الدور والمكتبات والمطابع، فضلا عن جهاده مع إخوانه في فلسطين.

كُلِّف الشيخ من وزارة المعارف في قطر بزيارة دولة الكويت، ثم البحرين، للبحث عما عندهم لإنشاء المعهد الشرعي في دولة قطر، فاجتمع مع علماء دول الخليج، واستفاد مما عندهم لتأسيس هذا المعهد.

«الوعي الاسلامي» التقت بالشيخ زهير الشاويش في دمشق لتفتح معه حديث الذكريات حول نشأته، وعلاقته بالكتب والمخطوطات، وعلاقته بالعلماء، وجهاده في فلسطين.. وإليكم نص الحوار:

■ نستهل معكم هذا الحوار بسؤالكم عن ولادتكم ونشأتكم الطيّبة؟

– ولدت في حي الميدان بدمشق، في الثامن من شهر ربيع الأول ١٣٤٤هـ، الموافق أيلول ١٩٢٥م، ونشأت في زقاق الموصلي، وألحقت بالمدرسة الأموية، وهي شبه كتّاب فيه صفين للشيخ محمد سعيد الحافظ (الحكيم)، المتعاطف مع شيخ الميدان يومها الشيخ محمد بهجة البيطار العالم السلفي، وكان الحافظ يطلعنا ونحن طلاب على بعض المجلات الإسلامية التي كان مشتركًا فيها، ومنها:

١– «المنار» للشيخ رشيد رضا القلموني، وغيرها من مجلات مصر الإسلامية.

٢– ومجلتي «الفتح» و«الزهراء» للشيخ محب الدين الخطيب.

٣– مجلة «الإخوان المسلمون» التي كان يصدرها الأستاذ صالح العشماوي.

٤– مجلة «الهدي النبوي» التي كان يصدرها الشيخ حامد الفقي.

أعطاني الشيخ يوسف القناعي بعض مطبوعاته مما كان يدرسه هو ونصحني بأن يكون التعليم في قطر على منهج السلف

وكذلك بيانات الثورة التي كانت تصدر بصحف دمشق، وأصلها من الحاج أمين الحسيني.

ثم يأخذنا، نحن الطلاب الكبار، لزيارة الشيخ محمد بهجة البيطار، وتلميذه الشيخ سعدي ياسين، وتلميذه الشيخ مسلم الغنيمي.

وكان هؤلاء جميعًا يزورون والدي، وعلى الأخص عند عودته من سفره من مصر، ويأخذون ما يحضر معه من كتب، وبذلك زاد تعلقي بهم في دمشق، وعلى الأخص الشيخ سعدي ياسين الصباغ في بيروت.

أقول هذا وقد تجاوزت السادسة والثمانين سنة من عمري، ومازلت محتاجًا إلى آثار ومعلومات وتعليم، فإن المرء ينبغي عليه أن يستمر في التعليم حتى يأتيه اليقين وهو الموت، جعلنا الله على أحسن ما يحب بفضله وكرمه.

■ كيف كانت بدايتكم العلمية.. هل كانت نظامية أم في الكتاتيب؟

– بداياتي العلمية بدأت نظامية بعض الشيء، في المدرسة الأموية، ثم في المدرسة المحمدية، التي أنشأها الشيخ محمد الفقيه المصري، شقيق إمامي الحرم المكي، عبدالمهيمن وأبوالسمح – رحمهم الله.

وعندما بلغت العاشرة تقريبًا أخذني والدي معه إلى العراق، تدريبًا لي على التجارة، ومتابعة خيل السباق المشتراة في شمال العراق، ونقلها إلى مصر.

وفي هذا العام أصبت بمرض في

عيني وضعف بصري، وأدخلت المدرسة الرسمية «أنموذج الميدان»، بعد أن نالت سورية نوعًا من الاستقلال، وخف الضغط الشعبي على المدارس الحكومية، وسجلت في الصف الثاني الابتدائي، وتعرفت يومها على الداعية الشيخ علي الطنطاوي، الذي كان يثير فينا الحماس الإسلامي والوطني، ويحرضنا لمكافحة الفرنسيين في المظاهرات، وكنا نقاوم الجيش الفرنسي.

بعد نجاحي في الصف الثالث خرجت من المدرسة ولم أعد إليها، لأنني سافرت مع والدي إلى مصر، وهناك كنت أذهب للجامع الأزهر في ساحته العامة، وأعود بعد ذلك إلى مشايخ عينهم والدي لتعليمي بجانب عملي بالتجارة.

وأيامها كنت أقابل صاحب والدي وشريكه في التجارة المعتمد السعودي في سورية ومصر، العالم الشيخ فوزان السابق الذي تأثرت به كثيرًا، وكان سلفيًا كبير السن، ولم يكن له أولاد في مثل سني، فأكرمني كثيرًا، وأهداني رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها ما طبعه الأخ الفاضل ناصر بن رميح، وغيرها.

■ مَن أشهر من درّسكم وانتفعتم به في مرحلة الطفولة والشباب؟

– تأثرت في فترة طفولتي وبداية شبابي بالعديد من الشخصيات البارزة سيأتي الحديث عنهم في سياق الكلام الآتي إن شاء الله، وفيهم عددٌ من أهل العلم الكبار أمثال: الشيخ محمد عبدالعزيز المانع، الشيخ عبدالله بن زيد المحمود، الشيخ صلاح الدين الزعيم، الشيخ السياسي محمد سعيد العرفي، العلامة الكبير الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الشيخ عبدالله القلقيلي مفتي فلسطين والأردن، الشيخ أحمد شاكر، وشقيقه الشيخ محمود شاكر، وغيرهم.

■ متى بدأت علاقتكم مع الكتب، مخطوطها ومطبوعها، وما تفسير

المكتب الإسلامي خرج عشرات الدور والمكتبات والمطابع، وكون جيلًا من المحققين والدارسين

شغفكم بها؟

– أما عن علاقتي مع الكتب، فهي منذ صغري، فعلى الرغم من أنني تركت الدراسة مبكرًا، وكان عند أهلي عدد قليل من الكتب، فإني كنت أستعير الكتب من مشايخي وجيراني، واستأجر بعضها من بائع كان عندنا في «الميدان» من بيت الفقير.

وأذكر أنه كان عندنا رسالة «تودد الجارية»، ومصحف بخط والد جدتي «فاطمة» واسمه الشيخ سعيد قره بطا، وكتاب «المستطرف في كل فن مستظرف»، وكتاب «المخلاة» لمؤلف شيعي، وثلاث مخطوطات، منها مخطوطة «قاعدة بغدادية» للتعليم.

وكانت والدتي حريصة على إحضار ما أمكنها من كتبٍ ومجلات لأطلع عليها، ولكني كنت منشغلًا أكثر وقتي مع أبي في رحلاته، وإذا استقر بي المقام في البيت كنت أقرأ ما تجمع لي من كتب، مثل كتاب «عنترة»، و «سيرة بني هلال»، وأمثال ذلك.

وبعد مدة حفظت أحاديث نبوية من كتاب الأربعين النووية، ورياض الصالحين، بإشراف المشايخ، فكنت محل إعجاب زوارنا الذين كان منهم عم والدتي أبوياسين محمود بكري رحمون، وكان جارنا في البيت، وكذلك كان يزوره المحدث الأكبر الشيخ محمد بدرالدين الحسني، ابن الشيخ محمد بن يوسف، وكان يحضر معه عدد كبير من الناس، في عدد من أيام السنة مثل المولد النبوي، ومنتصف شعبان، وليلة القدر، وزيارات العيدين.

وكنت في بيت خالة والدي، زوجة الشيخ أبوحسين شقير، المشرف على مسجد الدقاق، ولم يكن له أولاد، فأبقى عندهم الأيام ذوات العدد، وأجتمع مع المشايخ عنده، حيث كان يزوره الشيخ محمد بدرالدين، والشيخ علي الدقر، وأجتمع إليهم مع أمثالي، وبحضور الرجال الكبار.

وكان الشيخ محمد بدرالدين يسمعنا (الرجال والأطفال) حديث الرحمة، وغيره من الأحاديث، ويسجل الأسماء مرافقه الدائم الشيخ يحيى المكتبي (زميتا)، ومعه دفتر قلاب يكتب فيه أسماء المجازين، ومنهم الأطفال، وفي هذه التسجيلات إثبات سماعي منه، باسمي: محمد بن مصطفى الشاويش.

وفي هذه الأيام انفردت بالرواية عن الشيخ محمد بدرالدين، ابن الشيخ محمد بن يوسف الحسني.

■ ما أهم إنجازاتكم العلمية والعملية أثناء زياراتكم لدول الخليج العربي؟

– في سنة ١٣٧٧هـ= ١٩٥٦م، كُلِّفت من وزارة المعارف بدولة قطر بزيارة الكويت، ثم البحرين، للبحث عما عندهم لإنشاء المعهد الشرعي في قطر، وكان يرأس وزارة المعارف الشيخ قاسم الدرويش فخرو، وسماحة الشيخ عبدالله بن زيد المحمود قاضي قطر الشرعي.

ثم بعد ذاك اجتمعت بعلماء من دول الخليج، واستفدت مما عندهم لتأسيس المعهد الشرعي، ولكني وجدت لدى المملكة العربية السعودية (بعد الكويت) أكبر اهتمام بذلك.

وفي الكويت قمت بزيارة المعهد الموجود يومها، ووجدت فيه بناءً كبيرًا، وفيه عدد كبير من الإخوة المصريين، والتعليم والمنهج فيه مماثل لما عليه جامع الأزهر، وكذلك الكتب أيضًا، واجتمعت فيه بالشيخ حمادة رحمه الله تعالى.

واجتمعت بتاجر الكتب الشيخ الجودي، والشاعر عبدالرحمن المعاودة، والشيخ صالح المطوع، والشيخ قاسم الشيخ، وابنه الأستاذ حافظ.

وذهبت للشيخ يوسف القناعي- رحمه الله- ففتح لي صدره، وأعطاني بعض مطبوعاته مما كان يدرسه هو، أو يدعو إليه للتدريس في دولة الكويت، ونصحني وطلب مني أن يكون التعليم في قطر على منهج السلف، حتى يخرج الطلاب على مذهب أهل البلد.

واجتمعت كذلك بالعلامة السلفي الشيخ عبدالرحمن الدوسري، تغمده الله برحمته، وقد سبق لي أن التقيت به في الحج، وهو داعية صريح مسدد، له نشاط في الدعوة بشكل كبير في مساجد الكويت، والمجالس الخاصة، وقد توفي رحمه الله.

وأما البحرين فوجدت عندهم غرفتين فوق أحد المساجد، والتعليم فيها ابتدائي، لأربعة طلاب مع أحد المشايخ، مع أني جئت بناءً على موعد معهم، وشكوا إليّ من تقصير البعض معهم.

ثم ذهبت إلى السعودية، وقابلت الشيخ محمد بن عبدالعزيز المانع في مكة، ثم ذهبت إلى جدة حيث قابلت الأمير فهد بن عبدالعزيز آل سعود، وزير المعارف وقتها، والذي صار فيما بعد خادمًا للحرمين الشريفين.

وأعطاني حمولة سيارة من الكتب الدينية، وشيئًا من المناهج التي كانت تدرس عندهم، بعد أن أخبرته أن التعليم في قطر ليس بإشراف الإنجليز.

ثم زرت الشيخ محمد بن إبراهيم المفتي العام، ووكيل الإشراف على المعاهد الشرعية، في مناطق المملكة، ومنها معهد الفقه واللغة في الرياض، والشيخ عبدالملك بن ابراهيم، وابنه الشيخ محمد، ثم زرت

الشيخ زهير مع حاكم قطر الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

الجامعة (قبل تسمية جامعة)، وكانت تحت إشراف أخيه العالم الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم، وأوصلني إليه الصديق الدكتور الشيخ عبدالله بن محمد بن خميس، الذي تعرفت عليه سابقًا في دمشق، حيث ألف كتابه «شهر في دمشق»، وقد أفادني كثيرًا.

وحملت معي إلى قطر المناهج والكتب، وما حصلت عليه من معلومات، وأعطيتها لمدير المعارف الأستاذ عبدالبديع صقر، وللشيخ القاضي عبدالله بن زيد المحمود، ولوزير المعارف الشيخ قاسم بن درويش فخرو، غير أن افتتاح المعهد تأخر، وكنت بعدها قد خرجت من المعارف.

وزارنا في قطر الشيخ سيف بن مدفع، ومعه عدد من علماء الشارقة، ووضعوا عددًا من طلابهم ليدرسوا في قطر، ثم بحثت معهم فكرة عزمنا على إنشاء معهد ديني، فرحبوا بذلك، وذكروا بأنه إذا تم ذلك فسوف يرسلون أبناءهم إليه، وكان منهم من العائلة الحاكمة، وأبناء العلماء.

■ ما الظروف التي قرّرتم من خلالها تأسيس المكتب الإسلامي؟

- أما عن تأسيس المكتب الإسلامي، فقد أسسته عام ١٩٥٧م في دمشق، بفضل الله كان هذا العمل مدرسة في التحقيق والنشر، تعتبر الأولى في بلاد الشام، لولا سبقُ الأستاذ الفاضل أحمد عبيد- رحمه الله- في القليل مما نشر، في المكتبة العربية.

وعن المكتب- والحمد لله- انبثقت عشرات الدور والمكتبات والمطابع، ومنه خرج عشرات المحققين والدارسين، وعمل معي فيه أكثر من عشرين عالمًا من كبار العلماء آنذاك منهم الشيخ ناصرالدين الألباني لمدة أربعين سنة تقريبًا، والشيخ شعيب الأرناؤوط لمدة عشرين سنة، والشيخ عبدالقادر الأرناؤوط لمدة عشر سنوات، والشيخ عبدالقادر الحتّاوي الدوماني الحنبلي وغيرهم.

ومازال المكتب الاسلامي حتى اليوم يتابع الجهد والإنتاج على أوسع نطاق، ويصدر العدد الكبير من الكتب في علوم القرآن الكريم، وعلم الحديث الشريف، والمواعظ والنصائح، وروائع اللغة العربية، ويقوم بالإشراف عليه الآن ولديّ المؤرخ بلال (المدير)، والمهندس عليّ (المحاسب) بارك الله فيهما، وقد زادت مطبوعات المكتب على الألوف.

■ هل يمكنكم- شيخَنا الكريم- أن تطلعنا على كَمّ المخطوطات الأصلية التي تملكونها، أو تلك المصوّرات التي هي في حكم الأصليّ، لنفاستها وندرتها؟

- أما عن مكتبتي، فبفضل الله خلال أكثر من ستين سنة قمت بجمع مكتبة واسعة هيأ الله لي أسباب جمعها، هي محل اعتزازي وافتخاري.

وأنا لا أعرف- الآن- عدد الكتب المطبوعة التي تحويها، ولكنني أعرف أن فيها من نوادر المطبوعات ما يُسرُّ به كل من يزورها ويستعين بها.

وعن بداية عنايتي بالمخطوطات.. لما رجعت من فلسطين عام ١٩٤٩م وكان

أبي- رحمه الله- ميسور الحال، وكان صديقي أبوجعفر أخو الشيخ ناصر عنده دكان لبيع الكتب في المسكيّة في دمشق، وكان يشتري من النّاس الكتب الدراسية القديمة، ويصلحها ويبيعها بأسعار أقل من كتب الحكومة.. بدأت بشراء مكتبات كاملة من أصحابها كمكتبة آل الشطي الحنابلة، ومكتبة آل عابدين الأحناف، ومكتبة آل الأتاسي (أقرباء رئيس جمهورية سورية الأسبق)، ومكتبات آل العطار الشافعية، ومكتبة آل الكزبري مشايخ الحديث النبوي وغيرهم.

حتى أصبحت أملك بحمد الله ما يقارب أحد عشر ألف مخطوط، وفي كل أسبوع يتصل بي أناس يطلبون مني تصوير شيء من المخطوطات التي عندي للاستفادة منها علميًا، ولم أبخل على أحد منهم في ذلك، وعلى الأخص الجامعات والكليّات الشرعية في بلاد الحرمين.

ويوجد من هذه المخطوطات حوالي ٣٠٠ مخطوطة مصورة تقريبًا، والمصورات من المخطوطات النادرة، وهي في حكم المخطوطات الأصليّة.

■ ما الدور الذي أنيط بكم القيام به في جهاد المحتلّ الفرنسي لأرض الشام؟

- في عام ١٩٤٥م اعتدت فرنسا على البرلمان السوري بالقنابل، وكذلك على القلعة ودمشق عمومًا، وبعض المدن السورية، وراحت تداهم الأحياء الدمشقيّة والبيوت، ومن ضمن هذه الأحياء حيّنا (الميدان)، وكان أهل هذا الحيّ معروفين بالجهاد والثورة على المحتل، فخرجت أنا وأقاربي وأبناء الحيّ ومعنا بعض البنادق وقطعنا الطريق على الفرنسيين بمساعدة الشيخ المجاهد محمد الأشمر، وقدر الله لنا النصر على الفرنسيين وقتها، وقتل منهم خلق كثير وغنمنا منهم بعض الخيول والبغال وكميّة كبيرة من الأسلحة.

وبعد أيّام جاء الإنجليز وأخذوا

خرجنا مع الشهيد عبدالقادر الحسيني للجهاد في فلسطين بمرافقة سبعين مجاهدًا

الفرنسيين خارج المدن السورية، وخرجوا من بلادنا مهزومين، وكان عمري وقتها ١٩ سنة.

■ من المشهور أنكم تطوعتم للجهاد في فلسطين، كيف كان ذلك، ومتى كان؟

- لقد تطوعت أنا و٤٠٠٠ مجاهد من دمشق للذهاب إلى بلدة «قطنا» للتدريب على القتال ومعرفة الأسلحة الحديثة للجهاد في فلسطين، ولما أردنا الذهاب إلى القدس مُنِعنا من ذلك وطُلِبَ منا الانتظار، غير أننا خرجنا مع الشهيد عبدالقادر الحسيني- رحمه الله- وكان عددنا أولًا سبعين مجاهدًا، ثم انضمت إلينا مجموعة من الإخوان المسلمين من مصر جاءوا يتدربون معنا في «قطنا» وكانوا ٢٠٠ مجاهد، ثم انضمت إلينا مجموعة من حلب أسموا أنفسهم «أسود الشهباء»، وكذلك جاءتنا مجموعة من الأردن، ولمّا منعتنا بعض القوات من الخروج إلى فلسطين ذهب الحاج أمين الحسيني ومعه الشيخ مصطفى السباعي إلى رئيس الجمهوريّة السوريّة آنذاك شكري القوتلي، وكان شكري صاحب مروءة وشهامة، وسمح لهما بذلك، وكنت معهما عند مقابلة رئيس الجمهورية.

وكانت القيادة العسكرية تريدنا أن نذهب إلى نابلس للجهاد هناك مع القائد فوزي القاوقجي، وكان ضد الحاج أمين الحسيني، فقد كان مع القاوقجي مجموعة من القوميين والملحدين، وكنا نحن متدينين، ورغبتنا إنقاذ القدس، فسمحوا لنصفنا أن يذهب مع عبدالقادر الحسيني، ثم سمحوا بعد ذلك للبقية بالذهاب مع الشيخ مصطفى السباعي، ولحقوا بنا بعد عشرين يومًا.

وبعد عدة أيام من تنقلنا بين القدس والمناطق المجاورة جاءت الأوامر بأن على السوريين أن يخرجوا من القدس، فخرج الشيخ مصطفى السباعي مع مجموعتنا إلى دمشق، ولم يبق في القدس سوى ٤ أشخاص أنا منهم.

وكانت الأوامر من الجيوش العربية، ولكنني لم أغادر القدس أنا وثلاثة آخرون على أمل أن نستمر في القتال، وبعد أيام طُلب منّا المغادرة، فغادرنا القدس، ولكن ليس إلى دمشق بل إلى «صور باهر»، وكان فيها مجموعة من الإخوان الأردنيين منهم الحاج عبداللطيف أبوقورة، والأستاذ أحمد الخطيب، والضابط جادالله جادالله من أهل القرية، والضابط ممدوح الصرايرة، فقاتلنا معهم.

وبعد ثلاثة أيام ذهبنا إلى جوار بيت لحم، وجوار بلدة الخضر، والبلدات المجاورة، وقاتلنا مع المجاهدين الفلسطينيين هناك بقيادة القائد فوزي نامق القطب في العمق الفلسطيني، وسبق أن تدرب على الأسلحة في ألمانيا، مع عدد من الضباط أيام هتلر، ورجعتُ من فلسطين أواخر عام ١٩٤٩م.

■ هل من كلمة ختامية توجهونها إلى مُحبّيكم عبر صفحات مجلة «الوعي الإسلامي»؟

- إنني إذ أنهي كلامي مع مجلتكم الكريمة، فلا أملك إلا أن أدعو الله سبحانه وتعالى، أن يغفر لي ما قدمت من تاريخي وما أخرت، ويجعل عملي كله خالصًا لوجهه الكريم، جل شأنه.

وأرجو من إخوتي وأبنائي قراء مجلتكم الغراء أن يعاملوني بالتسامح، كما هو من أخلاقهم، لأنني ما بذلت، أو قلت، إلا ما هو في ظني مفيد، وموافق لما يرضي الله جل شأنه، وأن فيه النفع لإخواني من طلاب العلم.

يعيش قسم من البشر من غير ممارسة للفكر، وقسم آخر منهم يفكر لكن لا يعكس فكره على واقع الحياة قط، أما ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطًا فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مُركّبات فكرية مختلفة. والذين يعيشون من غير فكر هُم دُمى تمثّل فلسفة حياة للآخرين، هؤلاء يلهثون للتغير من شكل إلى شكل، ولا يملّون تبديل قوالبهم، ويضطربون ما عاشوا في الانحراف بين الشعور والفكر، والانزلاق في الشخصية، والتمسّح بين الصورة والسيرة، وقد يتقاسمون حينًا حظوظًا حصل عليها المجتمع، ويستفيدون حينًا من توافق مجرى الأمور، وكأنها تترتب حسب تفكيرهم وحسهم وإرادتهم، لكنهم لن يريحوا أرواحهم البتة بالمحاسن والفضائل الإرادية، ولن يَشبّوا بها إلى العلى، ولن يوجهوها إلى اللانهاية، هؤلاء يشبهون برك الماء العقيمة والمحرومة من البَركة والخامدة والمعرضة إلى الأسون، فلا يبعد أن يتحولوا بمرور الزمان إلى مجمع للفيروسات ومأوى للميكروبات، بَلْه أن يفيدوا بشيء باسم الحيوية.

فلسفة الحياة عندنا

فتح الله كولن

هؤلاء هم ضحالٌ فكرًا وسطحيون رأيًا إلى درجة تجعلهم كأنهم أطفال يقلدون كل ما يرون ويسمعون، وينجرون وراء الطغام هنا وهناك، ولا يجدون سانحة للإحساس بأنفسهم والإنصات إلى دواخلهم وتمحيص قيمهم الذاتية، بل لا يشعرون البتة بوجود قيم تخصهم أنفسهم، فيحيون كعبيد لأحاسيسهم الجسمانية والبدنية عبودية لا انعتاق منها، ويُسَخّرون كل شيء حصلوا عليه، ويحصلون، لخدمة الجسمانية في إطارها الضيق، ويغيّرون أعظم الألطاف التي وهبها الله للإنسان، كالقلب والإرادة والحس والشعور، إلى وسائل رخيصة لملذاتهم البدنية، ويقضون أعمارهم في بوهيمية.. المقام والمنصب والشهرة والمنفعة والحرص على الحياة من أهم العوامل التي تُعيّن حركة هؤلاء وفعالياتهم، وسواء أعرفوا أم لم يعرفوا، فهم يقعون كل يوم في واحد أو أكثر من هذه الفخاخ القاتلة، ويذبحون أرواحهم مرات بسكين أردل أنواع الموت.

وليس لأمثال هؤلاء ماض ولا مستقبل، ما داموا يرددون قول عمر الخيام:

لا تَشغل البَال بماضي الزمان
ولا بآتي العيش قبلَ الأوان
واغنم من الحاضر لذّاته
فليسَ في طبَع اللَّيالي الأمان

ويتبعون غرائزهم الحيوانية، ويرون الدنيا عشبا ومرعى، ويحيون راغمين أنف مشاعرهم ومَلَكاتهم الإنسانية، فلا ينفكون من التقلب المضطرب في المستنقع واللوثيات.

أما الذين يعيشون حياتهم مفكرين، ويجعلون- حسب درجاتهم- كل يوم أو كل ساعة من حياتهم ميناءً أو مرسى أو طريقًا للأفكار المبتكرة، فهؤلاء يمضون أعمارهم في خوارق العيش ما فوق الزمان، ومفاجآته وسحره، فيتجرعون الماضي كماء نبع مبارك، ويتنفسونه نفحةَ رائحة في رئاتهم، ويطالعونه ككتاب، ويسيرونَ إلى المستقبل بهذه العُدة، ويحضنون الزمن الآتي بحرارة قلوبهم، ويلونونه بآمالهم، ويصورونه بعزمهم وإرادتهم، ويحتسبون الزمن الحاضر مركزًا استراتيجيًا لتنفيذ أفكارهم المثالية، ومصنعًا لإنتاج التقنيات الضرورية في هذا السبيل، وجسرًا للعبور من النظري إلى العملي، ويَجدّون دوما كي يكونوا فوق الزمان وفوق المكان.

فهُم من وجهة يطالعون الوجود والزمان في هذا المستوى، ومن وجهة أخرى ينسلخون من ضيق الحياة الجسمانية، وينفسحون في رحاب عالم الفكر ويسيحون- وهم في هذه الحياة الفانية الموقوتة- على سفوح ممتدة إلى اللانهاية في عالم آخر ذي بُعْد أبدي، يسيحون ويدفعون عربون اللانهاية بأفكارهم وأحاسيسهم وآمالهم، ويتعايشون مع مشاعر اللانهاية، ويتطلعون إلى ثراء الكينونة الإنسانية في أغوار الرحاب اللَدُنّية التي حفروها في مغاوص قلوبهم، ويجدّون في اصطياد أنواع الفجاءات بالشباك التي نشروها في قلوبهم مما لا تبصره الأعين، ولا تستمع إليه الآذان، ولا يتصوره خيال الإنسان، فترشدهم علومهم ومعارفهم ومكتسباتهم العالية فوق المستويات إلى ما هو أعلى، بل أعلى المعالي، ويؤمّل كلّ منهم أن يكون عُقابًا سماويًا، فهؤلاء الذين يحيون حياة كهذه، ويجعلون أعمارهم مزارع لأشجار الفكر، سَمّوهم إن شئتم أهل الحكمة، أو أبطال الفلسفة ذوي الهدى، وعرّفوهم كما تشاءون، لكن اعلموا أن رجال النور الذين يحيكون التاريخ برقة وظرافة نسيج الحرير قد ظهروا دائمًا من بين هذه الأرواح العالية، على مر الزمان الممتد من العوالم القديمة إلى عصرنا الحاضر، وحتى أنظمة البراهمية والبوذية

مفكر تركي

والكونفوشية والطاوية والزرادشتية، التي تشبه النظم الفلسفية وليس الأديان، هي هدايا أبطال الروح إلى الإنسانية.

إن ألحان صروح فكر هؤلاء تسمع دومًا في خرير تيار الفكر المديد إلى الماضي، وإن الرؤى المختلفة إلى الحياة وأنماط الحياة المتنوعة وأحواض الحضارات العالمية والثراء الثقافي في الجهات الأربع من العالم القديم والجديد، كانت دائمًا من نتاج بيادر الفكر لهؤلاء الأبطال، فمع كل هذا التبديل والتحريف والإبعاد عن الأصل الذي أصابه، يمكننا أن نقول باطمئنان تام: إن القسم الأعظم من البشر في الأرض مازالوا يتبعون آثار ذلك المحتوى والمعنى والروح القديم، مهما تعسر التأليف بين الحياة المعاصرة وبين هذا القول، وأظن أن الضرورة قائمة لكي نتقبل استمرارية الأخطاء- كحالة طبيعية- بحسن الظن وحسن التأويل، وذلك إلى أن يجد «الممثلون» الأبطال الأمورَ التي لم تتعرض إلى التحريف والتبديل من تلك المرجعيات.

وبناءً على ذلك فإن ما يجب علينا اليوم- ونحن نستعد للتجديد مرتبطين بأوثق الروابط بجذور معانينا الذاتية- هو أن نجهّز الأبطال الذين يجيدون تلقيح أنفسهم بأمصال الوقاية المستخرجة من ذات أرواحهم، الأبطال المُنْشدون القادرون اليوم على أداء الكلمات لأناشيد ماضينا من غير تعثر بشيء أو بعائق، وعلى استشعار توقد الحماس في قلوبنا المتجددة كل مرة بتلون آخر.

والواقع أننا سوف يطولنا خراب عظيم على أيدي صناع أجانب أغرار، لحين إعدادنا وتجهيزنا لهؤلاء الأبطال، وإبّان ذلك، ستشتغل الإنسانية جمعاء أيضًا بصب أساطيرها القديمة لملء فراغ القيم الأزلية الكونية التي تبحث عنها بوجدانها فلا تعثر عليها بعقلها، فتتقلب من فقدان الطمأنينة إلى دوار الأزمة، ومن دوار الأزمة إلى تخريبات جديدة.

غابت عن واقعنا منظومة فكرية ذاتية وفلسفة حياة فكرية تعتمد على الحركات الإسلامية

لقد غابت عن واقعنا منذ قرون منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية تعتمد على الحركات الإسلامية التي تشكل جذور المعنى لثقافتنا المليّة، فتشتتنا شذر مذر، نحن وعالم كبير مرتبط بنا، ومن الضروري أن نميز بين النسق الفلسفي والفكري لمترجمي نظام الفلسفة اليونانية المتجمعة في الحوض الفكري لأرسطو من أمثال الكندي والفارابي وابن رشد، وإلى حد معين ابن سينا، وبين نسقنا الفكري وفلسفتنا في الحياة الموصولة الجذور بالسموات القديمة كالأزل، لكن الجديدة بل الأكثر جدة من الجدة ذاتها، إلى درجة القدرة على استيعاب كل العصور والمنضودة من الحكمة والحِكَم، يكون موضوع نسقنا الفكري قائما على تفسير ذي تنزل من اللاهوت والجبروت والملكوت والناسوت، ومعلوم المنشأ ومنوّر، ومعتمد على حقيقة الخلق، فإذا استطعنا أن نتفهّم هذا التفسير والتأويل بنكاته الذاتية نكون قادرين على إبراز نظامنا الفكري، وهذا يعني في الوقت نفسه افتتاح طرق واسعة تؤدي إلى تجديد جاد على مستوى العالم كله.

لقد بذلت الجهود في سبيل نظام فكري كهذا مرات كثيرة منذ عهد محمد الفاتح- جعل الله مثواه الجنة- لكنها لم تبلغ الغايات المرجوة منها، هذه الملاحظة يمكن أن تتعرض إلى المناقشة من بعض جوانبها، لكن الحال هو هذا عمومًا، لقد جَدّ الكثيرون في أن يستجيبوا لمثل هذا البحث والترقب في الوجدان الاجتماعي العام، كأمثال خوجه زاده والملا زيرك، أو مصطفى رشيد باشا ومهندسي «المشروطية» (الحكم الدستوري)، ومنهم إلى كثيرين من عمال الفكر في المرحلة الحديثة، الخالصة نياتهم وغير الخالصة، لكن بعضهم تعثر وتوقف عند «تهافت» ابن رشد والإمام الغزالي، وبعضهم غرق في دوامات الثورة الفرنسية واوغوست كومت، وبعضهم تلهى وانشغل بهذيان دركهايم، ولم تكلّ الحركة أبدًا، لكن لم يحسبوا حساب العصر حينًا، أو تراكضوا وراء الأحلام وحدها، أو اتخذت الأهواء والرغبات آلهة من دون الله فتبدد في الحيرة والضياع ميراث ألف سنة من القيم «المليّة»، ويا ليتنا استطعنا الآن أن نتجاوز هذه السلبيات، هيهات هيهات! فلسنا ندعي أننا ننظر بعين الرضا إلى هذا الجانب من واقعنا، فكم أتمنى أن نتجاوز السلبيات كلها، وأن نطور نظامًا فكريًا وفلسفة «مِلّية» تتغذى من مصادرنا الذاتية!

وأشير هنا إلى أن آراءنا ستتناقض مع بعضها باستمرار وسينهش بعضنا بعضًا في فخ التعارض والتساقط، بسبب الاختلاف في زوايا الشعور والإحساس بالكائنات وتفسيرها، ما لم نُقِم ما نبنيه على قاعدة فكرية راسخة كهذه، وما لم نمتلك نظاما فلسفيًا كهذا، فيجب تحقيق عائدية مستقبلنا إلينا، مثل حاضرنا، بهذه الأصول وبهذا النظام، وبفيض أسلوب تتقاسمه الأجيال جميعًا، فإذا لم تتحقق الوحدة في مشاعرنا وفكرنا ونمط حياتنا فستظل الوحدة المليّة والتضامن المِلّي أُمنية حماسية، فالمنطلق الملي والفكر المَلي والمحاكمة المليّة وواردات الروح أمور بالغة الأهمية في أي نظام من الأنظمة، فأي نظام فكري يستطيع أن يحقق وحدة الحس ووحدة المنطق ووحدة المحاكمة، وسهولة التعايش معًا لشعب من الشعوب، بالمقياس والقدر الذي يستمد من عقل الشعب ووجدانه وعالم أحاسيسه، وعلى الضد إذا تصادمت المشاعر والأفكار والتفاسير

والأساليب، وتناقضت المحاكمات، فإن تزاحم الحركة في هذه الأحوال لا يعني كثرة البركة البتة، ودع عنك البركة، فكثيرًا ما يؤول المصير إلى الاضمحلال في هذه الأوضاع، إن كل حملة وجهد في المجتمع الذي يعاني من فوضى في الفهم والتفسير يشبه أمواج البحر المرتطمة ببعضها، إذ تتكاسر دومًا وتنصبّ إلى حوض عطالتها وتلف وتدور في فراغ الدور والتسلسل الفاسد، ولعلنا نجد بالتمحيص حكمةً في تكاسر أمواج البحر بالارتطام مع بعضها، لكن أمثال هذه المصادمات في المجتمع لا يخلف إلا التعفن والانحلال وإهدار النفس، ففي مثل هذا المجتمع يكون كل فرد ذئبًا يفترس الآخر، وكل فكر برنامجًا للموت، ومع أن السماء تمطر رحمة على مثل هذا العالم، لكن الهيئة الاجتماعية تبقى تحت تهديد عُشّها، وكذلك تبقى القيم التاريخية فيها معرضة إلى الانخراق والتمزق، وتبقى المقدسات مهددة بالتبدد، ولا محل للوفاء عند الكهول في الركام البشري لهذا المجتمع، ولا مكان للفتوة عند شبابهم، فالقوى الفتية والحركية المأمول منها أن تسمو بالمستقبل كسارية العلم على هاماتها، هي التي تحتقر الراية وتشتم الماضي من جهة، وتحسب المستقبل ساحة جنون لإجراء رذائلها من جهة أخرى، أما الكهول والمثقفون الذين سلموا أنفسهم للامبالاة المفزعة، فيتصرفون كمشجعين لفكر «اللوثيات»، فتراهم يثيرون البوهيمية في الأرواح ويصبّون ماء النار على البصائر، بأقوالهم وكتاباتهم ورسومهم وبرامجهم في وسائل الإعلام.

وفي مثل هذه المرحلة، لا تحفز مآوي العلم عشق العلم وفكر العلم في الأرواح، ويلعب أصحاب أيديولوجيات معينة بالذين يمثلون القوة وكأنهم دمى، يفترس بعضهم بعضًا، ويضطر المنطق والمحاكمة والإلهام إلى المسير في الممرات الضيقة للرموز والإشارات، وبدهي أن الحياة بذاتها تكون تعذيبًا للحياة في مجتمع كهذا، عامر بالنقائض والمخالفات، مقدّم للرغبات والأهواء على الفكر.

والحال أن نظام الفكر وفلسفة الحياة عندنا رحيبة، تتناول عوالم الوجود، وماعدا الوجود، وما قبل الوجود، فتقيّم الأشياء وما عدا الأشياء في كلية، وتعيّن معالم نمط الحياة في تكامل وإحاطة، فهو نظام يحقق العدالة الكونية المرتقبة في الأرض كلها بتحويل السلوك الأخلاقي إلى حال السيولة في المجتمع وأجزائه الأفراد، ويستجيب للمتطلبات الإنسانية، فيصل المجتمع في ظل ذلك إلى القدرة على تجديد نفسه ذاتيا بالتربية على الروح والأخلاق والفضيلة والتفكر، ثم يكون فكرنا الحضاري وغنانا الثقافي كسلعة رائجة في كل أقطار الأرض، فنغدو اليد المعطاء التي تقدم في ارتياح هبات فكرنا الإنساني وفلسفتنا الأخلاقية وفهمنا للفضيلة ومتلقياتنا للعدالة، وبفضل هذا الوضع والمستوى أيضًا، تنبجس الحركات الإدارية والأصول الاجتماعية والاقتصادية في الدولة، كما في مصادرها الأخرى، من الروح الذاتية للأمة، فتتحرر من أنواع المقيِّدات كلها. إن التقيّدات الضمنية المضروبة على رقابنا حتى الآن كالنير، بسبب نقاط ضعف فينا أو مديونيات علينا ومهما كانت خفية غير جلية، عَرّضت نظامنا الإداري وأنظمتنا الاقتصادية والسياسية والعدلية إلى العطل والفشل، وأصابها بالشلل.

إن أبناء أرومتنا الذهبية الذين جعلوا الأناضول أرقى بلاد الأرض عمرانا قد نسجوا أو أنشأوا أنظمتهم الإدارية والسياسية وتشكيلاتهم العدلية بمستلزمات الروح الذاتية، فلم يسمحوا لفكر أو لمؤسسة أو لتلقٍّ أن يجتاز من أبواب هذه المؤسسات التي تُعَدّ بيوت الحرم للأمة، ما لم يُقَيّم بالمقوِّمات والمعايير الذاتية، ودع عنك أن يأذنوا بذلك، فهم لم ييأسوا حتى حين انسحابهم جانبًا وقد أثخنتهم الجراح مغلوبين إلى مدة، بعد حرب ضروس مع العالم كله، ولكن مع بريق الأمل، مهزومين ولكن مع الإيمان، فلم يتوانوا عن إلقاء أيديهم إلى التهلكة لحماية أصل حياتهم الذاتية، وتراكموا حول الشعور التاريخي، وعضوا عليه بالنواجذ على الحركيات التي يدينون بوجودهم لها، فكانت نواصيهم عالية، وتَلَقّياتهم عن الدنيا والعقبى موزونة، وأنفاسهم حرة، ماضين نحو إحياء جديد.

وقد نستطيع أن نكون مثلهم، وقد نتقدم عليهم، ونحن نترقب فجرًا يتبع فجرًا في هذا الزمن، إذا قيّمنا الدنيا التي نعيش فيها تقييمًا صحيحًا من وجهة أفق الحكمة الذاتية، ففسرنا الأشياء والحوادث تفسيرًا صحيحًا، وشخّصنا المتطلبات الأساسية لبناء إنساننا الداخلي، وانشددنا بفكرة التواجد والحضور إلى الأبد، وما الذي يعيق الأجيال البصيرة عن تقدم الصفوف مادامت قادرة على تقييم الماضي والحاضر والمستقبل على صعيد واحد، وحامية لأعراف المجتمع وتقاليده وحركيات تاريخه، وماهرة في تفسير تكرر التاريخ باتجاه تجديد الذات؟ ومن المفيد أن نذكر مرة أخرى أن مسؤوليتنا الأساسية اليوم هي إشعار وجدان الأجيال بمؤثرات الكدح المبذول منذ عصور مديدة، والعقائد الإيمانية المتشربة في النفوس، والثقافات المتأصلة الجذور، على قدر أعماقها في ذاتها، وذلك بتطوير حس التاريخ في الأمة، فإذا نجحنا في هذا فلن يخطر على بال أحد بعد جيلين أو ثلاثة أجيال أن يعيش فوق تراب هذه البلاد، ثم يستعير لمؤسسات الشعب المتنوعة مصادر أجنبية عن حركيات روحنا ومعنانا.

نعم، نحن نجلب عناصر حياة الغد من ماضينا، فإن استطعنا أن نعجنها في معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، نكون قد جهزنا خميرة أبديتنا.

ضوابط النشر

حرصاً من إدارة مجلة (الوعي الإسلامي) على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقاً لما يلي من الشروط:

ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصاً في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه .
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة لسيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس وضرورة إرسال البريد الالكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحاً فريداً يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشاراً إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشوراً في الصحف والمجلات المطبوعة والالكترونيه.

ملاحظة: المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

«الوعي الإسلامي» اطلعت على كنزه المخبوء

العم محمد الإبراهيم: نحتاج إلى تهدئة المجتمع نفسيًّا قبل الحث على القراءة

حوار: سليمان الرومي وعامر أحد عامر

لم يكن حوار العم محمد صالح الإبراهيم حوارًا تقليديًا، لا شكلًا ولا مضمونًا، بل حمل لنا قبل القراء من الإثارة والغرابة ما هو جدير بالإشادة به والإشارة إليه، فالرجل غزير الحفظ، عميق النظر، لا يتكلم إلا وفق منهج علمي مدروس ومعد، ربما صبغته به عشرته الطويلة للكتب والحياة بين أسطرها وصفحاتها.. طلب منا ساعة أن أبدينا له الرغبة في إجراء الحوار ألا يتضمن الحديث شيئًا عن سيرته الذاتية ونشأته وتعليمه...إلخ، لأن ذلك من وجهة نظره لا يفيد القارئ كثيرًا، فاحترمنا وجهة نظره وخلت أسئلتنا من هذا النوع، وإن كانت ردوده جديرة بالتعريف به وبنهمه وعشقه للكتب والقراءة والاطلاع، إذ تحوي مكتبته خزائن مليئة بمخطوطات نادرة تصل إلى ٦٠٠ مخطوط، بالإضافة إلى ٧٠ مخطوطًا نادرًا فقد أثناء الغزو العراقي للكويت، ولا غرو فهو عاشق للمخطوطات ويبحث عنها أينما ذهب، وكذلك يأتي إليه تجارها ليعرضوا بضاعتهم عليه فيشتري ما يريد.

كانت إجابات العم محمد الإبراهيم أقرب إلى المقالات الأدبية أو الفكرية منها إلى إجابات على أسئلة في حوار صحافي، وهذا ما فسر لنا حرصه على الاطلاع المسبق على الأسئلة، ومن ثم الإجابة عليها باستفاضة وبيان، غير أننا حاولنا الاختصار ما أمكن، وفق ما يقتضيه المقام، على ألا يكون ذلك مخلًا.

كان أول ما يلفت النظر في لقائنا بالعم محمد الإبراهيم الهدوء والسكون اللذين يخيمان على المنطقة التي يسكنها، مع إطلالتها الخلابة على الخليج الذي تشاهده وأنت في الديوانية أيضًا.. جلسنا في الديوانية وقدم لنا واجب الضيافة، وفاجأنا العم الإبراهيم بأنه قد نشرت له في «الوعي الإسلامي» منذ ما يزيد على ثلاثين سنة بعض المقالات.. خرجنا إلى الشارع الذي يقع البيت بينه وبين البحر، وعبرناه إلى آخر لندخل إلى مكتبته التي توحي لأول وهلة بأنها مكتبة عامة، لولا لافتة كتب عليها «المكتبة الخاصة»، ويسترعي الانتباه في المكتبة ما تحظى به من تبويب وترتيب، فهذه غرفة الأدب، وهذه غرفة الإسلاميات، وهذا ركن خاص بالمخطوطات وهذا...إلخ.

في البداية سألناه عن الكتب التي يهرع إليها حينما تدلهم به الخطوب وتضيق نفسه بأمر ما، فقال: «حينما تضيق نفسي لا أستطيع القراءة، لأني أقرأ بذهن متنبه وحضور نفسي ووجداني»، أما رؤيته لعلاج هذا الضيق الذي يصيب النفس البشرية من حين إلى آخر فتتمثل فيما يجب أن يتحلى به الإنسان بصفة عامة، والمسلم بصفة خاصة، من سماحة وعفو ولين «فإذا كان عيسى عليه السلام قال إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن فأعطه خدك الأيسر، وهذا بلا شك علو في السماحة، فإن الإسلام جاء بما هو أبلغ من ذلك، فقال الله عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ في الكتاب العزيز ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾، فالإسلام يريد أن يتنازل المرء عن شيء

مصطلح «الشعر المنثور» خداع.. ومن هذا ما هو نثر جيد

قصيدة.. تحقن الدماء وتنجح فيما عجزت عنه الوساطات الديبلوماسية!

من حقوقه، وعن ظلم غيره له ثم يضيف إلى ذلك أن يجعل الشخص المعتدي عليه كأنه قريب منه ولي له، ولقد أخذ هذه الحكمة أحد الشعراء في إصلاح ذات البين بين رئيسين متحاربين، كان الشريف حسن (ابن عجلان) محاصرًا للأمير موسى أمير أبها، وأراد موسى أن يفك الحصار وطلب من أجل ذلك إلى كثير من الزعماء أن يتوسطوا له، فلم يفلح أمره، ثم اتجه إلى أحد العلماء وهو إسماعيل المقري، فأرسل قصيدة إلى الشريف حسن، فلما قرأها وافق على الصلح وفك الحصار، وأخذ الحكمة في هذه القصيدة من الآيات السابقة، إذ قال في قصيدته:

أحسنت في تدبير ملكك يا حسن
وأجدت في تحليل أخلاط الفتن
ما كنت بالنزق العجول إلى الأذى
عند النزاع ولا الضعيف أخا الوهن
تمسي ورأيك عن هواك معوق
والغر ملق في يد الأهوا الرسن
داء الرياسة في متابعة الهوى
ودواؤها في الدفع بالوجه الحسن
وإذا الفتى استقصى لنصرة نفسه
قلب الصديق لحربه ظهر المجن
لا تصغ إن شر دعا فالشر إن
تنهض له ينهض وإن تسكن سكن
وسديد رأي لا يحرك فتنة
سكنت وإن حركنه الفتن اطمأن
رد العدو إلى الصداقة حكمة
صفت من الأكدار عيش ذوي الفطن

ثم قال:

موسى هزبر لا يطاق نزاله
في الحرب لكن أين موسى من حسن
هذاك في يمن وما سلمت له
يمن وذا في الشام لم يدع اليمن

وسألناه إن كانت عنده مخطوطات نادرة لم تر النور، أو لم تطبع فقال: «ربما كان ذلك قديمًا، أما الآن فلا، وهناك كتاب مطبوع حروفه مقطعة ومرسومة، تقرأ من اتجاهات مختلفة، ويحوي أربعة علوم، كل علم يقرأ من جهة، وكأن الكتاب مختص به، وعندي نسخة مخطوطة منه، وأنا أقدم دائمًا مساعدات شتى للباحثين، لكن في الأشياء النادرة غير الموجودة، أما الشائع فلا، لأن الحصول عليه سهل، والمكتبات كثيرة، فكانوا يأتون إلى هنا ويصورون ما يريدون من مخطوطات دون أن يأخذوها معهم».

ولما كان من المنطقي أن يكون جمع هذه المخطوطات نواة لمشروع طبعها سألناه عما إذا كان تبنى مشروعًا كهذا فقال: «لم يكن عندي متسع من الوقت لذلك، لأنني كنت أحب أن أؤلف، وإن كنت قد توقفت»، فسألنا متعجبين: ولكنم مقلون جدًا في التأليف فليس لديكم إلا كتابين، فقال: «العلم لا يقاس بالكم، وأنا أحيلكم إلى كتابي لتدركوا معنى ما أقول، وعمومًا كانت هناك كثير من المشاغل الأخرى المتعلقة بالكتب والمكتبة».

ومذهب العم الإبراهيم في الحداثة في شكل القصيدة في الشعر العربي الحديث أن هذا ليس شعرًا، ولكن الجيد من هذا النوع لا ينكره أحد، على أنه لا يعدو أن يكون نثرًا، «وليس هناك شيء في الحقيقة اسمه شعر منثور.. هذا خداع، فالشعر قام على الوزن، واللغة العربية بصفة عامة فيها موسيقى حتى في النثر».

ويرى العم أن من الأهمية بمكان الاهتمام بحسن تنشئة الأطفال، لأن «علماء النفس يقررون أن العلوم التي تغرس في الصغر هي أثبت الأشياء التي تبقى (كما يقرر ذلك أيضًا علماؤنا الأولون)، ولذلك بدأت العناية بالأطفال في سائر الأمم، ويحكى أن ملكًا أعجب بفطنة طفل وثقافته وعلمه، فلما استدعى أباه وجده صفر اليدين من ذلك، فلامه ووبخه، إلا أن الطفل قال لقد أحسن والدي عمله، وأنا عمله، فلا تلمه ولم والده.

والإنسان العربي- من وجهة نظر العم- لا يقرأ لأسباب عدة منها ما يرجع إليه وإلى طبيعته، ومنها ما يرجع إلى ما حوله من المؤثرات، وهناك شواغل للإنسان كثيرة لكن أكبر ما يشغله يأتي من داخله، وهنا تبرز المشكلة التي يعجز عن علاجها كثيرون، وهي المشكلة النفسية، وربما كان كثير من الناس مرضى نفسيين وما يشعرون، وعصرنا هذا مليء بالأزمات، بما لها من آثار خطرة تضايق النفس، وقد وقعت حوادث غريبة في هذا الصدد، فلمجرد وقوف سيارة أو تعطلها انتحرت صاحبتها وألقت نفسها في النهر، حدث هذا في أوروبا، ونشر في الصحف، فنحن بحاجة إلى مؤثرات نفسية تهدئ المجتمع كاملًا، وقد نبهنا القرآن إلى ذلك وأعطانا الصورة الصحيحة للعلاج، وخص المتقين بهذا العلاج ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾، وشعوبنا تحتاج إلى هذا النوع من التهدئة النفسية، وتحتاج إلى معرفة عللها ومعالجتها.

التاريخ بين الحقيقة والتزييف

إنّ الناظر للتاريخ الإسلامي العظيم يرى أنه حمل صورًا مشرقة من الحضارة والإضاءة والعدل والإنصاف مع نفسه ومع الأمم والشعوب التي انضوت تحت حكمه، وانطوت تحت لوائه، غير أن الفتن والأزمات الحادثة في مسيرته أحدثت وهْنًا حضاريًا، وصورًا من الغثاء الاجتماعي، حتى ضعضع الدهر كثيرًا من جوانب الأمة، وأشمت بها الأعداء، بل أصبح من سلوة النفس الشماتة بالذات، ولكن هذه الفتن وهذه الأزمات في الوقت ذاته شكلت تحديات، وأثارت استفزازات، وجدّدت عزائم، وشحذت هممًا، وحرّضت على استئناف الشؤون الحضارية.

إن ما يلحق تاريخ الأمة من إصابات وجراحات، إنما هو في الحقيقة منبّهات ومحرضات حضارية، تحمل بصائر الحاضر وبشائر المستقبل، ومع التسليم بأنّ ما يصيب الأمة هو بسبب نفسها وأعمالها، فإنّ من اليقين أنها- بفضل الله- تمتلك قيم الوحي الثابتة والخالدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، تؤمن بها وتقوم عليها، وهي المقياس والنبراس الذي يكشف الخلل، ويحدد زاوية الانحراف، وبه تكون الأمة قادرة على التصويب والترشيد والنهوض والتجريب.

هذا ما يقال في نسبية الحقّ والتزييف في كتابة التاريخ وسرده، فإن المنهجية العلمية تحفظ التاريخ، كما أن الزيف وعدم المصداقية فيه قد تكون له فوائد، فإن أصول الشريعة وثوابتها هي جهاز المناعة للتاريخ، وانحرافات المنهج، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ من غير المنكور أنّ التيارات الوافدة المعاصرة حقّقت نجاحات من الغزو والاحتواء واسعة النطاق في مختلف أنحاء العالم، ولكن الإسلام والمجتمع الإسلامي رغم كل ما يعاني ظل وسيظل- بإذن الله- متماسكًا في مواجهة رياح التزييف، فالإيمان بالإسلام وتاريخه الناصع راسخ الجذور لدى الشعوب المسلمة كافة، والمسلمون لا يرفضون الجديد المفيد، ولكن المشكلة في أصحاب التيارات الوافدة حين يصرّون على تزوير الأحداث وقلبها، وتشويه المنجزات، وتحليل المواقف، وتفسير الوقائع، والمغالطة في المفاهيم.

إنّ تزييف التاريخ وإفساده يعني- بلا مواربة- الانحياز والتلفيق، والمغالطة والانتقائية، والهجوم والتسفيه، والله تعالى يقول: ﴿فأمّا الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾.

ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ

د. مصطفى محمد طه

تأتي الأهمية القصوى للتاريخ في حياة الإنسان من منطلق أنه يمثل في بداية التحليل ونهايته حلقات متتالية في سلسلة واحدة يكمل كل منها الآخر، هي سلسلة الوجود البشري على ظهر هذا الكوكب الأرضي منذ أن وطأته لأول مرة قدم سيدنا آدم أبوالبشر، عليه السلام، وإلى آخر رجل من سلالته، وذلك وفق نسق حضاري فريد يدل على مدى دينامية الإبداع الإنساني في كل زمان ومكان، طالما توفرت له الشروط اللازمة لتفجير طاقات هذا الإبداع الذي نسميه حضارة.

بداية، نرى أن ثمة عدة تساؤلات حيوية تطرح نفسها على بساط البحث من قبيل: من الذي يصنع أحداث التاريخ ويؤثر في مساره: الأفراد أم الجماعات؟ الحكام أم الشعوب؟ هل الأحداث التي تصل إلى درجة من التأثير والفاعلية هي من صنع ساسة وقواد بلغوا مرتبة البطولة أم أن هذه الأحداث حصيلة حضارة أسهم فيها شعب بجميع أوجه نشاطه، اقتصادية واجتماعية وعلمية وفكرية وفنية وأدبية فضلاً عن أنظمته من دين ولغة وعادات؟ لمن يؤرّخ المؤرخ: لشخصيات يراها صنعت التاريخ وأثرت فيه أم يؤرّخ لحضارات؟ ما هو محور التاريخ؟ الأفراد أم الحضارات؟.

إن الإجابة الموضوعية عن هذه التساؤلات، هي التي من شأنها أن تجعل الواقعة التاريخية على قدر كبير من المصداقية، وبالتالي تكون أقرب ما تكون للحقيقة منها إلى التزييف، وذلك لأن الأهواء والنزاعات المذهبية وأحياناً الذاتية، هي التي عكرت -ولا تزال- صفو وجلاء

أكاديمي لبناني

الواقعة التاريخية، وذلك عبر محاولة بعض رجال التاريخ لي عنق الحقيقة، لجعل حقائق التاريخ -أحياناً- تكون لصالحهم من أجل تحقيق مكاسب دنيوية. ولذا فإننا نميل إلى أن يؤرخ المؤرخون لحضارات بدلاً من التأريخ لشخصيات، فهذا أجدى وأنفع من المنظور الديني والحضاري. ولذا لابد أن يصبح التاريخ في تقديرهم غير تابع للسياسة، فالسياسة ليست هي أهم أو حتى أبرز مظاهر الحضارة، أو أكثر فعالية في توجيه مسار التاريخ، بل إن مظهراً آخر من مظاهر الحضارة قد يمثل الصدارة في هذا المضمار مثل الدين أو العلم بكل مناحيه.. وحينئذ يجد المؤرخون أنفسهم يؤرخون لهذه المظاهر ممثلة في رجالها. ولعل الذي ساعد على تبني مثل هذه الوجهة، إنما هو على الحقيقة تقدم الدراسات التاريخية في واقعنا المعاصر، وذلك لأن دور الفرد-البطل- قد تضاءل رويداً رويداً لصالح المؤسسات الحضارية.

ليس هذا الأمر هو وليد اليوم، بل إنه إحدى إفرازات الإسلام الفريدة، ولهذا أصبح التاريخ الإسلامي -كما يذهب إلى ذلك د.أحمد محمود صبحي- أول تاريخ حضارات، لأنه تحكمت في الفكر الإسلامي عبر أطواره التاريخية عدة عوامل جعلت المؤرخين فيه يؤرخون للحضارات لا للحكام.

التاريخ بين الحقيقة والتزييف

إن طرح قضية التاريخ والمؤرخين في لحظتنا الراهنة -بعيداً عن التصور الإسلامي- يجعلنا لا نتفق مع من يتكلم عن الثقل الخانق للتاريخ في حضارة الإسلام إلى حدّ عدم السماح بالتنفس في هذا العصر، فلا يُرى المسلمون إلا من خلال تاريخهم، أما الحاضر والمستقبل فقضية فيها نظر، وهناك من يرى أن التاريخ ليس بهذا الثقل ولا هذا الاختناق، بل يكاد أن يكون هو هذا التاريخ، لا نقول الضائع في مجمله، ولكن في العديد من منحنياته أو من مناحيه، فهناك ما افتُقد

من الذي يصنع التاريخ الأفراد أم الجماعات؟ الحكام أم الشعوب؟

من التاريخ، وهناك ما صودر ومُنع من العبور عبر الأزمنة، وهناك ما شُوّه وزُيّف وصُنع في عقول المؤرخين وفي لحظات انسجامهم ورضائهم عن العطاء أو في لحظات تأزمهم نتيجة لبخل من مدحوه وكرّموه، فهو تاريخ مُقيس حسب المقاس، وباسم المردودية وما يُجنى من ورائها، أما قضية تاريخ المؤرخين فإنها كبرى القضايا.. وذلك لأنها قضية فكرية محورية، ويمكننا عن طريقها تنقية الواقعة التاريخية من شوائب وأدران التزييف التي شابتها، وبالتالي نجعلها قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة، ولو بمعاييرنا الدنيوية حيث لا حقيقة مطلقة إلا الذات الإلهية الحقة وكل ما سواها نسبي، إلا ما أراد له الله البقاء والديمومة عبر الدينامية المتفجرة للمدّ الإيماني والإشعاع الحضاري، ويأتي في مقدمة ذلك الإسلام، ألم يقل عزّ من قائل: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ (البقرة: ١٣٨).

ولعل المعيار الموضوعي الوحيد، الذي يساعد المؤرخين على فرز التاريخ الحق من الزائف، إنما هو مدى سعة أفقهم في مضمار الثقافة التاريخية، التي من شأنها -ككل جهد ثقافي وباعتبارها حصيلة للثقافة الإنسانية بمجموعها- أن تُنمّي لديهم «الحكمة»، التي يولّدها عمق الاختبار وسعته، فضلاً عن أنها تلحّ في التساؤل حتى تصل إلى الأعماق والجذور. فإذا انتقلنا من مجال الفكر إلى العمل، وجدنا أن العمل التاريخي المبدع كما يتطلب صحة الإحساس بالحاضر والتطلع إلى المستقبل والإقدام عليه، فإنه لا يمكن أن يكون مبتوت الصلة بالماضي، ذلك أن الإنسان الحيّ الفاعل صانع التاريخ ليس «مستقبلياً» مطلقاً سابحاً في الرؤى والأحلام، ولا «حاضرياً» مطلقاً غارقاً كل الغرق فيما حوله من إشكاليات، ولا «تاريخياً» مطلقاً يحنّ إلى الماضي ويبغي أن يُعيده كما كان، بل هو ذلك الإنسان الداخل في صلب الحضارة المسهم فيها المتشوق إلى من يأتي من بعده ويتخطاه في مجالات الصنع والإسهام الحضاري.

تفسير التاريخ بين الحقيقة والتزييف

تطور تفسير التاريخ ومعرفة أسباب الحوادث مع الزمن متأثراً بالموضوع وبالمفسر. فقد تطور الموضوع مع الزمن كمّاً، بزيادة مادته بفعل التراكم الزمني واتساع رقعة مساحته الجغرافية حتى شملت العالم، واتساع آفاقه من حديث عن حرب أو حاكم إلى تصوير ما كانت عليه الحياة في زمن ما بكل جوانبها، كما تطور كيفاً بتقدم تقنية جمع معلوماته، وتنويع مصادره وموضوعية نقدها، وصولاً لمعرفة ما حدث على الحقيقة -لا التزييف والظن والكذب- مما ساعد على إيجاد تفسير للتاريخ أكثر صحة.

وإذا كانت السطور السابقة قد بلورت إلى حدّ ما أبعاد الدور الحيوي لتفسير التاريخ كعلم، فيا تُرى ما هي ملامح رسالة مفسر التاريخ ونتائجها على واقع التاريخ كعلم ومنهج؟!.

وللإجابة عن مثل هذا التساؤل نقول: أما المفسر فقد زاد مع الزمن علماً بالأحداث، وكلما اقترب من أيامنا هذه ازداد المرصد الحضاري، الذي يرصد منه حركة التاريخ علواً، وتأثر ببيئته الثقافية قيماً وتنوعاً وغنى؛ فالموضوعية أصبحت من أخلاق العالم والباحث، وعلى الرغم من صعوبتها في التاريخ عموماً، وفي تفسيره خصوصاً، نظراً لصعوبة الفصل بين الذات والموضوع، إلا أن السير نحوها قدماً وجد ما ييسره لبعد أكثر ما يعالجه

المفسر في ميدان التاريخ المتسع عنه، إذ لم يعد اهتمامه قاصراً على أحداث قبيلته أو موطنه، بل حمله الطموح أحياناً للتطلع لتفسير أحداث العالم كله، كما تنوع المفسرون للتاريخ فلم يعودوا يقتصرون على المؤرخ فحسب، بكل ما أغنته به بيئته من قاعدة ثقافية عريضة، بل تعداه الأمر إلى آخرين ذوي اختصاصات علمية شتى مثل: الجغرافي وعالم الطبيعة والمحلل النفسي والفيلسوف، وقد طغى هؤلاء على هذا الميدان حتى كادوا يستأثرون به كله، ووصل الأمر بأحدهم إلى حدّ هدم الحاجز بين التاريخ والفلسفة، واعتباره تعليماً للفلسفة بالأمثلة. إن هذا التنوع الذي عرفه مفسّرو التاريخ، قد انتقل بدوره إلى مذاهب تفسير التاريخ، التي تنوعت هي الأخرى، ما بين مذاهب وضعية وأخرى دينية، ولعل أبرز التفاسير الوضعية: التفسير المثالي لدى هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م). والتفسير المادي لدى كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) وإنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥م) والتفسير البيولوجي لدى أوزفلد شبنجلر (١٨٨٠-١٩٣٦م) والتفسير الحضاري لدى أرنولد توينبي (١٨٨٩-١٩٧٥م). أما أبرز التفاسير الدينية للتاريخ فهو التفسير الإسلامي.

علم «الهرمينيطيقا»

بداية نرى أنه في مجال العلوم الإنسانية -وفي مقدمتها التاريخ- قد جرى الاهتمام بالتعليل أو التأويل أو التفسير إلى حدّ ظهور علم لهذا الغرض هو علم (الهرمينيطيقا). وتعاظم دور هذا العلم من درجة الطموح إلى التنظير باعتباره أقصى درجات العلم وأسماها. ومعلوم أن نشأة علم التاريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة، بشهادة جمهرة الدارسين والباحثين، لذلك اهتم المؤرخون الروّاد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساسياً لاكتمال عملية كتابة التاريخ، وقد تطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل إلى درجة مرموقة في هذا المجال الحيوي بولوج باب فلسفة التاريخ.

وإذا كان المجتمع العربي قبل الإسلام قد افتقد المفهوم الكوني الواضح للتاريخ الذي يربط بين ماضي الحياة وحاضرها على أساس روحي عميق، أو فلسفي شامل، وذلك لافتقاد وعيه بذاته الحضارية المستقلة، وبالتالي تشتت هذا الوعي الجاهلي بين تصورات الجاهلية للماضي وما يرتبط بها من قصص الأيام والأنساب.. إلا أن فكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على أن للتاريخ معنى أخلاقياً وروحياً مؤسساً على علاقة الألوهية الحقة بالكون، ودور الإنسان فيه، وذلك بوصفه خليفة الله في أرضه. وكثير من النصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى في مناسبات مختلفة، فهي تحض الإنسان على الإقبال على الحياة والعمل، ولكنها تحذره في الوقت نفسه من غرور يتهدده فيكون مصيره الهلاك كما حدث لكثير من الأمم من قبل -تصديقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (الفتح: ٢٣).

إن هناك حقيقة أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم، تلك هي أن مساحة كبيرة من سوره وآياته خُصصت للمسألة التاريخية، التي تأخذ أبعاداً واتجاهات مختلفة، وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان، مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والكون، وبالصيغ الحضارية التي لا حصر لها، فهي تتأرجح بين البساطة والنضج والتركيب.. وتبلغ هذه المسألة حداً من الثقل والاتساع في القرآن الكريم، فمعظم سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدث ما، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ. وهذا أمر منطقي تماماً، لأنه ينسجم مع إعجاز القرآن الفارد وتوزيعه الفذّ لمساحات آياته وسوره لتغطية كافة المسائل الأساسية في حياة البشرية. وفي هذا يقول عزّ من قائل: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (يوسف: ١١١). ولعل الذي يضفي طابعاً من التفرد والموضوعية الحضارية على التفسير القرآني للتاريخ، هو أنه ينبثق عن رؤية الله، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية، وذلك لأنها تحيط علماً بوقائع التاريخ، بأبعادها الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وببعدها الرابع، الذي يغيب كثيراً عن ذهن الإنسان مهما كان على درجة من

البصيرة والذكاء، إنه البعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية فيلامس فطرة الإنسان وتركيبه الذاتي، والحركة الدائمة في كيانه الباطني، ويتسرب بعيداً صوب اهتزازاته العقلية والوجدانية، وإرادته المستقلة، وما تؤول إليه هذه جميعاً من معطيات تمنح حركة التاريخ أبعادها الحقيقية، ويمتد -كذلك- لكي يشتبك في العلاقات الشاملة للمصير، ذلك أنها رؤية الذات الإلهية التي وسعت كل شيء علماً، ولهذا صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها في مكانها الطبيعي من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء، ولكن الرؤية الوضعية تمتد إلى الماضي لتقتبس منه وتختار ما يعزز وجهات نظرها المسبقة، والرؤية القرآنية تحيط بالماضي لكي تكثفه في قواعد وسنن تُطرح أمام كل باحث في التاريخ يسعى إلى فهمه، وإلى أن يرسم على ضوء هذا الفهم، طرائق حياته الحاضرة والمستقبلة، باعتبار أن الأزمان الثلاثة إنما هي وحدة حيوية تحكمها قوانين واحدة كتلك التي تحكم الحياة سواء بسواء.

نموذج فكري للتفسير الإسلامي للتاريخ

لعل أبرز نموذج فكري يجسّد مطالب هذه المشاركة ضمن ملف يعالج أبعاد موقع التاريخ بين الحقيقة والتزييف، إنما هو فيلسوف الحضارة الإسلامية الأول ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ=١٣٣٢-١٤٠٦م) الذي يُعتبر -على حدّ تعبير د. عبدالحليم عويس- «نبتة حضارية.. وليس ثمرة عصره فقط!!». ولهذا فإن ابن خلدون هو علامة فارقة في تاريخ الفكر الحضاري -إسلامياً وكونياً- وذلك لأنه عبقريّ من الطراز الأول. ومن هنا فإن معطياته الفلسفية تعتبر بمثابة التأسيس الفكري لكثير من العلوم، ويأتي في مقدمتها علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، التي ارتبطت بتفسير التاريخ لديه تفسيراً حضارياً وفقاً

فيلسوف الحضارة الإسلامية الأول ابن خلدون هو نبتة حضارية وليس ثمرة عصره فقط

للتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان. ولقد أنشأ ابن خلدون في مقدمته علماً جديداً لم يسبقه أحد إليه من قبل من مفكري الشرق أو الغرب، وقد أطلق على علمه الجديد هذا اسم العمران.

ويبدو أن مهمة علم العمران كما تصورها ابن خلدون، كانت هي تمحيص الأخبار، على أن الدراسة المتأنية لعلم العمران الخلدوني، تخرج باستنتاجات عديدة عن هوية علم العمران، فهل يمكن أن يُعد هذا العلم هو علم الاجتماع أو فلسفة التاريخ أو علم في المنهج، على غرار المنطق، أو الفلسفة السياسية؟ إن دراسة ابن خلدون للظواهر الاجتماعية يمكن أن ترقى بعلمه الجديد هذا، إلى مصاف الدراسات التي تتصل بصميم فلسفة التاريخ، وبالتالي فإن ابن خلدون هو أول فيلسوف للتاريخ والحضارة كما سبق أن ألمحنا على صعيد الفكر الإنساني.

إن ما تقدم يجعل من الضروري أن نقف كما وقف ابن خلدون لنعيد قراءة الماضي الحضاري للأمة الإسلامية على ضوء معطيات الحاضر، لنصل ما انقطع من تطور في كتابة التاريخ الإسلامي، ولتجاوز الثغرات والأخطاء والهفوات التي وقع فيها المؤرخون الأقدمون، ربما بسبب ظروف العصر التي أحاطت بهم أو الإمكانات العلمية والتقنية التي كانت تحكم نشاطهم.

تصورات ختامية

التصور الختامي الأول: هو أن التاريخ ليس حركة عبثية قائمة على المصادفة والعشوائية، إنما ينتظمه قانون، وتحكم حركته سنن، وهو من أعمال وصناعة البشر، أصحاب القدرات والإرادات والمسؤوليات، ولو لم يكن للتاريخ هذا البعد والقانون الكلي، لما استحق أن يكون علماً، ولما استحق أن يكون مصدراً للعبرة والتجربة للإنسان في كل زمان، ولما أمكن الإفادة منه لغير زمانه، ولما جاز أن يترتب على الفعل التاريخي أية مسؤولية، ولما استطاع أن يضيف عمراً يضاعف أعمارنا، وعبراً تغذي عقولنا، أو بكلمة مختصرة: لم يكن لذكر القصص القرآني أي معنى في صناعة الحاضر ورؤية المستقبل. إذن فالتاريخ هو علم الماضي والحاضر والمستقبل في آن، ولذا ينبغي أن تكون الحقيقة وحدها، وليس التزييف، هي لحمة وسداة الكتابة التاريخية في واقعنا الثقافي المعاصر، خصوصاً وأننا الآن بصدد إعادة تشكيل العقل المسلم، الذي عليه أن يتسلح بالحقيقة وهو يلج أبواب المستقبل، ويرنو إلى تكوين حضارة إسلامية معاصرة، حتى يتسنى لأمتنا مبارحة حالة السقوط الحضاري التي طال ليلها البهيم.

التصور الختامي الثاني: هو أن الدخول إلى ساحة التاريخ، ولاسيما في عصر التخصص -الذي نعيشه- لم يعد ممكناً من باب واحد، بعد إذ أصبح علماً أو نشاطاً معرفياً، ذا طبقات شتى، فكان لابد من الولوج إليه من أبواب متفرقة يُفضي كل واحد منها إلى طبقة أو دور من عمرانه ذي الطبقات والأدوار، وبقدر ما يتعلق الأمر بإسلامية هذا العلم، فإن علينا -أولاً- أن نتبين جيداً مسالكه وأبوابه، وأن نضع نصب أعيننا خرائطه التفصيلية كي لا تتبقى أية مساحة، لا تمتد إليها المحاولة -فنعيد تكييفها إسلامياً- إنْ على مستوى المنهج أو الموضوع، بغضّ النظر عن حجم الجهد والمدى الزمني المطلوب.

التصور الختامي الثالث: هو أن الدعوة لإعادة كتابة تاريخنا أو إعادة عرضه وتحليله لا تعني -بالضرورة- البدء من

نقطة الصفر، أو الرفض المطلق للصيغ التي قدمه بها مؤرّخونا القدماء، ومحاولة قلب معطياتهم رأساً على عقب، ومن يخطر على باله أمر كهذا فهو ليس من العلم في شيء، وإنما المطلوب هو منهج عدل، يتوخى الحقيقة في كتابة تاريخنا ويجعله بعيداً عن التزييف، ولتحقيق مثل هذا المنزع الحضاري، فلابد له من أن يتعامل مع معطيات الأجداد بروح علمية مخلصة، فيتقبل ما يمكن تقبله، ويرفض ما لا يحتمل القبول، ويقدّر عطاء الرواد حق قدره، دون أن يصدّه ذلك عن متابعة آخر المعطيات المنهجية والموضوعية التي يطلع علينا بها العصر الحديث، وأشدها صرامة. فالمطلوب إذن هو موقف وسط يرفض الاستسلام للرواية القديمة ويأبى إلغاءها المجاني من الحساب، رؤية موضوعية تستحضر البيئة التي تخلقت في أحضانها وقائع التاريخ الإسلامي، وتعتمد في الوقت نفسه معطيات العلوم المساعدة كافة: إنسانية وصرفة وتطبيقية، من أجل كشف أشد إضاءة لهذه البيئة، وفهم أعمق لوقائعها وأحداثها.

التصور الختامي الرابع: هو أن ضرورات الوعي التاريخي والفقه الحضاري في اللحظات الراهنة، إنما تتطلب المزيد من الاهتمام بتصنيف المعطيات القرآنية والنبوية ودراستها بخصوص هاتين المسألتين، والسعي لتوظيفها في إعادة بناء المشروع الحضاري الإسلامي وتأصيله، من أجل أن يكون جديداً بملء الفراغ الذي تركه -ولا يزال- سقوط النظم والمبادئ الوضعية عبر النصف الثاني من القرن العشرين على وجه الخصوص.

التصور الختامي الخامس: هو أن ابن خلدون قد استطاع أن يضع فعلاً رؤية تنظيرية لتفسير التاريخ، بعوامل مختلفة سماها طوراً «العصبية الدينية»، وسمّاها طوراً «البيئة»، (أي الأثر الجغرافي)، كما ألمح إلى العوامل البيولوجية والاقتصادية.

وبذلك يكون ابن خلدون فيلسوفاً للحضارة الإسلامية، ذا نزعة تقدمية لأنه يعتبر أول من قدم منظوراً علمياً لفكرة التقدم في الفضاء الثقافي الإسلامي، وتأتي فرادة هذا التنظير لأن أمتنا كانت في طور سقوطها حضارياً، وكأني به قد أراد أن ينقذها من براثن السقوط، ولكن الأمة لم تُحسن الإصغاء لنداء هذه اللحظة التاريخية النادرة التي ظهر فيها ابن خلدون، فلم تأخذ بمعطياته العلمية، فسقطت حضارتها سقوطاً مروعاً، ودخلت في دورة الانحطاط. ولعل هذا يحتم علينا ضرورة الاستيعاب الموضوعي للعطاء الخلدوني في هذا المنحى، حتى يتسنى لأمتنا الإقلاع الحضاري من جديد، كما أقلعت من قبل إبان مجتمع التوحيد الأول، على يد رائدها الأول، سيدنا محمد ﷺ وصحابته الغرّ الميامين.. إن هذا أمل وما ذلك على الله بعزيز.

المراجع

(١) د.سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة، العدد ٦٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، السنة السابعة عشرة، رجب ١٤١٨هـ=تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧م، ص٧٧.

(٢) خالد فؤاد طحطح: في فلسفة التاريخ، الدار العربية للعلوم، بيروت ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م، ص١٧.

(٣) د.أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت ١٤١٤هـ=١٩٩٤م، ص٦٣.

(٤) د.أحمد محمود صبحي: المرجع نفسه، ص٧٦.

(٥) خميس البكري: د.رشدي فكار المفكر الإسلامي العالمي، في حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين، مكتبة وهبة، القاهرة ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م، ص٦٣.

(٦) د.محمد فتحي عثمان: المدخل إلى التاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ=١٩٩٢م، ص٤٧-٤٨.

(٧) د.أحمد محمود بدر: تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، العدد ٤، المجلد ٢٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل - يونيو ٢٠٠١م، ص٧.

(٨) د.أحمد محمود بدر: المرجع نفسه، ص٨.

(٩) د.محمود إسماعيل: إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل، مجلة عالم الفكر، العدد ٤، المجلد ٢٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل - يونيو ٢٠٠١م، ص٤٢.

(١٠) د.عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م، ص٢٤٦.

(١١) د.عفت الشرقاوي: المرجع نفسه، ص٢٨١.

(١٢) د.عماد الدين خليل: حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن كثير، دمشق ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م، ص٥٩-٦٠.

(١٣) د.عماد الدين خليل: مقالات إسلامية، دار ابن كثير، دمشق ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م، ص١١٣-١١٤.

(١٤) د.عماد الدين خليل وآخر: دليل التاريخ والحضارة الإسلامية في الأحاديث النبوية، دار الرازي، عمان ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م، ص٥.

(١٥) خالد فؤاد طحطح: المرجع السابق، ص٤٠.

(١٦) د.سالم أحمد محل: المرجع السابق، ص١٤١.

(١٧) د.هاشم يحيى الملاح: الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٣١هـ=٢٠١٠م، ص٢٥٣.

(١٨) عمر عبيد حسنة: ضمن مقدمة: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، مرجع سابق، ص٢٠.

(١٩) د.عماد الدين خليل: الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، دار الفكر، دمشق ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م، ص٢٢٧.

(٢٠) د.عماد الدين خليل: مدخل إلى التاريخ الإسلامي، الدار العربية للعلوم، بيروت ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م، ص٣٠.

(٢١) د.عماد الدين خليل وآخر: المرجع السابق، ص٨.

(٢٢) د.عبد الحليم عويس: التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، كتاب الأمة، العدد ٥٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، السنة الخامسة عشرة، ذو القعدة ١٤١٦هـ=آذار (مارس) - نيسان (أبريل) ١٩٩٦م، ص١٠٨.

أثر الروايات الضعيفة في تشويه التاريخ الإسلامي

محمد إلهامي

للوهلة الأولى، لا يُكتشف الأثر البعيد والسيئ للروايات الضعيفة والموضوعة في التاريخ الإسلامي، لاسيما روايات العصر النبوي والراشدي، إنما يبدأ إدراك الأثر حين يبدأ عقل ما في تركيب هذه الروايات في «نموذج تفسيري» بتعبير د.عبدالوهاب المسيري، وهو في عامة الأحوال نموذج سيئ، أقله أن يثير الشكوك ويأتي بالغرائب، وأعلاه أن يطعن في رجال العصر الأول، وهم خير القرون، فينسبهم إلى ما يتنزه عنه كثير من الفساق والفجار.

إن الرواية الضعيفة في تاريخ العصر النبوي والراشدي لها من الضرر ما يساوي ضرر الحديث الضعيف والموضوع، ذلك أن سيرة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين من السنة التي أُمِرَ المسلمون باتباعها والاقتداء بها، فمنها ينهلون طريق الإصلاح والتجديد والتطوير، وعبر مساراتها يستكشفون سنة النبي ﷺ وهديه في التعامل مع الأزمات والمشكلات، ولقد حدث أن فعلت روايات ضعيفة في السيرة أثرًا سيئًا حين بُنيَت عليها مناهج للتربية وطرائق للإصلاح ومسارات للنهضة، فاستهلك الكثير من الجدل والمجهود، وذهبت كثير من الأوقات- بل والأعمار- في بناءٍ تأسس على روايات ضعيفة.

وكثيرًا ما تبدو الرواية الضعيفة وكأنها ليس فيها ما يريب، بل ربما كانت من المقبول الذي يستحسنه البعض، ويستطيبون ذكره، إلا أنها- وفي أحوال كثيرة- تسهم إلى جانب أخوات لها ضِعَاف في تكوين صورة شائهة، ثم تدفع هذه الصورة الشائهة بالعقول إلى تحليلات خاطئة تماما، وثمة كثير من الأمثلة التي يُمكن أن تُضرب في هذا المجال، إلا أن الأنسب في هذا المقام أن نضرب مثالًا بروايات

لم يفرق مونتجمري بين الصحيح والضعيف من هذه الروايات بل قرأها كلها معا من طبقات ابن سعد ومن سيرة ابن إسحق

ضعيفة لا يكاد يُستشعر منها خطر أو فتنة، وسنرى كيف أدت إلى صورة شائهة ثم تحليل موغل في الخطأ، ذلك هو تحليل المستشرق البريطاني المعروف مونتجمري وات، وهو مستشرق منصف كما يبدو من عامة كتبه، ولقد بذل مجهودًا يستحق الإعجاب في دراسته للسيرة والتي نُشرت في مجلدين هما «محمد في مكة» و«محمد في المدينة»، إلا أن مونتجمري وات بمجهوده الدءوب وعقله النبيه لم يكن يستطيع التفرقة بين الصحيح والضعيف من الآثار، فليس مؤهلًا لذلك، ولا نستطيع أن نطالب مستشرقًا باستيعاب علم لا يقدر عليه إلا القليل من أبناء أمتنا نفسها، وحيث إن أمتنا تعيش كبوة من كبواتها فقد أدى هذا إلى تأخر المجهود المطلوب في تحقيق الروايات التاريخية في مصادرها الأولى.

جاءت ثلاث روايات صحيحة، الأولى تقول: دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ فرأينها سيئة الهيئة، فقلن لها: ما لك فما في قريش أغنى من بعلك؟ قالت: ما لنا منه شيء؛ أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم. فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فَلَقِيَه، فقال: «يا عثمان بن مظعون أما لكَ بي أسوة؟». فقال: بأبي وأمي وما ذاك؟ قال: «تصوم النهار وتقوم الليل». قال: إني لأفعل. قال: «لا تفعل؛ إن لعينيك عليك حقًا، وإن لجسدك حقًا، وإن لأهلك حقًا، فصل ونم، وصم وأفطر». قال: فأتتهن بعد ذلك عطرة كأنها عروس، فقلن لها: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس (١).

والثانية تقول: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين رأى أسماء بنت عميس- وكانت ممن هاجر إلى الحبشة ثم عادت إلى المدينة- قال لها: «سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت كلمة: كذبت يا عمر، كلا والله؛ كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا في دار- أو في أرض- البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك، قال: فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسول الله

باحث في التاريخ

ﷺ : ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» (٢).

والثالثة مختلف في إسنادها، وإن كانت أقرب إلى الصحة، تقول: إن عثمان بن مظعون أراد أن يختصي ويسيح في الأرض فقال له رسول الله ﷺ : «أليس لك فيّ أسوة حسنة؟ فأنا آتي النساء، وآكل اللحم، وأصوم وأفطر، إن خصاء أمتي الصيام، وليس من أمتي من خصى أو اختصى» (٣).

ثم يأتي دور الروايات الضعيفة، وهي التي اعتمد عليها مونتجمري وات لورودها في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، فانظر هذه الروايات كيف تبدو- للوهلة الأولى- غير ذات ضرر، ثم انظر كيف ركبها مونتجمري وات في صورة مضللة فخرج منها بتحليل غريب لهجرة الحبشة، وإن كان لا يُلام عليه وحده.

جاء عند ابن سعد:

١- أن عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث وأبوسلمة بن عبدالأسد وأبوعبيدة بن الجراح وعبدالرحمن بن عوف أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا جميعًا في ساعة واحدة (٤). (من رواية الواقدي وهو متروك، وفي السند انقطاع عند يزيد بن رومان وهو من صغار التابعين).

٢- أن عثمان بن مظعون حرم الخمر في الجاهلية وقال إني لا أشرب شيئًا يُذهب عقلي، ويضحك بي من هو دوني ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد. (قال الذهبي: هذا خبر منقطع لا يثبت)(٥).

٣- وأنه ذهب إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إني لا أحب أن ترى امرأتي

عورتي، قال رسول الله ﷺ : «ولِمَ؟»، قال: أستحيي من ذلك وأكرهه. قال: «إن الله جعلها لك لباسًا وجعلك لها لباسًا وأهلي يرون عريتي». (قال الذهبي: منقطع، وحكم الألباني بضعفه)(٦).

٤- وأنه اتخذ بيتًا فقعد يتعبد فيه فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاه فأخذ بعضادتي باب البيت الذي هو فيه فقال: «يا عثمان، إن الله لم يبعثني بالرهبانية، مرتين أو ثلاثا، وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة». (سنده مرسل، وفيه معاوية الجرمي لا تعرف له ترجمة)(٧).

٥- وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما توفي عثمان بن مظعون وفاة لم يُقْتَل (أي لم يُستشهد ومات على فراشه) هبط من نفسي هبطة ضخمة، فقلت: انظروا إلى هذا الذي كان أشدنا تخليا من الدنيا ثم مات ولم يقتل، فلم يزل عثمان بتلك المنزلة من نفسي حتى توفي رسول الله ﷺ فقلت: ويك إن خيارنا يموتون (أي على فراشهم)، ثم توفي أبو بكر رضي الله عنه فقلت: ويك إن خيارنا يموتون، فرجع عثمان في نفسي إلى المنزلة التي كان بها قبل ذلك». (من رواية الواقدي وهو متروك، وفي السند انقطاع إذ لم يدرك عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عمر بن الخطاب)(٨).

٦- وأن خالد بن سعيد- وكان من أوائل المهاجرين إلى الحبشة- تأخر عن بيعة أبي بكر لشهرين أو ثلاثة تكبرا واستنكارا أن يتولى أبو بكر- وهو من تيم- على بني هاشم وبني أمية من بني عبد مناف، فكان هذا مما أثار عمر- وهو من بني عدي الأقل شأنا من بني عبد مناف- فلما أن وَلّى أبوبكر خالدَ بن سعيد قيادة جيش متجه إلى الشام ما زال به عمر حتى عزله أبوبكر. (وهذه الرواية من رواية الواقدي، وهو متروك، ووردت من طرق كلها ضعيفة(٩).

٧- ثم جاء خبر بلا إسناد عند ابن هشام أن عثمان بن مظعون كان هو الأمير على المهاجرين إلى الحبشة(١٠).

٨- وأخيرا ثمة صحابي اختلف في تاريخ إسلامه، وهو الحجاج بن الحارث بن قيس، فيذكر البعض أنه من السابقين إلى الإسلام والمهاجرين إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فيما يذكر آخرون بأنه ظل مشركًا حتى أسِر في غزوة بدر ثم أسلم(١١).

لم يفرق مونتجمري وات بين الصحيح والضعيف من هذه الروايات، بل قرأها كلها معا من طبقات ابن سعد ومن سيرة ابن إسحق، ولا يمكن أن نلومه لعدم تمكنه من تمحيص الأسانيد، فهذه أمور ما نحسب أن مستشرقًا يمكنه أن يُفلح فيها، كيف وعلم الحديث والرجال من أصعب العلوم على المسلمين أنفسهم!! ولقد فعلت الروايات الضعيفة فعلها في بناء الصورة المضللة والتحليل الغريب لموضوع الهجرة إلى الحبشة، حاول وات أن يستنطق الأحداث والظروف ليفهم لماذا أمر النبي ﷺ بعضًا من أصحابه

بالهجرة إلى الحبشة، وحيث انه لن يقبل التفسير الإسلامي للحدث كما يقبله المسلم، لذا خرج بعدد من الاستنتاجات الأخرى، وكان منها هذا التحليل الذي يقول:

من الواضح أن انقسامًا حادًا جرى بين المسلمين الأوائل، ولذا نلاحظ أن المهاجرين إلى الحبشة كان أميرهم عثمان بن مظعون، وعثمان هو الرجل الذي كان- حتى في الجاهلية- لا يشرب الخمر، والذي حاول أن يُدخل إلى الإسلام بُعدا تقشفيا وأن يقود تيار الزهد، وأن محمدًا حاول في أكثر من مرة أن يرده عن هذه التصرفات والأفكار، ويبدو واضحًا من قيادته للمجموعة التي أسلمت مبكرًا، ثم قيادته للمهاجرين إلى الحبشة أنه كان شخصية قيادية وحوله مجموعات تتأثر به، وتدلنا روايات أخرى عن خلافات وتنافسات قائمة بين مجموعة عثمان بن مظعون ومجموعة أخرى يتزعمها أبو بكر ومعه عمر، فحتى بعد وفاة عثمان بن مظعون ظل عمر لا يراه ذا مكانة لأنه مات في فراشه.

كذلك فإن عمر دخل في نزاع مع أسماء بنت عميس- وهي ممن هاجر إلى الحبشة- بدعوى أن المهاجرين إلى المدينة أفضل، وهو ما أغضبها حتى تدخل محمدًا بنفسه لحل الإشكال، كذلك فإن خالد بن سعيد- وهو ممن هاجر إلى الحبشة- أظهر بعد موت محمد عداء لأبي بكر، وكذلك الحجاج بن الحارث بن قيس الذي أسلم وهاجر إلى الحبشة لكنه حارب المسلمين في بدر وأسر، ومن ثم- يقول مونتجمري- شعر محمد بضرورة معالجة هذا الانقسام في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الدعوة في مكة، فأرسل بمجموعة عثمان بن مظعون التي تنافس مجموعة أبي بكر إلى الحبشة، ليستقيم أمر الجماعة المسلمة في مكة، وهذا هو التفسير لمبادرته بأن يطلب منهم الهجرة مع أنهم أقوياء الإيمان ولاشك في قدرتهم على الثبات على دينهم أمام التعذيب(١٢).

ومن الإنصاف أن نذكر أن مونتجمري وات فتح الباب لخطأ وصواب جميع تحليلاته، وأكثر فيها من ألفاظ الاحتمال والجواز والإمكان وما إلى ذلك من عبارات الاحتياط، كأنما يفكر بصوت مسموع.

قد كان ممكنًا اتهام هذا التحليل بالتعسف والتحيز والتآمر وما إلى ذلك، لو لم تكن مستندات الرجل في التحليل هي الروايات التي وردت فعلًا في كتبنا، وقد وثقناها في هذا المقال من مصادرها الأصلية، وطالما ظلت كتب التراث لا تلقى الاهتمام بتصحيح ما فيها من الروايات على منهج المحدثين، خصوصا في العصر النبوي والراشدي، فإن تاريخهما من السنة التي تُتَبَع، فستظل ما فيها من روايات ضعيفة تنشر مزيدًا من التشويه والتضليل، ويتكئ عليها- جهلًا أو عمدًا- من أراد الطعن في الإسلام وجيله الذهبي، هذا فضلًا عن إثارتها البلبلة والحيرة في نفوس المسلمين، ومساهمتها في تضليل مصلحين يتشوش عليهم منهج الإسلام في الإصلاح والتجديد والنهوض من الأزمات.

وقد ضربنا مثالًا لروايات تبدو بعيدة عن موضوع جوهري، وتبدو كل واحدة منها على حدة غير ذات أثر كبير، إلا أنها حين تجمعت في تحليل أخرجت صورة شائهة، ولذا فهي دعوة للعلماء والجامعات والمراكز البحثية، ولطلبة العلم- لاسيما طلاب علم الحديث- إلى بذل الجهد في هذا الباب، فإنه باب خالد ترجع إليه الأمة في كل أجيالها فيكون أجرًا خالدًا بإذن الله تعالى.

الهوامش

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٣٩٥، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، انظر: الألباني: إرواء الغليل ٧/٧٩، والسلسة الصحيحة ٤/١٨٢، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره في تعليقه على صحيح ابن حبان.

(٢) البخاري (٣٩٩٠)، ومسلم (٢٥٠٣).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٣٩٥، وفي السند خلاف، فقال الألباني: إسناد جيد (السلسلة الصحيحة ٤/٣٢٩ – تحت الحديث ١٨٣٠)، فيما أفاد شعيب الأرناؤوط وحسين سليم أسد بأنه منقطع.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٣٩٣.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٣٩٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء١/١٥٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٣٩٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١/١٥٧، والألباني: السلسلة الضعيفة (٣٠٦٦).

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٣٩٥، وقال الألباني عن سنده: مرسل (الصحيحة ٤/٢٨١ – حديث ١٧٨٢)، وانظر: تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد (حاشية: سير أعلام النبلاء ١/١٥٨).

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٣٩٩.

(٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/٩٧، من رواية الواقدي، ورواه الحاكم في المستدرك (٥٠٨٧)، وقال الذهبي: «منقطع»، والطبري في تاريخه ٢/٣٣١ من طريق محمد بن حميد الرازي- وهو ضعيف- وفي الرواية ابن إسحق وهو مدلس وقد عنعنها. وانظر: محمد بن طاهر البرزنجي: ضعيف تاريخ الطبري ٨/١٤٣، وانظر: عبدالسلام بن محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م، ١/٥٣٢.

(١٠) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/٤٠٩.

(١١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ٢/٣٠.

(١٢) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص٢٤٢ وما بعدها (باختصار وتصرف).

د. محمد جلاء إدريس أستاذ الدراسات العبرية والمتخصص في الرد على أباطيل المستشرقين:

المستشرقون يطرحون حالياً ما كان يطرحه كفار مكة قديماً

حوار: منير أديب

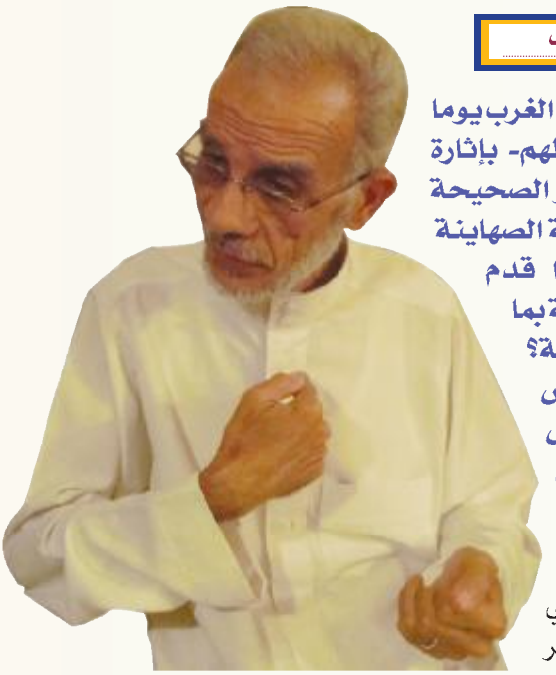

يظل تأثير الاستشراق باقيا ويتزايد مع انتشار الإسلام في الغرب يوما بعد الآخر؛ فيقوم هؤلاء المستشرقون- بتشجيع من دولهم- بإثارة الشبهات حول الإسلام وتعاليمه تارة، وبإلصاق التهم غير الصحيحة بالمسلمين تارة أخرى.. حول تاريخ هذا الاستشراق وعلاقة الصهاينة به، ومدى تأثر المسلمين بالمناهج الاستشراقية، وماذا قدم المسلمون من دراسات إسلامية للرد على المستشرقين، مقارنة بما قدموه من دراسات ألغوا فيها العقل، وما أهدافهم الحقيقية؟ كل هذه الأسئلة وغيرها حاورنا فيها د.محمد جلاء إدريس أحد أبرز المتخصصين في الدراسات العبرية، أستاذ ورئيس قسم الدراسات العربية بجامعة طنطا والمتخصص في الرد على أباطيل المستشرقين الذين يهاجمون الإسلام.. وإليكم نص الحوار:

■ حدثنا عن أهداف الاستشراق ومدى تأثيره على العالم الإسلامي.

– هناك أهداف كثيرة للاستشراق، ولكن الهدف الأساسي الذي نشأ من أجله هو الهدف الديني، بدليل أن القضايا التي يطرحها المستشرقون في الوقت الحالي هي تلك القضايا التي كان يطرحها كفار مكة قديما وتم الرد عليها بالقرآن الكريم، ويأتي بعد ذلك الهدف العلمي حيث قام المستشرقون بإنجازات علمية أفادت الإسلام والمسلمين، وهناك الهدف التجاري حيث تبنى المستشرقين الكثيرُ من دور النشر التي روجت لهذه الأفكار، وهناك هدف حب الاستطلاع والفضول، فالاستشراق لا ينظر للعواقب بحجم ما ينظر للهدف الذي يريد تحقيقه، وأما أثر الاستشراق على العالم العربي والإسلامي، فكان له تأثيرات إيجابية ولكنها لا تذكر إذا قورنت بالتأثيرات السلبية التي عانى منها العالم العربي والإسلامي، فالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف هو عمل استشراقي في الأساس ولكنه أفاد الدراسات الإسلامية والمسلمين في الوقت ذاته، ولكن مقابل هذا العمل هناك عشرات الأعمال التي تحاول أن ترسم صور سلبية تسيء للإسلام والمسلمين، والمستشرقون يكتبون للغرب الذي لا يهتم إلا بالجانب السلبي ويتغاضى عن الجوانب الايجابية.

■ ماذا عن البداية الحقيقية للاستشراق؟

– حتى وقتنا هذا لا يوجد اتفاق على البداية الأولى للاستشراق، فهو نتيجة تفاعل نتج بين الشرق الإسلامي من ناحية والغرب غير الإسلامي من ناحية أخرى، فهناك من يرى أن الاستشراق نشأ مع بداية الفتوح الإسلامية، وهناك من يرى أن الاستشراق ظهر بوضوح مع الفتح الأندلسي والحروب الصليبية، وبالنسبة لي فأنا أرى أن الاستشراق ظهر مع بداية البعثة المحمدية، وكل ما سبق يمثل محطات بارزة في تاريخ الاستشراق.

■ **ذكرت أن هناك أعمالًا أفادت العالم الإسلامي وضربت مثالا بـ «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف» فما الهدف من وراء هذه الأعمال إذن؟**

– استخدم المستشرقون المنهج العلمي لدراسة الإسلام كوسيلة لتحقيق أهدافهم، ولكي يتمكنوا من هذا كان لابد من أدوات بحث تساعدهم، فاضطروا للقيام بهذه الدراسات خاصة أن العالم الإسلامي يفتقد المنهج العلمي للبحث، ولكن على الرغم من الإفادة التي قدمتها تلك الأعمال للعالم الإسلامي فإنها لا تخلو من عمليات تزييف للوقائع وإسقاط وتفسيرات خاطئة للأحداث، والهدف الأساسي وراء هذه الدراسات هو المعرفة الجيدة للعرب والمسلمين حتى يستطيع المستشرقون التأثير على الإسلام واللغة العربية.

■ **من وجهة نظركم، كيف يمكن أن يتصدى العالم العربي والإسلامي للاستشراق؟**

– أدعو إلى ضرورة استخلاص كل ما فيه إفادة للعالم العربي

المستشرقون تخفوا وراء المناهج العلمية لتزييف الحقائق ونشر التفسيرات الخاطئة للقرآن والسنة النبوية

والإسلامي والبعد كل البعد عن السموم الاستشراقية التي تهدف إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وللأسف الشديد فالمستشرقون قدموا لنا أعمالًا تسبقنا بمئات السنين، فنحن حتى الآن لم نستطع إصدار معجم تاريخي لألفاظ اللغة العربية، ونرى الآن الكيان الصهيوني يقوم بإصدار ذلك المعجم لكي يدرس التاريخ العربي ويتعرف أكثر على الثقافة العربية والإسلامية.

■ **من الذي يقوم بدور الرقيب على الأعمال الاستشراقية للحفاظ على الهوية العربية والإسلامية؟**

– هذا هو دور العلماء والمفكرين، ولكن للأسف ينقسم العلماء في عالمنا العربي والإسلامي إلى فريقين: فريق يقبل الاستشراق بكل ما فيه، وفريق يرفضه ويعتبره مؤامرة على الإسلام، وأنا أرفض هذه النظرات، فلابد من دراسة موضوعية للأعمال الاستشراقية.

■ **ما مجهوداتكم الفعلية للرد على ما يسيء للإسلام والمسلمين؟**

– قمت بدراسة لكتاب يسمى «حضارة العرب» لمستشرق يسمى غوستاف لوبون قام بترجمته عادل زعيتر، وتضمن هذا الكتاب جوانب تشيد بالإسلام، وجوانب أخرى تسيء لصورة الإسلام، وتسيء لخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ فتناولت هذا الكتاب وقمت بالرد على هذه الإساءات، فلابد أن ننقد العمل الاستشراقي وأن نستفيد بما فيه من إيجابيات ونقوم بتوظيفها للتعامل مع الغرب، وذلك لن يتم بمجهود فرد، فعلى كل من تخصص في الدراسات الإسلامية أن يقوم بالرد على الإساءات الموجهة للإسلام، وذلك من خلال فريق عمل مترابط، وعلى علماء التاريخ وأهل الأدب واللغة أن يقوموا بالرد أيضا على ما تم تزييفه من أحداث تاريخية ونصوص أدبية وغيرها، مشكلتنا أننا نعمل كأفراد، بينما يتميز المستشرقون عنا بأنهم يعملون من خلال مؤسسات.

■ **تنادي بضرورة الرد على المستشرقين كمؤسسات وليس كأفراد، فما أهمية ذلك بالنسبة للعالم الإسلامي؟**

– لا نريد من هذا العمل سوى تصحيح صورة الإسلام والمسلمين والعرب في الغرب، ورسم صورة تعبر عن المفهوم الحقيقي للإسلام في الغرب، فاليوم الإسلام مرتبط بمصطلح «الإرهاب» وكان من الأسباب الرئيسية

في ذلك بعض الكتابات الاستشراقية التي مهدت لطبع هذه الصورة السيئة عن الإسلام لدى الغرب، ولابد من الرد على هذه الكتابات الاستشراقية بكتابات علمية تعتمد على الجدل العقلي، وتكون بعيدة عن طابع الانفعال الذي لا يغير من المفاهيم الراسخة في المجتمع الغربي عن صورة الإسلام، فلابد من تخصيص قنوات فضائية باللغات المختلفة هدفها الرد على الإساءات الموجهة للإسلام من الغرب، وتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام والتعريف بالقيم والمبادئ التي يحثا عليها الدين الإسلامي والتي تتنافى تماما مع هذه الاتهامات الموجهة للإسلام من الغرب، ومن الأشياء التي تحزنني أننا ليس لدينا من المعرفة ما يؤهلنا أن نقوم بتوظيف رؤوس الأموال بشكل يخدم مصالحنا، فنحن نجيد إهلاك رأس المال، بعكس اليهود فهم يجيدون توظيف أموالهم بالشكل المناسب لصالح الكيان الصهيوني، وأتذكر أثناء دراستي بجامعة «ليدز» بانجلترا مواقف تؤكد ذلك وتبين الاختلافات بين الشخصية العربية والشخصية اليهودية، من هذه المواقف قيام أحد الأثرياء العرب بشراء نادي «شيفرد» لكرة القدم، بينما قام يهودي بشراء وكالة أنباء كانت قد قاربت على الإفلاس، فأصبح اليهودي عنده أداة يستطيع من خلالها أن يوجه الرسالة التي يريدها، بالشكل والمضمون الذي يريد، فهذا مثال يوضح حسن توظيف رأس المال.

■ لماذا لا يكون هناك وقف للرد على المستشرقين؟

– هذا الأمر مهم جدا، فلابد للمسلمين أن يكفلوا من يقومون بالرد على المستشرقين بالإنفاق على سفرياتهم ودراساتهم وكذلك أبحاثهم العلمية، وأن يخصص جزء من المال لهذا الجانب.

الهدف الديني المحرك الأساسي للاستشراق في العالم لضرب الهوية الإسلامية وتشويه صورة المسلمين في الغرب

■ ما الطرق التي يتخذها المستشرقون لتحقيق ما يسمى بالغزو الفكري؟

من الطرق المتبعة عملية الإسقاط، فالمستشرق لا يقوم بالدراسة لكي يصل إلى النتيجة، بل عنده فكرة يريد أن يثبتها، دون الرجوع لمصدر إسلامي أصيل، وعلى سبيل المثال، مستشرقة يهودية مثل ريزا دوم تكتب عن الإسلام، تكتب بطبيعة الحال باللغة الإنجليزية ولا علم لها باللغة العربية، فقديما كان المستشرق أفضل لأنه كان على علم باللغة العربية، ومعرفة بالأدب والنحو الصرف.

■ ما الصور التي يتخفى المستشرقون وراءها.. وهل لهم وجه غير الوجه المعلن؟

– هم لا يخشون العرب ولا يخشون المسلمين، الشيء الغريب أن هناك بعض الدول العربية تقوم باستضافة هؤلاء لإحياء الندوات والمؤتمرات وغير ذلك، وتتعامل مع أساتذة الجامعات منهم بأضعاف أضعاف العربي، فلماذا يتخفى؟!

■ ماذا عن حجم الدراسات العربية والإسلامية التي يقدمها المسلمون للغرب مقارنة بما يقدمه لنا الغرب من خلال المستشرقين؟

– نحن لا نكتب للغرب، أنا عندي كتاب لم أكتبه للعرب ولكني كتبته باللغة العربية لأني لا أجيد أن أكتب كتابا كاملا باللغة الإنجليزية، عرضت الكتاب على أكثر من مكان لكي يترجم، وجميع هذه المحاولات باءت بالفشل، وهذا الكتاب كان عن القدس، ويستعرض مكانة القدس عند اليهود من خلال كتبهم هم.

■ هل تأثر التاريخ الإسلامي بتلك الطعنات التي وجهها المستشرقون وإلى أي مدى كان حجم التأثر؟

–صورة المسلمين في الغرب صورة مشوهة، وكذلك صورة التاريخ العربي لم تنجُ من التشويه، ولذلك نحن نحتاج إلى من يحسِّن هذه الصورة، ويدفع عن المسلمين تشويه الآخرين لهم.

■ ما أبرز القضايا الاستشراقية المثارة على الساحة في الوقت الراهن؟

– «يهودية فلسطين» هي أبرز القضايا المثارة، عندما أتى اليهود لاحتلال فلسطين تم عمل صندوق سمي بـ«استكشاف فلسطين» وهو صندوق استشراقي الهدف منه البحث في جغرافية فلسطين وتاريخ فلسطين وآثار فلسطين لتفيدهم في تثبيت دعائم الكيان الصهيوني الغاصب، وفي الوقت ذاته تقوم بنشر كل هذه الأشياء في الغرب.. والسؤال الذي يطرح نفسه أين الكتاب الذي نشر عن فلسطين في الغرب؟ ولمَ ترتبط المفاهيم المشينة عن الإسلام والمسلمين بأحداث ١١ سبتمبر؟ فقبل هذه الأحداث كان الغرب ينظر للعرب والمسلمين على أنهم أشخاص متخلفون، وبعد هذه الأحداث أضيف مصطلح «إرهابي» فالصورة الإسلامية والعربية في الغرب ارتبطت بالتخلف منذ القدم.

الاستشراق والاستمرار في تزييف وعي الغرب

محمد فتحي النادي

لقد كان اتصال المسلمين بالغرب مبكرًا جدًا، وقد حدث ذلك في عهد رسول الله ﷺ حين بعث برسائله في عام (٦هـ) إلى الملوك والأمراء، وكان من بينهم هرقل قيصر الروم (رأس السلطة الزمنية الغربية آنذاك) -والذي تصادف وجوده في بلاد الشام ساعتها، حاجًا إلى إيلياء لشكر الله تعالى لنصره على الفرس، ولإرجاع الصليب الذي استولى عليه الفرس من قبل، والذي يزعمون أن المسيح قد صُلب عليه(١)- وقد تعاطف هرقل مع دعوة النبي محمد ﷺ وصدّقها، وراسل أحد أصدقائه فوافقه على ذلك، ثم فاتح حاشيته ومستشاريه فرأى منهم النفرة الشديدة، فتراجع عما كان ارتآه، وقد جاءت هذه الصورة في «صحيح البخاري»: «... فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلاَحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ. وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ. فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ»(٢).

حدث بعد ذلك الصدام بين العرب المسلمين وجيش هرقل والعرب الموالين له، وذلك بعد أن قَتل شرحبيلُ الغساني (والذي كان عاملاً على البلقاء من قِبل قيصر) رسولَ رسولِ الله الحارث بن عمير الأزدي، تلك الحادثة التي وقعت على إثرها معركة مؤتة وذلك في عام (٨هـ)، ثم كانت غزوة تبوك في العام التاسع بين الفريقين، إلا أن الرومان وحلفاءهم لم يواجهوا رسول الله ﷺ، ولم يجد العرب الموالون للرومان بُدًّا من موالاة المسلمين وموادعتهم بعدما رأوا قوتهم، وكسرهم لهيبة الرومان الغربيين الذين كانوا يتحكمون في رقاب العرب ومقدرات أوطانهم.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ حدثت الصدامات الدامية بين العرب المسلمين والرومان الغربيين، والتي كان من نتائجها أن أجلى العربُ الرومانَ عن بلاد الشام ومصر والمغرب العربي،

بعدما وصل المسلمون إلى الأندلس نشط اللاهوتيون الغربيون ضد الإسلام واعتبروه قوة خبيثة شريرة

وعاد الرومان الغربيون إلى بلادهم وهم يتجرعون آلام المرارة والحسرة بعد أن دام سلطانهم على تلك البلاد قرونًا عديدة.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فلم يكد ينصرم القرن الأول الهجري حتى غزا العرب والبربر المسلمون شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا والبرتغال)، والتي عرفت في التاريخ الإسلامي ببلاد الأندلس.

رجال اللاهوت والتأسيس للأساطير حول الإسلام

كل هذه الأمور تركت أثرًا بليغًا في أنفس الغربيين، فبعد أن كان سلطانهم ممتدًا خارج حدود قارتهم، إذا بهم مهددون في عقر دارهم، كل هذه الأمور جعلت قادة السلطة الكنسية يتخذون الإسلام عدوًا يهدد سلطانهم الديني، ومن المسلمين وحوشًا يلتهمون أوطانهم، وبدأوا ينسجون الأساطير حول هذا الدين، فقد «نشط اللاهوتيون الأوروبيون في ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام، وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ، وزعموا فيما زعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة، وأن محمدًا ﷺ ليس إلا صنمًا أو إله قبيلة أو شيطانًا. وغزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين، ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الإسلام، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين في ذلك الزمان..»(٣).

مصادرهم التي اعتمدوا عليها

«قد اعترف جيبير النوجنتي

باحث في الفكر الإسلامي

(١٢٢٤م) بأنه لا يعتمد في كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة، وأشار فقط إلى آراء العامة، وأنه لا يوجد لديه وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال مبررًا كتاباته غير العلمية عن الإسلام ونبيه: لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء»(٤).

ولكننا نستطيع تتبع أصل هذه الأساطير، فهم قد استقَوْها من النصارى العرب الذين تقلبوا في نعيم الدولة الإسلامية، ولكنهم لم يحفظوا لها هذه اليد وهذا الجميل، ففي «بلاط خلفاء الأمويين كان يوحنا الدمشقي وإخوانه النصارى يعملون على إدخال الآراء المشككة المحيرة بين المسلمين، ولقد لقن يوحنا طائفة كبيرة من أنصاره قصصًا وأخبارًا مزورة عن النبي ﷺ، وطلب منهم أن ينشروها ويروجوها بين المسلمين، كالقصة التي زعموها عن عشق النبي ﷺ لزينب زوجة زيد بن حارثة... وأن الإسلام فرقة مسيحية مارقة ظهرت في عهد الإمبراطور هرقل الروماني بفعل متنبئ من العرب يدعى حامد (أي محمد)، وأن حامدًا هذا كان قد اطلع على كتب العهد القديم والجديد، ثم اتصل بأحد أتباع آريوس المتوحد، والذي طردته الكنيسة؛ لأنه كان يعتقد بالتوحيد المجرد لله، فعرف منه نحلته الوحدوية، فأسس دعوة الإسلام على أساسها، وقد استطاع هذا المتنبئ أن يكتسب قلوب قومه وأن يقدم لهم كتابًا زعم أنه أنزل عليه من السماء، ووضع فيه فرائض مضحكة على أنها الشريعة»(٥).

صورة النبي ﷺ في الوعي الشعبي الأوروبي

النبي محمد ﷺ هو الذي اختاره

لم تخرج الدراسات الاستشراقية في مجملها عن الطعن في النبي محمد ﷺ رغم دخول الغرب في «عصر العلم»

الله عز وجل لحمل الرسالة الخاتمة إلى العالمين، وبفضله خرج العرب من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وحملوا بعده مشعل الهداية إلى العالمين، والطعن فيه هو طعن في الرسالة، لذلك دأب رجال الدين وقادة الفكر والرأي في الغرب على التشكيك في الرسالة والرسول، بل والتشكيك في وجود الرسول أصلاً، بهدف حجب نور الإسلام عن العالم الأوروبيِّ، وبذر بذور الشك حولَ حَياة الرَّسول ﷺ وسط المسلمينَ.. «لقد وجَّه أعْداءُ الإسلام سِهامَهُم إلى شخصية الرَّسول ﷺ وكلُّهم يَحْسبُ أن المقتلَ الذي يُصَابُ منه الإسلامُ هو تشويهُ سمعة النَّبي ﷺ وتمثيلُه لأتباعه في صورةٍ معيبة، لا تتلاءمُ وشرفَ النبوة، ولا يتَّصفُ صاحبُها بفضيلة الصِّدقِ في طلَبِ الإصلاح»(٦)، وسوف نذكر طرفًا مما وصف به هؤلاء الغربيون الرسول ﷺ، ونستميح القارئ الكريم الغيور على نبيه عذرًا فيما سوف ننقله من إساءات وتجاوزات في حق نبينا ﷺ.

ففي كتاب مترجم عن الألمانية كتبه عالمان سويسريان -هما: «هوبرت هيركومر» و«جيرنوت روتر»- يقولان عن الصورة الغربية، الشائعة والمستكنة في التراث الغربي، عن رسول الإسلام ﷺ: لقد اعتبر المسيحيون الأوروبيون محمدًا رجلاً عاش حياة داعرة، وتجاوز خبثه كل حدود الدناءة والانحطاط.. ولم يتورع خيالهم عن الادعاء بأن رسول الإسلام كان في الأصل كاردينالاً كاثوليكيًا، تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة في الشرق انتقامًا من الكنيسة، واعتبرت أوروبا المسيحية في القرون الوسطى محمدًا المرتد الأكبر عن المسيحية، الذي يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية.

وبشهادة المستشرق الفرنسي الشهير «مكسيم رودنسون» (١٩١٥-٢٠٠٤): فلقد حدث أن الكتاب اللاتين، الذين أخذوا بين عامي ١١٠٠م و١١٤٠م على عاتقهم إشباع الحاجة لدى الإنسان العامي، أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد، دون أي اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» .. فكان محمد (في عرفهم) ساحرًا، هدم الكنيسة في أفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية، وكان محمد (في عرف تلك الملاحم) هو صنمهم الرئيسي، وكان معظم الشعراء الجوالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة (البدو)، وكانت تماثيله (حسب أقوالهم) تصنع من مواد غنية، وذات أحجام هائلة!!

تلك هي صورة الإسلام ورسوله في الثقافة الشعبية الأوروبية، التي تبلورت وشاعت منذ العصور الأوروبية الوسيطة قبل العلمانية.. وقبل أن يعرف الغرب شيئًا اسمه «حرية التعبير»!

وإذا كانت الملاحم الشعبية إنما تمثل أكبر المكونات لثقافة جمهور أية أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات، فإن «ملحمة رولاند» الشعبية - حوالي عام ١٠٠٠م- تصور المسلمين الذين يبلغ التوحيد الديني للألوهية عندهم أرقى درجات التنزيه والتجريد، تصورهم هذه الملحمة الشعرية الشعبية الأوروبية- وثنيين يعبدون ثالوث:

١- أبولين apollin
٢- وتيرفاجانت tervagant
٣- ومحمد Mahamed

وإذا كان الدين واللاهوت والفلسفة الدينية قد لعبت دورًا بارزًا في تكوين العقل الغربي والثقافة الأوروبية في عصورها الوسطى، فإن «القديس- الفيلسوف توما الإكويني» (١٢٢٥- ١٢٧٤) وهو أكبر فلاسفة الكاثوليكية عبر تاريخها- قد صور لقومه رسول الإسلام ﷺ فقال: لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية، وحرّف جميع الأدلة الواردة في التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون في البادية.

أما رأس البروتستانتية «مارتن لوثر» (١٤٨٣- ١٥٤٦)، فلقد قال عن رسول الإسلام -الذي جعل الحياء شعبة من شعب الإيمان، والعفة ثابتًا من ثوابت القيم الإسلامية- .. قال «مارتن لوثر» عن هذا الرسول الكريم: إن محمدًا هو

خادم العاهرات، وصائد المومسات.

وإذا كانت «الكوميديا الإلهية» التي كتبها الشاعر الإيطالي الأشهر «دانتي» (١٢٩٥-١٣٢١م) قد غدت معلمًا من معالم ثقافة أوروبا منذ عصر النهضة وحتى هذه اللحظات، ونصًا يدرسه الطلاب في المدارس والجامعات، فإن هذه «الكوميديا الإلهية» قد وضعت رسول الإسلام ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه :في الحفرة التاسعة في ثامن حلقة من حلقات جهنم؛ لأنهما -بنظر دانتي»- من أهل الشجار والنفاق الذين تقطعت أجسادهم في سعير الكوميديا الإلهية»(٧).

الاستشراق على طريق التزييف للوعي الغربي

«بعد انكسار الغرب إثر الحروب الصليبية -التي امتدت على فترة من الزمان قاربت مائتي عام- وقف مع نفسه وقفة متأنية حاول من خلالها تقويم أعماله الحربية وجدواها في محاولته سحق الإسلام أو حتى إضعاف شوكته، فوجد الحقيقة التي تجلت أمامه أن الفارق كبير بينه وبين الشرق من ناحية الرقي الحضاري والتقدم العلمي، فشعر بضرورة الاستفادة من التقدم الشرقي في كافة المناحي والمجالات، ولم يمض وقت طويل حتى عقد مؤتمر فيينا الكنسي بين عامي ١٣١١-١٣١٢م، وكان من أهم قراراته: إنشاء كرسي للغة العبرية والعربية في معظم جامعات أوروبا، ويعتبر كثير من المؤرخين لحركة الاستشراق أن هذا المؤتمر هو البداية المنظمة وشبه الرسمية للاستشراق، وما كان قبل ذلك إنما كان بمثابة الإرهاص لميلاد هذه الحركة، وتبع ذلك انتشار المدارس والمعاهد الاستشراقية المعنية بدراسة الشرق وعلومه الإسلامية بصفة خاصة»(٨).

ولم تخرج الدراسات الاستشراقية في مجملها إلا ما ندر عن الطعن في النبي محمد ﷺ، رغم دخولهم فيما سمي بـ»عصر العلم».

فهذا جولدزيهر يكتب عن النبي ﷺ وسيرته فيقول: «إنه خلال رحلاته المتعددة التقى ببعض اليهود والنصارى الزاهدين، وأصبح يفكر شيئًا فشيئًا في الحياة الخلقية والدينية السيئة بمكة، وأصبح ضميره يتعمق في هذه الأمور عن طريق التفكير والتأمل، وهكذا أصيب بقلق مؤلم ظهر على السطح عن طريق الاضطرابات العصبية، فانزوى في الجبال مفكرًا في مصير أمته، وهكذا أصبح ثائرًا ضد نظام الحياة المكية، واختلطت تجاربه الشخصية بالمعارف التي استقاها من اليهود والنصارى إلى أن تحولت على هيئة رؤى وأحلام وهلوسة، فعكست شعوره بالثورة ضد الماضي، وكونت هذه الأمور في مجملها ما أذاعه وبشر به في قادم الأيام»(٩).

وهذا غيض من فيض في الاتهامات والتلفيقات والأساطير التي نسجت حول النبي ﷺ، ولم يستطع الكثير من المستشرقين أن ينفلتوا منها، وكأن هؤلاء النفر أرادوا أن يروجوا لما في أذهانهم على أنه خلاصة أبحاثهم

بطريقة علمية منهجية، ويدخلوا هذه الصورة المشوهة على المسلمين ليلبسوا عليهم دينهم، ولقد قال هيكل باشا: «لقد تأثر كثير من المستشرقين في بحوثهم التي صيغت صيغة العلم بأهواء أمزجتهم»(١٠).

وقد أرجع أسباب الأخطاء التي وقعوا فيها إلى عدم إحاطتهم باللغة العربية، إلى جانب تأثير بيئتهم وثقافتهم المسيحية عليهم، فقال: «ليس من اليسير أن يقوم المستشرقون في بحوثهم الإسلامية بكل هذه الدقة وهذا الإنصاف، مهما تحسُن نيتهم ومهما يتحروا الدقة العلمية، فعسير عليهم أن يحيطوا بكل أسرار اللغة العربية وإن أحاطوا بعلومها. ثم إنهم متأثرون بالنصرانية الأوروبية تأثرًا يجعل أكثرهم ينظرون إلى الأديان نظرة تملؤها الريبة، ويجعل الأقلين المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال، فيخضعون في بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم في بحوثهم المسيحية أو في بحوثهم الدينية بوجه عام»(١١).

وقد أوقعهم في هذه الأخطاء -إن أحسنا النوايا- اعتمادهم المصادر الضعيفة، وتصيدهم الشاذ من الروايات، وتضخيمه، والنفخ فيه، والتعويل عليه في بناء المواقف واستخلاص القضايا، وانتقاء ما يوافق هواهم ورفض ما يُخالفه...(١٢).

ليسوا سواءً

طبعًا ليس من الإنصاف أن نتهم الجميع ببث الأغاليط وإبقاء الصورة المشوهة في الغرب عن الرسول كما هي، فهناك من أنصف تجاه النبي محمد وسيرته، وإن وقعت منه هنات فهي يسيرة مقارنة بمن لم ير الرسول وسيرته إلا من خلال نظارة سوداء، ومن برناردشو الذي يقول: «إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالد خلود الأبد... إن رجال الدين في القرون الوسطى ونتيجة للجهل أو التعصب قد رسموا لدين محمد صورة قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًا للمسيحية، لكنني اطلعت على أمر هذا الرجل فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدوًا للمسيحية، بل يجب أن يسمى: «منقذ البشرية»، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها».

وقال آن بيزيت: «من المستحيل لأي شخص يدرس حياة وشخصية نبي العرب العظيم ويعرف كيف عاش هذا النبي وكيف علم الناس، إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل، أحد رسل الله العظماء، ورغم أنني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياء قد تكون مألوفة للعديد من الناس فإنني أشعر في كل مرة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء بإعجاب وتبجيل متجددين لهذا المعلم العربي العظيم»(١٣).

وأخيرًا

نرى أن المستشرقين في الغالب لم يحاولوا أن يغيروا الصورة المشوهة للمسلمين عند الغرب، وأن الفئة المنصفة ما تزال ضعيفة الصوت أمام التيار العام للغربيين تجاه الإسلام ورسول الإسلام، لاسيما وأننا نجد رغم وجود هؤلاء المنصفين تلك الرسومات المسيئة للرسول ﷺ، وهذا الشعور المعادي المتنامي تجاه المسلمين في الغرب.

ونقول: إن الأساطير الباطلة التي ترسخت عبر القرون المتطاولة في الوعي الغربي عن الإسلام لن تتغير بين عشية وضحاها أو حتى في عشرات السنين، ولكنها تحتاج إلى مجهودات ضخمة من المسلمين الموجودين داخل الغرب؛ لأنهم الأقدر على فهم العقلية الغربية، وكيفية مخاطبتها، وكذلك على إخوانهم المسلمين في العالم الإسلامي أن يمدوهم بما يساعدهم على تبليغ رسالتهم، وكذلك مد جسور التواصل بهؤلاء المنصفين من الغربيين الذين طرحوا التعصب جانبًا، ولم يجعلوا بينهم وبين المسلمين سدًا منيعًا من التصورات المسبقة.

الهوامش

(١) أخرج مسلم في «الجهاد والسير»، باب: «كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلاَمِ»، ح(١٧٧٣) أن قيصر «لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ مَشَى مِنْ حِمْصَ إِلَى إِيلِيَاءَ شُكْرًا لِمَا أَبْلاَهُ اللَّهُ»، وانظر: الرحيق المختوم، دار إحياء التراث، ص(٣٢٥).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في «بدء الوحي»، ح(٧) ومواضع أخر.

(٣) د. زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص(٢١-٢٢).

(٤) السابق، ص(٢٢).

(٥) المستشار محمد عزت الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبي محمد ﷺ وبلاد الإسلام، ص(٣٦، ٣٨-٣٩).

(٦) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، نقلاً عن د. محمد موسى البر: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، ص(٤).

(٧) د. محمد عمارة: الإسلام والغرب افتراءات لها تاريخ، دراسة حول الإساءات الغربية الأخيرة للإسلام، ص(٢٦-٣٠) باختصار.

(٨) محمد فتحي النادي: الإسلام والآخر.. رؤية في علم الاستغراب، مقالة على موقع العربية نت.

(٩) د. علي مشاعل: عداوة المستشرقين للنبي ﷺ، موقع إسلام ويب.

(١٠) حياة محمد، ص(٧٦).

(١١) السابق، ص(٧٧).

(١٢) انظر: د. عباس أرحيلة: عن منهج المستشرقين في دراسة السيرة النبوية، موقعه الخاص.

(١٣) حياة وتعاليم محمد، دار مادرس للنشر ١٩٣٢.

تاريخ مُنصِف!

محمد شعبان عبدالحميد

الإنصاف عزيز، وتاريخ التراث الإنساني لا يخلو من الإجحاد والمجحدين، والتاريخ الإسلامي جزء لا يتجزأ من مسيرة هذا التراث الإنساني، وكل علم من العلوم الإنسانية يخضع لمبدأ النسبية في حقيقته وغايته، كل هذه قواعد يعلمها طلاب العلوم الإنسانية، لكن ألم يسأل أحدنا نفسه، ما القيم المستقاة من العلوم الإنسانية، ومنها التاريخ؟

نعم، قد نجيب بمنتهى السرعة والفصل أن غاية التاريخ وفلسفته هي العظة والعبرة والتعرف على أحوال الماضين لتلافي ما وقعوا فيه من مشكلات وبلايا، لكن هذا- في رأيي- لا يكفي؛ ذلك لأن قراءة التاريخ لا يجب أن تضع غايتها في التحصّل على الثمرة المرجوة من النص ذاته، بل التحصل على اللحظة الأخلاقية والتاريخية التي كُتب فيها النص، وأقصدُ الوعي بالزمان والمكان والشخوص ثم الغاية المرجوة.

واللافت أن القراءة المتأنية في تاريخنا الإسلامي تتيح لنا التعرف والتحصل على قيم لا تُعد ولا تحصى منها قيمة «الإنصاف»، وإن محاولة سريعة لاستقصاء هذه الظاهرة في مؤلفات التاريخ الإسلامي في كافة أعصره لن تكفيها مثل هذه الوريقات الصغيرة التي تفي الحق، وتشفي غليل طالب العلم في معرفة ما تُستحق معرفته من هذه الظاهرة الإسلامية الفريدة.

حقيقة تاريخنا

إن التاريخ الإسلامي هو سلوك الأمة الإسلامية وإرادتها الجماعية، ورؤيتها لما جاء به الإسلام، مع التأكيد على أن ثمة فارقًا لا يستهان به بين الإنسان المسلم وبين الإسلام ذاته الذي هو الكمال والذروة التي حاول ويحاول المسلمون- منذ البعثة وحتى اليوم- تفيؤ ظلالها الوارفة، وثمارها الطيبة؛ فالعبث بهذا التاريخ، والاستهزاء به، والتقليل من شأنه، وإقصاؤه، هدرٌ للتجربة الإسلامية الحضارية.

وظاهرة الإنصاف التي نحاول إبرازها في المؤلفات التاريخية الإسلامية لا يمكن أن نفهم سياقاتها والحوافز التي أوجدتها دون معرفة الجذور والأصول والقواعد الأولى، فأصل العلوم الإسلامية- ومنها التاريخ- إنما وجدت وانتشرت وتعددت أوجه تطورها خدمة للإسلام ذاته، فهي الوسائل الكبرى لمعرفة الإسلام والتعريف به، وإن تجربة النبي ﷺ وسيرته كانت حية أمام المسلمين أثناء الكتابة والتأليف والدرس، ومن ثم امتزجت هذه التجربة النبوية المحفزة على تعلم العلم ونشره مع الأخلاق العامة التي جاء الإسلام لإكمالها وتتميمها فأخرجت في نهاية المطاف العالم المسلم المنضبط بالأخلاق والقيم الإسلامية في باطنه وظاهره، فأضحى الضمير الواعي الحي هو المقوّم لكل عالم، فتجد بين السطور ومن خلفها الأثر الأخلاقي الذي تميز به هذا العالم أو انتفاءه وانعدامه عند ذاك، وهذا لن نستطيع العثور عليه في كثير من الكتابات الغربية؛ ذلك أن الوازع الأخلاقي والضمير الوجداني النقي لا نكاد نعثر عليه عند الكثيرين منهم.

ومن ثم، فإن العلوم الإسلامية هي علوم فريدة من هذا الجانب، أي أن نسبتها للإسلام لتصبح إسلامية لم يأت اعتباطًا، أو خبط عشواء، والتساهل الذي نجده في بعض الكتابات التي توسم هذه العلوم بأنها عربية فقط هو تساهل غير موضوعي يضع هذه العلوم على ذات المستوى مع العلوم الغربية؛ وهو إجحاف لا داعي له؛ لأن الفارق بين هذه العلوم المنسوبة للمسلمين وبين تلك المنسوبة للغربيين هو الفارق بين فلسفة الإسلام ورؤيته للإنسان والكون والحياة وبين الفلسفة الغربية المتقيدة بعالم الشهادة، والتي لا تعرف حقيقة ما وراء الطبيعة!

تجربة عبقرية!

إن النبي ﷺ هو القدوة، وصدق الله حينما وصفه بأنه الأسوة لهذه الأمة الممتدة عبر الزمان، والمترامية عبر المكان، حينما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وإننا ما علمنا الإنصاف إلا منه؛ فلقد كانت الحرب شديدة بينه وبين كفار مكة ومن عاونهم وسار على نهجهم من الأعراب، ومع هذا لم يكن ﷺ يجد حرجًا أو عيبًا في ذكر الصفات الطيبة والإيجابيات التي يراها في أعدائه، وكثيرة هي أقواله ومواقفه

باحث مصري في التاريخ والتراث

المنصفة فيهم.

ومع اتساع الرقعة الجغرافية للحضارة الإسلامية، وتوالي الأيام على الأجيال الجديدة والكثيرة، حفز ذلك المسلمين على الاهتمام بتدوين العلوم، فبدأ صحابة النبي ﷺ منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه في مناقشة هذه القضية المحورية التي تحافظ على ما جاء به الإسلام خاصة في حفظ القرآن الكريم من خلال تدوينه، ثم ما لبث القرن الأول الهجري في الانتهاء حتى عُني أبناء هذه الحضارة بتدوين الحديث النبوي الشريف، وقد استتبع تدوين الحديث مجموعة من القيود كان من الواجب تقعيدها ووضعها، خوفًا من تقويل رسول الله ﷺ ما لم يقله، هذه القيود أفرزت لنا في نهاية الأمر تجربة عقلية فريدة من نوعها وسمت بأنها علم جديد من جملة العلوم التي تمخضت عن هذا الدين الجديد.

وخدمة لهذا العلم الجديد، الذي يهتم بدراسة متن الحديث وسنده، بدأت الأسئلة تترى وتتوالى وتجول في عقل المحدث، منها: من راوي هذا الحديث؟ وكيف رواه؟ ومن أين أخذه؟ ولمن أعطاه؟ وكيف جاء إلينا؟ وإزاء هذه الأسئلة الملحة، بدأ المخلصون وعلماء كل قطر في تقييم رجالاتهم تقييمًا يهتم بالجوانب العلمية والأخلاقية لناقل الحديث، ثم بدأت هذه التجربة تنتشر، ويستفيد كل قطر إسلامي بما كتبه الآخرون عن أبنائهم والعكس، وترتب على هذا أن وصلت إلينا كتب السنة منها الصحيح، ومنها الضعيف، ومنها الموضوع، ومنها المنكر...، بفضل نقد أولئك الأفذاذ، ثم استفادت الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة حتى يومنا هذا.

تلك المصنفات التي اهتمت بنقد الرجال وتعديلهم وجرحهم، أطلق عليها كتب الطبقات والتراجم، ولاشك أن علم التاريخ وعلومًا أخرى قد استفادت استفادة عظمى من تجربة رجال الحديث في هذا المضمار، هذه التجربة المبهرة لا نستطيع إلا أن نصفها بأنها «الإنصاف».. إنصاف يضع كل امرئ في مكانه الصحيح، طبقًا للمعيار الجماعي الذي ارتآه العلماء المنصفون من أمتنا الراشدة.

تميزت الرؤية الإسلامية للذات والآخر بأنها رؤية موضوعية تحق الحق وتبطل الباطل

إن هذا الإنصاف لرجالات هذه الأمة وجدناه حاضرًا بقوة منذ القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، فأين كانت تقييمات الرومان والفرس واليونان لأبناء جلدتهم ولعلومهم في تلكم الأوقات؟ لا ندري، بل ويعجب المستشرق الألماني سبرنجر مثل عجبنا، فلا يستطيع كتم هذا الإعجاب فيقول: «لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشؤونهم» (١).

تلك التجربة العبقرية يتتبعها المتأمل فيها؛ محاولا تبريرها وتفسير ظهورها ونضوجها فلا يجد إلا الصبغة الإسلامية المهيمنة على العقل الواعي المتقيد بالضوابط الأخلاقية الإسلامية الراشدة، التي أنتجت هذا العلم وغيره من العلوم التي أبهرت الشرق والغرب ولا تزال.

وإن نظرة في أحد هذه المؤلفات، كسير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (ت٧٤٨هـ)، يدهشك كل الدهشة، بل يضع لك أنموذجًا خالدًا في كيفية تعلم الإنصاف وتعليمه، وانظر كيف ترجم الذهبي لعالم الأندلس الشهير محمد بن عبدالله بن العربي، الشهير بابن العربي بقوله: «أدخل الأندلس إسنادًا عاليًا، وعلما جمًا، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، كامل السؤدد، ولي قضاء إشبيلية، فحمدت سياسته، وكان ذا شدة وسطوة، فعزل، وأقبل على نشر العلم وتدوينه» (٢) ، وكان والد ابن العربي عالمًا أخذ العلم من عالم الأندلس ابن حزم (ت٤٥٦هـ) معجبًا به غاية الإعجاب، متتبعًا لمعظم مؤلفاته، غير أن ولده ابن العربي لم يكن مقتنعًا بعلم ابن حزم ومكانته، وكثيرًا ما تناوله، ولذلك قال الذهبي بأسلوب العالم المدقق الذي يعلم حقيقة الإنصاف ومغزاه: «ولم أنقم على القاضي ابن العربي رحمه الله إلا إقذاعه في ذم ابن حزم واستجهاله له، وابن حزم أوسع دائرة من أبي بكر في العلوم، وأحفظ بكثير، وقد أصاب في أشياء وأجاد، وزلق في مضايق كغيره من الأئمة، والإنصاف عزيز» (٣).

نعم، صدق الذهبي: الإنصاف عزيز، والحق أن الذهبي لم يكن الوحيد من علماء الإنصاف في هذه الأمة؛ إذ هو- مع ما له من المكانة والفضل- واحد من آلاف علمائنا في هذا الشأن.

إنصاف العدو!

ولنرَ كيف رأى المؤرخون المسلمون «الفرنج» الأعداء؟ وكيف كتبوا عنهم سواء في المشرق أو المغرب؟ أمامنا تجربتان في غاية الأهمية، الأولى مع المؤرخ الأديب والفارس البطل الهمام أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) في سيرته

الشهيرة الجميلة «الاعتبار»، وهو ممن تعامل بسلام مع الفرنج وقت السلم، وجاهد حق الجهاد أمامهم وقت الحرب في زمن الحروب الصليبية، والثاني الأديب الوزير، وصاحب الرياستين في الدولة النصرية بالأندلس، الذي ذاعت شهرته وهو لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) الذي تناول الأوضاع السياسية والعلمية والأدبية في كتابه الشهير «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وقد كانت الدولة النصرية في حروب متصلة مع صليبيي الشمال الأندلسي في زمانه.

لقد أفرد أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» فصلاً عن طبائع الإفرنج (الصليبيين) وأخلاقهم، وهو فصل يكشف لك عن دقته وملاحظاته القيمة عن «الآخر» العدو؛ فهو يتحدث عن بعض علومهم ومنها الطب، وعن طبائعهم ومعاملاتهم، وقوانينهم وقضائهم، وبعض العادات والتقاليد التي لاحظها ورآها عن قرب، وهو في هذا كله يكشف الإيجابيات والسلبيات، وهو حينما يتحدث عن انعدام الغيرة من خلال بعض القصص التي يُدلل بها على هذا الأمر، نراه مختتمًا حديثه عن دياثة الإفرنج بقوله: «فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم.. ما فيهم غَيْرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة» (٤) ، ويقول عنهم في موضع آخر: «سبحان الخالق البارئ إذا خبُر الإنسان أمور الإفرنج سبّح الله تعالى وقدّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير» (٥) ، وليس أدلّ على الإنصاف من هذا القول.

تلك الرؤية نجدها بتمامها عند ابن الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة»، فبالرغم من الحروب القوية والمتواصلة بين الصليبيين وأهل الأندلس، والتي أسفرت في النهاية عن سقوط الأندلس بالكلية في أيديهم فإننا نجد ابن الخطيب يصف هؤلاء الأعداء بقوله: «وحال هذه الأمة غريبة في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقة، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمد.. وأخبارهم في القتال غريبة، من الاسترجال والزحف على الأقدام، أميرهم ومأمورهم، والجثُوّ (٦) في الأرض، أو دفن ببعض الأرض في التراب، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الألحان المهَيّجة، ورماتهم قسيهم غريبة جافية، وكلهم في دروع، والإحجام عندهم، والتقهقر مقدار الشبر ذنبٌ عظيم، وعار شنيع، ورماتهم يثبُتُون للخيل في الطِّراد» (٧).

تلك هي الرؤية الإسلامية للذات والآخر، رؤية موضوعية في مجملها، تحق الحق وتبطل الباطل، ولو تتبعنا ميراثنا العلمي والأدبي والتاريخي لعلمنا وعلم غيرنا من علماء الشرق والغرب ماهية الإنصاف، والحق أن كثيرًا من مؤرخي الغرب ينصفون التراث الإسلامي- مع إجحاف البقية الباقية منهم- وينظرون إلى قيمه بشيء من الإكبار والإجلال، وليس أدل على ذلك من أن كثيرًا من مؤرخي الإسبان لا ينخرطون في الاحتفالات السنوية لذكرى خروج المسلمين من الأندلس؛ إذ يعدون ذلك خسارة للحضارة الإسبانية، ولكن ظاهرة الإسلاموفوبيا التي تناست حضارتنا وغذتها روح العنصرية والجحود يجب أن يتصدى لها المخلصون من علمائنا وقادتنا، ويذكّروا الغرب والشرق بالإسلام وحضارته وعلومه، فهذا بلا ريب فرض كفاية علينا.

الهوامش

١- أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق ص٦١.
٢- الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٠٠.
٣- الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٠٢، ٢٠٣.
٤- أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق فليب حتي ص١٣٧.
٥- أسامة بن منقذ: السابق ص١٣٢.
٦- أي التخفي والتربص.
٧- لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان ٢/٤٣، ٤٤.

الحفاظ على الثوابت الشرعية والاجتهاد في المتغيرات

د. صالح النهام

حريٌّ بنا أن نلقي الضوء على موضوع يعلمه البعض ويخفى عن آخرين، وهو موضوعنا هذا، ولأهميته وددتُ أن أوضّحه في مسألتين اثنتين، هما:

المسألة الأولى: الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع.

لقد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن تكون هذه الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع(١)، إذ ليس كتاب بعد كتابها، ولا نبي بعد نبيها، حيث قال الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقد قال بعض المفسرين عن هذه الآية بأنها إبطال لجميع الأديان غير الإسلام(٢).

وإن من رحمة الله سبحانه وتعالى بالخلق أن أكرمهم بالرسالة المحمدية: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(الأنبياء: ١٠٧)، ومن مقتضيات تلك الرحمة تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة.

يقول الشاطبي عن هذه الآية وأشباهها: «إنها من الآيات الدالة على وضع الشريعة لمصالح العباد»(٣).

ومما يؤكد مراعاة المصالح أن هذه الشريعة تشتمل على أحكام عامة هي العزيمة، وأحكام خاصة هي الرخصة؛ وذلك مراعاة للظروف والأحوال الاستثنائية، والأعذار الطارئة دون مشقة أو حرج يقع فيه المسلم عند قيامه بأحكام الإسلام(٤).

وحين أراد الله عز وجل أن تكون هذه الأمة آخر الأمم وشاهدة عليها، جعل شريعتها خاتمة الشرائع وناسخة لها؛ لتبقى خالدة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا كان القرآن العظيم، بما حوى من عقائد وأحكام، متضمنًا للتعاليم السابقة، ومليبًا لحاجات الناس الراهنة والقادمة، صالحًا للتطبيق والعمل مهما اختلفت الظروف والأحوال وتعاقبت الأزمنة والأيام، والإسلام عقيدة وشريعة، ودين ودولة، وهذا ما يجعل حياة المسلم وحدة مترابطة منسجمة لا تعارض فيها ولا تناقض، فعقيدة المسلم تحكم باطنه، وشريعة الإسلام تحكم ظاهره ومجتمعه(٥).

ألا وإن الشريعة الإسلامية شريعة دعوة ربانية عالمية للناس كافة، في كل زمان ومكان، تلزم كل من تبلغه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(٦). ومعنى الأمة في هذا الحديث: عموم أهل الدعوة، أي: كل من دعاه إلى الإيمان؛ لأن قوله ﷺ: «يهودي ولا نصراني» بدل من قوله: «من هذه الأمة»، أي: بدل من «الأمة» بدل بعض من كل(٧).

وإذا كان الإسلام ختم الشرائع السابقة كلها، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فذلك يعني أن الشرائع الإلهية انقطعت، وأن الوحي الإلهي لم يَعُد ينزل على أحد، يقول الله عز وجل: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾(الأحزاب: ٤٠)، وعلى هذا فلا يُتَصور أن يُنسخ الإسلام أو يغيره شيء(٨).

المسألة الثانية: خصائص الشريعة الإسلامية.

لما كانت الرسالة المحمدية آخر الرسالات السماوية كان من خصائصها البارزة حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية، والشمول، والعموم، والثبات(٩)، أي أنها صالحة لكل زمان ومكان، وخالدة بخلود الإنسان، وفي جميع الظروف والأحوال، وبهذا تتحقق مصالح الناس وفق قواعد هذه الشريعة الغراء وأحكامها الصالحة لكل زمان ومكان، والمهيأة للبقاء والاستمرار لهذا العموم، وهذا فضل من الله جل جلاله على بني الإنسان.

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية، وفرض عليهم الالتزام بها في كل أوجه نشاط حياتهم وعلاقاتهم، قال الله عز وجل: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون﴾(الأعراف: ٣).

مراقب مجلة الوعي الإسلامي

أولاً: حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية.

لاريب أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للشريعة الإسلامية؛ وقد تكفل الله عز وجل بحفظ كتابه العزيز بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩)، وحفظ القرآن الكريم حفظ للسنة الشريفة؛ لكون السنة شطر الدين، وفيها بيان لمجملات القرآن، وتقييد لظواهره؛ بحيث لا يمكن العمل بكثير من آيات الأحكام إلا بالرجوع إلى ما يفسرها من السنة، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾(النحل: ٤٤).

وفي هذا الصدد قال المعلمي وغيره(١٠): «فأما السنة؛ فقد تكفّل الله بحفظها أيضًا؛ لأن تكفله بحفظ القرآن يستلزم تكفله بحفظ بيانه وهو السنة، وحفظ لسانه وهو العربية؛ إذ المقصود بقاء الحجة قائمة والهداية باقية؛ بحيث ينالها من يطلبها؛ لأن محمدًا خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع، بل دلّ على ذلك قوله تعالى:﴿ثم إن علينا بيانه﴾(القيامة: ١٩)، فحفظ الله السنة في صدور الصحابة والتابعين حتى كتبت ودونت»(١١). ويدل على هذا قول رسول الله ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»(١٢)، وقد قيل: إن النبي ﷺ قد أضاف السنة إلى صحابته الكرام كما أضافها إلى نفسه، فسنتهم هي ما عملوه استنادًا لسنته ﷺ وإن لم تطلع عليها منقولة عنه، وكذا ما استنبطوه بما اقتضاه نظرهم في المصلحة(١٣).

والمعبر في السنة هو بمنزلة البيان والتفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب، وحفظ المبيّن يقتضي حفظ البيان؛ لأنه لازم له (١٤). والسنة أيضًا مكملة لأصول الشريعة، فلقد حددت الآيتان من سورة النساء من يَحرم زواجُهن في

الشريعة الإسلامية عامة لا يختص بها قبيل من البشر دون قبيل ودائمة فلا يختص بها جيل دون جيل

قوله عز وجل: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم...﴾إلى قوله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم...﴾(النساء: ٢٣-٢٤)، فجاءت السنة فأخرجت من ذلك زواج المرأة على عمتها أو خالتها؛ وذلك حين قال النبي ﷺ: «لا تُنكَح المرأة على عمّتها، ولا على خالتها»(١٥) ثم نبّه ﷺ بعد ذلك على علة هذا الحكم بقوله: «فإنكم إذا فعلتم ذلك فقد قطعتم أرحامكم»(١٦).

وقد تعدد معنى السنة اصطلاحًا عند كل من: المحدثين، والأصوليين، ثم الفقهاء؛ وسبب ذلك بيانه فيما يلي:

- يذكر المحدثون السنة بأنها: «ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل أو تقرير أو وصف أو سيرة»(١٧)، وهذا عند بعضهم، وعند الأكثر أنها: «تشمل ما أضيف إلى الصحابي أو التابعي»(١٨)، ويشمل الوصف صفاته الخَلقية والخُلُقية، كما تشمل السيرة حياته ﷺ قبل البعثة وبعدها.

- ويذكر الأصوليون السنة بأنها دليل من أدلة الفقه في مقابلة الكتاب والإجماع والقياس، ويعرفونها من بين هذه الأدلة بأنها: «ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير»(١٩).

- ويذكر الفقهاء السنة في أبواب العبادات مثلًا في مقابلة الفرض، فغسل الوجه في الوضوء فرض، بينما تثليث الغسل سنة؛ فهي تطلق عند الفقهاء على: «ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه»(٢٠)، وتنقسم عندهم إلى سنة هدى، وسنة زوائد؛ فما فعله النبي ﷺ على سبيل العبادة يُسمى سنة هدى، وتسمى أيضًا السنة المؤكدة كالأذان والإقامة، وما فعله على سبيل العادة فهي سنة زوائد، كطريقة النبي ﷺ في قيامه وقعوده ومشيه ولباسه وأكله(٢١).

وحول سبب الاختلاف في تعريف السنة إليك ما قاله د. السباعي: «ومرد هذا الاختلاف في الاصطلاح إلى اختلافهم في الأغراض التي يُعنى بها كل فئة من أهل العلم، فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الإمام الهادي الذي أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال، سواء أثبت ذلك حكمًا شرعيًا أم لا.

وعلماء الأصول إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ المشرّع الذي يضع القواعد للمجتهدين من بعده، ويُبيّن للناس دستور الحياة، فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تثبت الأحكام وتقررها.

وعلماء الفقه إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الذي لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعي، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبًا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك»(٢٢).

هذا وقد يرد لفظ السنة ولا يراد به معناها في اصطلاح المحدثين أو الأصوليين أو الفقهاء؛ وذلك كما إذا ورد لفظ السنة في الحديث النبوي وكلام الصحابة والتابعين، كحديث أنس رضي الله عنه في النفر الثلاثة الذين تقالّوا عبادته ﷺ فقال لهم: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢٣). فالسنة في كلام النبي هاهنا معناها: «الطريقة المشروعة المتبعة في الدين»(٢٤).

ثانيًا: الثبات والشمول.

الشريعة الإسلامية عامة؛ لا يختص بها قبيل من البشر دون قبيل، ودائمة؛ فلا يختص بها جيل دون جيل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس

بشيرا ونذيرا ...﴾(سبأ: ٢٨)، وقال عز وجل: ﴿قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾(الأعراف: ١٥٨)، وأفعال البشر على اختلاف أجناسهم وتعاقب عصورهم لا تنتهي إلى حد، ولا تدخل تحت حصر(٢٥).

وقد ذكر الشافعي كلامًا نفيسًا في قوله عز وجل: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (النحل: ٨٩)، يقول فيه: «فليست تنزل بأحد من أهل دين نازلة إلا وفي كتاب الله على سبيل الهدى فيها»(٢٦)، ولاشك أن في هذه الآية دلالة صريحة على شمول هذه الشريعة لجميع ما يحتاجه الناس في جميع المجتمعات على مر العصور وتغير الأحوال(٢٧)، وهذا من شرفها على سائر الملل والشرائع.

وذكر القرطبي تفسيرًا للآية السابقة فقال: «إن القرآن العظيم فيه تبيان لكل شيء، وذلك إما على سبيل الإجمال، وإما على سبيل التفصيل والشرح، والمجمل يتلقى بيانه من الرسول ﷺ، أو من الإجماع، أو من القياس»(٢٨).

ثالثًا: تعليل الأحكام الشرعية.

قال الخطيب البغدادي: «التعبد من الله تعالى لعباده على معنيين:

المعنى الأول: التعبد في الشيء بعينه لا لعلة معقولة؛ فما كان من هذا النوع؛ لم يجز أن يقاس عليه.

المعنى الثاني: التعبد لعلل مقرونة به، وهي الأصول التي جعلها الله تعالى أعلامًا للفقهاء؛ فردوا عليها ما حدث من أمر دينهم، مما ليس فيه نص بالتشبيه والتمثيل عند تساوي العلل من الفروع بالأصول، وليس يجب أن يشارك الفرع الأصل في جميع المعاني، ولو كان ذلك واجبًا؛ لكان الأصل هو الفرع، ولما كان يتهيأ قياس شيء على غيره، وإنما القياس تشبيه الشيء بأقرب الأصول به شَبَهًا، ألا ترى أن الله تعالى حكم في الصيد بالمثل في النّعم، وحكموا في النعامة بالبدنة، وإنما يتفقان في بعض المعاني، وكذلك الحكم بالقيم والأمثال في الأشياء المتلفة، والله أعلم»(٢٩).

تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والإنسان أمر في غاية الأهمية يتطلب اجتهادا يبين حكم الله تعالى

رابعًا: احتواء التشريع الإسلامي على مبادئ عدة تحكمه.

وهذه المبادئ تعود في جملتها إلى علم القواعد الفقهية، حيث دلت النصوص الشرعية على اعتبارها، ومن ذلك القواعد الخمس التي عليها مدار الفقه الإسلامي(٣٠):

قاعدة: الأمور بمقاصدها.

قاعدة: اليقين لا يزال بالشك.

قاعدة: الضرر يزال.

قاعدة: المشقة تجلب التيسير.

قاعدة: العادة محكمة.

ومن القاعدة الثالثة والأخيرة انبثق قول الفقهاء: «لا ينكر تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان»(٣١)، والذي يعتبر كلمة حق؛ لأن المقصود من تغير الزمان (٣٢) هو تغير العادات والأحوال للناس في زمن عنه في زمن آخر، أو في مكان عنه في مكان آخر، مهما اختلفت المؤثرات التي أدت إلى تغير الأعراف والعادات، وقد أُسند التغيير إلى الزمان مجازًا؛ فالزمن لا يتغير، وإنما يطرأ التغير على الناس، والتغير لا يشمل جوهر الإنسان في أصل جبلّته وتكوينه؛ فالإنسان إنسان منذ خُلق، ولكن التغيير يتناول أفكاره وصفاته وعاداته وسلوكه؛ مما يؤدي إلى وجود عرف عام أو خاص، يترتب عليه تبديل الأحكام المبنية على الأعراف والعادات، والأحكام الاجتهادية التي استُنبطت بدليل القياس أو المصالح المرسلة أو الاستحسان أو غيرها من الأدلة الفرعية(٣٣).

غير أن هذه القاعدة ليست على إطلاقها؛ فالمأمورات والمنهيات المعلومة من الدين بالضرورة لا تخضع لقاعدة التغير بسبب الزمان، لأن الذي يتغير هو الأحكام الاجتهادية، وأما القطعيات من الأحكام فلا تتغير؛ فلا يمكن أن تتغير المواريث بدعوى أن المرأة أصبح لها شأن، ولا يمكن أن يتغير تحريم ربا النسيئة في بلاد الإسلام، ولا تحريم أكل الميتة والخنزير، وتغير الفتوى لا يكون إلا لترجيح مصلحة شرعية لم تكن راجحة في وقت من الأوقات، أو لدرء مفسدة حادثة لم تكن قائمة في زمن من الأزمنة(٣٤).

ولاريب أن الأحكام الشرعية بثبوتها ورسوخ قواعدها، وشمولها لكل ما يجد في الحياة قادرة على تنظيم حياة الناس الفردية والجماعية بما يضمن لهم السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة، ولاشك أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون واقعًا ملموسًا ما لم يوجد من العلماء المجتهدين من يعالج ضرورات الواقع وتطورات الحياة، وما تقذفه من قضايا ومستجدات تتطلب حلًا سريعًا، وفكرًا حرًا طليقًا، وحيوية علمية، تتجاوب مع المقتضيات، وتواكب تقدم الحياة، بل وترسي دعائم المستقبل وفق الشروط والضوابط التي نص عليها الأصوليون في كتبهم ومؤلفاتهم.

والناس اليوم كما هو معلوم في وضع يختلف كثيرًا عما كانت عليه أوضاع السابقين، بحيث صار لهم من الحاجات والمشكلات ما لم يكن عند أسلافهم، فيجب مراعاة هذا التغير، وأن يفتى لهم في القضايا المعاصرة في ضوء ملابساتها، ولا يجوز إخضاعها لآراء قديمة قيلت في ضوء ملابسات مختلفة،

وشاهد ذلك ما عرفه التاريخ من فقه الإمام الشافعي القديم، ومذهبه الجديد، حيث غيّر بعض اجتهاده في عصرين متقاربين.. فعصره الأول: كان قبل أن يستقر في مصر، بينما عصره الثاني: فكان بعد أن استقر في مصر(٣٥).

وللعلم فإن مذهب الإمام الشافعي القديم والجديد إنما توصف بهما أقواله وكتبه، فأقواله بالعراق وكتبه التي ألفها قبل مجيئه مصر يقال لها: القديم، وأقواله بمصر وكتبه التي صنفها فيها يقال لها: الجديد، وإطلاق القديم والجديد على مذهبه فمجاز؛ لأن مذهبه واحد لا ثاني له، ويسير وفقًا لقانون التطور والنمو، وكذلك كثيرًا ما يوصف مذهبه القديم والجديد بهما فقهه؛ لأنه يتعلق بالفروع، والفروع أغلبها مبنية على الاجتهاد، والاجتهاد كثيرًا ما يتعرض للتغير لأسباب اقتضت ذلك، أما الأصول فإنها تتعلق بالقواعد العامة، والقواعد العامة قلما تتغير(٣٦).

فإذا كان ذاك قد حدث في تلك العصور، فكيف يكون اليوم في عصر تغيرت فيه أشياء كثيرة بعد الانقلاب الصناعي، والتقدم التكنولوجي؟ لذا على من تصدر منصب الإفتاء الاجتهاد في ضوء المتغيرات، وأن يُقَدِّر ظروف العصر وضروراته، مما عمت به البلوى، وأن يُطبِّق على الواقع ما قرره علماؤنا من تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، ورحم الله ابن أبي زيد القيرواني حيث كان يسكن في أطراف المدينة، فاتخذ كلبًا للحراسة، فقيل له: كيف تفعل ذلك ومالك يكرهه؟ فقال: لو أن مالكًا في زماننا لاتخذ أسدًا ضاريًا (٣٧).

هذا فاعتبار تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والإنسان، والإلمام بثقافة العصر وضروراته ومستجداته لأمر في غاية الأهمية؛ حيث يتطلب اجتهادًا يبين فيه حكم الله عز وجل.

الهوامش

(١) انظر: أصول التشريع الإسلامي للشيخ/ علي حسب الله: (ص: ٤٢٠-٤٤٢)، شريعة الإسلام خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان للدكتور/ يوسف القرضاوي، الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره لعباس حسني محمد: (ص: ٥٣-٦٧)، أصول الدعوة للدكتور/ عبدالكريم زيدان: (ص: ٤٦-٤٧).

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي: (١١٢/١).

(٣) انظر: الموافقات للشاطبي: (٤/٢).

(٤) انظر: أصول الدعوة (ص: ٥٣-٥٤).

(٥) انظر: منهج استنباط أحكام النوازل الفقهية المعاصرة للدكتور/ مسفر القحطاني: (ص: ٢٥- ٢٦).

(٦) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (٨١٨٨)، ومسلم، برقم: (٤٠٣).

(٧) انظر: إكمال إكمال المعلم شرح أبي عبدالله محمد الأبي على مسلم، ومعه مكمل إكمال الإكمال للسنوسي: (٢٦٣/١).

(٨) انظر: أصول الدعوة (ص: ٥٧) بتصرف.

(٩) ومن خصائص الإسلام أيضًا: الجزاء في الإسلام- المثالية والواقعية. انظر: المرجع السابق: (ص: ٤٥-٧٨).

(١٠) كالإمام أحمد والشاطبي وغيرهما. انظر: أحمد بن حنبل للشيخ أبي زهرة: (ص: ٢٤٤)، أحمد بن حنبل للدكتور/ مصطفى الشكعة: (٢٢١/٤)، الموافقات: (٦/٤).

(١١) انظر: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة للمعلمي: (ص: ٣٣).

(١٢) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (١٧١٨٥)، والترمذي، برقم: (٢٦٧٦).

(١٣) انظر: هامش الموافقات: (٥/٤).

(١٤) انظر: الموافقات: (٦/٤).

(١٥) أخرجه البخاري، برقم: (٥١٠٨)، ومسلم، برقم: (١٤٠٨)، واللفظ له.

(١٦) قال ابن حجر: «وهي زيادة الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما»، وصححه ابن حبان. ولأبي داود في المراسيل عن عيسى بن طلحة: «نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على قرابتها مخافة القطيعة». انظر: الدراية في تخريج الهداية: (٥٦/٢).

(١٧) انظر: شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر المسمى نزهة النظر لابن حجر العسقلاني، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لمحمد جمال الدين القاسمي.

(١٨) انظر: منهج النقد في علوم الحديث لنور الدين عتر: (ص: ٢٨).

(١٩) انظر: التقرير والتحبير على التحرير في أصول الفقه لابن أمير الحاج الحلبي: (٢٨٨/٢)، إحكام الفصول في أحكام الأصول للباجي: (ص: ٢٢٢-٢٢٣)، حاشية البناني على شرح المحلي على متن جمع الجوامع: (٩٥/٢)، شرح الكوكب المنير للفتوحي: (١٥٩/٢-١٦٦).

(٢٠) انظر: الفتاوى الهندية: (٦٧/١)، جواهر الإكليل: (٧٣/١)، مطالب أولي النهي: (٩٢/١).

(٢١) انظر: التعريفات للجرجاني: (ص: ١٦١-١٦٢)، بتصرف.

(٢٢) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور/ مصطفى السباعي: (ص: ٤٨-٤٩).

(٢٣) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (٦٤٧٧)، والبخاري، برقم: (٥٠٦٣)، واللفظ له.

(٢٤) انظر: السنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي للدكتور/ عبدالفتاح أبوغدة: (ص: ١٧).

(٢٥) انظر: شريعة الإسلام خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان للدكتور/يوسف القرضاوي: (ص: ١٢)، الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره لعباس حسني محمد: (ص: ٥٣-٦٧).

(٢٦) انظر: الرسالة للشافعي: (ص: ٢٠).

(٢٧) انظر: منهج استنباط أحكام النوازل الفقهية المعاصرة: (ص: ٤٤).

(٢٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن تفسير للقرطبي: (٤٢٠/٦)، الموافقات: (٣٦٦/٣-٣٧٥).

(٢٩) انظر: صحيح الفقيه والمتفقه: (ص: ٢٢٦-٢٢٧).

(٣٠) انظر: الأشباه والنظائر في الفقه للسيوطي: (ص: ٧-٨).

(٣١) انظر: رسائل ابن عابدين: (١٢٥/٢-١٣٣)، إعلام الموقعين: (١٤/٤، ١٧، ٢٨١)، الإحكام في أصول الفقه لابن حزم: (٣/٥-٥)، المدخل الفقهي العام للدكتور/مصطفى الزرقا: (٩٣٧/٢)، الوجيز في أصول الفقه للدكتور/ عبدالكريم زيدان: (ص: ٤٠٧).

(٣٢) ويعبر عنه أيضًا بفساد الزمان أي فساد الناس وانحطاط أخلاقهم وفقدان الورع وضعف التقوى؛ مما يؤدي إلى تغيّر الأحكام تبعًا لهذا الفساد ومنعًا له، وقد أصبح في انتشاره عرفًا يقتضي تغير الحكم لأجله، وقد حدث مثل هذا في عصر الصحابة رضي الله عنهم، وفي كل العصور الإسلامية. انظر: بحث تغير الفتوى لتغير جهاتها الأربع للدكتور/علي جمعة: (٥٦٧/١).

(٣٣) انظر: المرجع السابق: (٥٦٧/١).

(٣٤) انظر: بحث الإفتاء عبر الإنترنت آفاق وعوائق للأستاذ محمد زيدان: (٥٦٧/١).

(٣٥) انظر: الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط للدكتور/ يوسف القرضاوي: (ص: ٩٦)، بتصرف.

(٣٦) انظر: الإمام الشافعي في مذهبيه القديم والجديد للدكتور/ أحمد نحراوي: (ص: ٤٤٣).

(٣٧) انظر: الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط: (ص: ٩٦).

المعتقدات الدينية في المجتمع الجزائري بين الموروث المحلي ورسوخ الإسلام

(مقاربة تاريخية أنثروبولوجية - تبسة أنموذجا)

د. مها عيساوي

في المجتمع الجزائري القديم يعد الإنسان التبسي جزءًا من المجتمع المغاربي القديم، عرف تسميات عديدة تحت إطار المسميات العلمية التي تدرجه ضمن المنظومة الدولية لمجتمعات ما قبل التاريخ، وخلال الفترة التاريخية كان الإنسان التبسي القديم لوبيا ثم نوميديا ثم إفريقيا ثم بربريا.

والمعتقدات الدينية عند الإنسان التبسي القديم لها جذورها التي بدأت منذ بداية التفكير الديني في مرحلة الباليوليتي الأعلى، ثم انتقلت إلى مبدأ التعددية وعبادة الظواهر الطبيعية وتقديس مجمع الآلهة.

وإشكالية الدراسة من الوجهة التاريخية تتناول عرضًا عن المعتقدات الدينية للإنسان التبسي القديم عبر التاريخ. أما من حيث الوجهة الأنثروبولوجية فتجدر الإشارة إلى أن الإسلام لم يمس مجموعة الأعراف والتقاليد الدينية كثيرًا إلا فيما تعارض مع مبادئ التوحيد، فعلى سبيل المثال في وقتنا الراهن وأثناء مراسيم الجنازة نجد عادة وضع سكين على المتوفى، وهذه الممارسة لها ما يبررها تاريخيًا، إذ تعد أحد الملامح البارزة في تواصل شعائر الدفن التي مارسها الإنسان التبسي منذ أقدم المراحل التاريخية.

أولا: المعتقدات الدينية عند الإنسان التبسي القديم:

١ - التعريف الاصطلاحي بالإنسان التبسي القديم

يقصد به من الناحية التاريخية: الإنسان القديم الذي عاش في منطقة تبسة بدءًا من عصور ما قبل التاريخ وإلى غاية الوجود البيزنطي، ووفقا للتسلسل الكرونولوجي فإنه يعرف بمسميات تاريخية عديدة، فهو أحيانا مستقل بخصائصه الحضارية وأحيانا أخرى جزء من المجتمع الدولي القديم السائد في المنطقة، إنه: إنسان ما قبل التاريخ المعروف في المصادر التاريخية والأثرية بـ «الإنسان العاتري» الذي عاش في مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط منذ ٣٧ ألف سنة. (١)

وهو كذلك إنسان العصور التاريخية:

- الإنسان اللوبي منذ القرن السادس ق.م.
- الإنسان الماصيلي النوميدي: منذ القرن الثالث ق.م.
- الإنسان التيفستي: خلال الاحتلال الروماني والبيزنطي.
- الإنسان التبسي: منذ دخول الإسلام وإلى يومنا هذا.

ويقصد بالإنسان التبسي القديم من الناحية الأنثروبولوجية ذلك الإنسان الذي حمل هوية محلية أصيلة ميزته عن غيره في إطار مجتمعات مونوغرافية متميزة الخصائص والصفات العرقية والسلوكية.

٢ - ملامح الديانة عند الإنسان التبسي القديم:

يقصد بها مجموعة المعتقدات والشعائر الدينية والعبادة الجنائزية التي مارسها الإنسان التبسي القديم عبر العصور التاريخية بدءًا من مرحلة ما قبل التاريخ ووصولًا بالعهود التاريخية.(٢)

ويصعب كثيرا على الباحثين في التاريخ الديني للنوميديين أن يلموا بفكرة واضحة عن المعتقدات الدينية في هذه المنطقة الممتدة تقريبا في تلك الفترة بين هيبون شمالا وتيفست جنوبا ودوقة شرقا وكالاما غربا، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

- ندرة النصوص التاريخية القديمة التي تتناول معتقد النوميديين.
- قلة الشواهد المادية بسبب فناء معظم المدافن القديمة نظرا للظروف الطبيعية والبشرية.
- قلة الحفريات والأبحاث الأثرية التي

أستاذة تاريخ الحضارات والمغرب القديم في جامعة تبسة - الجزائر

تركز على مظاهر الاحتلال الروماني، متناسية فترة حكم المملكة النوميدية في شقها الشرقي فيما يعرف بمملكة الماصيل.

ورغم ذلك تسنى لنا رصد بعض المظاهر الدينية من خلال البقايا الأثرية التي عثر عليها في الضريح الملكي بالخروب لماسنيسان وضريح المدغاسن بباتنة، وكذلك في المدافن الطبيعية التي تنتشر في ربوع القرى والأرياف النوميدية والتي لا يزال معظمها بكرا وبحاجة إلى المزيد من البحث والاكتشاف.

ومن الواضح أن مكانة الميت في المجتمع التبسي القديم كانت على درجة عالية من التقديس له، فإيمانهم بالحياة الأخرى كان جزءًا من عقيدة راسخة ترجمتها العناية بمظاهر وطقوس الدفن كما سيرد لاحقا من خلال المعطيات التاريخية والأثرية.

٣ - الشعائر الدينية:

أ- أنواع المدافن الباكرة في تبسة:

تنوعت المدافن الباكرة في العصر الحجري القديم والحديث، فنجد أن الإنسان المغاربي عموما قد شيد أنواعا عديدة من القبور، ولشدة التنوع أطلق عليها عدة اصطلاحات فمنها:

الجثوة (التومولوس) والمصاطب (الدولمان) والبازينات والدوائر الحجرية (الكروملش) والحوانيت والشوشات.(٣)

كان الدفن عند الإنسان التبسي القديم يتم بادئ الأمر في المغارات والكهوف الطبيعية،(٤) كما كانت تحفر الجثوات في الصخر وتعرف بالحوانيت، وهي كلمة عربية الأصل أطلقها آثاريو المدرسة الفرنسية في بداية القرن العشرين للدلالة على قبور تنحت في الصخور والنتوءات الكلسية، وتكون فتحاتها مربعة وضيقة، أبعادها (١٠٠ سم.٨٠سم.٧٠ سم)، وتغلق بواسطة بلاطة حجرية، وتكون منحوتة في صخور معزولة بأعالي الجبال وتتواجد في منطقة قصطل. (٥)

وتأريخ هذه القبور صعب نظرا لندرة الأثاث الجنائزي والبقايا العظمية، فمعظم الحوانيت المكتشفة كانت بدون أبواب وقد كانت عرضة للتخريب.

دُفن التبسي القديم في قبور التومولوس وهي عبارة عن جثوة جنائزية تتكون من مجموعة من الركام الحجري على شكل نصف مخروط تغطي غرفة الميت، وتأخذ أحيانا أشكالا مربعة لكن في الغالب هي دائرية.

ودفن أيضا في قبور البازينة وهي جثوة متطورة، أطلقها فيرو L. Féraud على التلال الجنائزية الترابية المنتشرة في سهل مسكيانة سنة ١٨٦٨.(٦)

وتوجد في جبل مستيري بتبسة.

أما منطقة قصطل بتبسة فتوجد بها القبور الميغاليتية وهي قبور منضدية. (٧)

وخلاصة لما سبق فإن الإنسان التبسي القديم قد توصل إلى النواة الأولى للمقبرة وهي الحوانيت، حيث إنها جاءت استجابة لرغبته في تكوين مساكن للمتوفين على غرار ما كانوا فيه في الحياة الدنيا. (٨)

ب - وضعيات الدفن:

مارس التبسي القديم وضعيتين للدفن من ثلاث وضعيات كانت شائعة في المغرب القديم، وباستثناء الوضعية المنكمشة La position Contractée)) التي تحبس الميت في حفرة ضيقة، فإن الوضعيتين هما:

- الأولى الوضعية المنطوية position La (Repliée):

تعتبر أقدم أشكال الدفن بحيث يمدد الميت على الأرض على جانبه الأيمن، بحيث تكون الأطراف السفلى منثنية باتجاه البطن، والأطراف العليا ملتصقة بالصدر ومتجهة نحو الوجه. وقد رصدت في عين الدّكارة (بين صفصاف الوسرة وأم علي).

وقد لجأ إلى هذه الوضعية لأنها تحاكي صورة الإنسان النائم الذي يخلد للراحة، وهي محاولة لتسجية الميت في أفضل وضعية تعينه على الراحة في حياته الثانية.(٩)

- الوضعية الثانية (La position Allongée):

كان الميت يدفن ممددا سواء على جانبه الأيمن أو الأيسر أو على ظهره، وقد انتشرت كثيرا في غربي تونس وشرقي الجزائر.(١٠)

جـ - طقوس الدفن:

استعمل التبسي القديم المُغرة الحمراء (L●ocre rouge) وهي عبارة عن تراب صلصالي يستعمل في التخضيب، إذ كانت تعد صباغة حمراء ترش بها عظام الميت، كما تطلى بواسطتها القبور والأثاث الجنائزي، وتوضع في الأواني الفخارية بداخل القبر ليتمكن الميت من تزيين

نفسه في الحياة الأخرى، وهي كناية عن الدم رمز الحياة مانح الحيوية للإنسان.

وقد تم العثور بمنطقة الداموس الأحمر (بوشبكة) على جمجمة عليها بقايا اللون الأحمر، مما يعكس أن العظام الإنسانية كانت تمارس عليها الطقوس الجنائزية المستمدة من الاعتقاد بأن اللون الأحمر يعوض الدم. (١١)

د- الإنسان التبسي القديم واستمرارية عادات الدفن:

تجدر بنا الإشارة إلى أن معظم المدافن الباكرة السابقة الذكر ظلت مستخدمة طوال الفترة التاريخية، ولم تختف إلا بعد أن اعتنق النوميديون الإسلام في العصور الوسطى، بحيث كان دخول الإسلام إلى المغرب القديم خلال القرن السابع الميلادي حدثا عظيما كان له أثره البالغ على عقيدة السكان الوثنية.

فكان المسيحيون منهم يدفنون في نواويس حجرية إلا أنهم اعتبروا قلة إذا ما قيسوا بالسواد الأعظم من أبناء المجتمع الريفي المعتنق للمذهب الدوناتي، هؤلاء الذين حافظوا على النسق القديم في الدفن فيما بين القرن الثالث والسابع الميلاديين إلى أن انتشر الإسلام.

وقد عمل السكان على التخلي تدريجيا عن المدافن القديمة، بل واستبدلوها بالقبور الإسلامية التي لا تزال تستعمل إلى يومنا هذا. (١٢)

إن التحول الجذري والأبدي إلى الإسلام جعلهم ينسون أصول وبناة المعالم الجنائزية وطقوس الدفن والأثاث الجنائزي رغم أنهم كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى بعد الموت، ثم آمنوا بالمسيح المخلّص من بطش الرومان، وعندما انتهوا إلى الإسلام تخلصوا تقريبا من الطقوس القديمة، إلا أن هذا لم يمنع من تواصل بعض العادات والأعراف التي لم ير فيها الإسلام ما يمس صميم العقيدة وجوهر الدين الإسلامي الحنيف كما سيرد لاحقا. (١٣)

٤ - العبادة الجنائزية عند التبسي القديم:

أ- ظاهرة الموت وطقوس التقديس:

كانت ظاهرة الموت وطقوس التقديس من نوع العبادة الوثنية للعديد من الظواهر الطبيعية مثل: الجبال والشمس والقمر ومنابع المياه، وبعض الحيوانات مثل: الكبش. (١٤)

كما تأثروا بالقرطاجيين فعبدوا الآلهة تانيت وبعل حمون. (١٥)

عبد التبسي القديم إلهًا محليًا أطلق عليه «سوقن» ولا تزال قمة جبل الدكان تعرف بهذا الاسم، وهو مذكور في نقيشة ماغيفا التي عثر عليها بتازبنت، وهذا الأخير هو واحد من سبعة آلهة محلية (جيلفا، مسيديشي، أوزيوس، سوقن، أباديير، بونشور، بالدير) عبدت خلال الفترة الرومانية، تعكس الفكرة المحلية المعروفة بالرقود السبعة، وهي في صميم المعتقد التبسي القديم، وفي الموروث الشعبي لا تزال قائمة بعد أن ألبست بلبوس الإسلام، ويكون مقر الرقود السبع عادة مغارة جبلية يطلق عليها اسم «معمّرة» أي الذي تعمره الأرواح. (١٦)

أما ظاهرة الموت فكانت مقدسة عند التبسي القديم ولذلك اعتمد في عبادته الجنائزية على:

- **تقديم القرابين:** وذلك عن طريق إقامة الأضحيات.

- **تقديم السوائل:** وفي مقدمتها الحليب والماء والزيت، حيث كانت تقام لها حفر صغيرة قرب الحوانيت، وكانت السوائل تراق فيها تقديسا للميت. (١٧)

- **الطواف:** كانت شعيرة الطواف تمارس في تحقيق دورة كاملة للمتوفى في الغرف الجنائزية وفي موقع الدفن.

- **النوم بجوار الميت:** اقتضت هذه العادة أن ينام الأحياء بجوار قبور موتاهم قصد استشارتهم في أمور غيبية عن طريق الحلم، وظلت تمارس طوال الفترة التاريخية.

ويظهر أن أغلب الطقوس التي مارسها الإنسان التبسي القديم كانت تدل على مقدار تدينه وتمسكه بسيرة ومناقب أسلافه. (١٨)

ب- الأثاث الجنائزي (المرفقات الجنائزية):

كان التبسي القديم يجهز الميت بالأثاث الجنائزي الذي يدل على طبقته في مجتمعه، إذ يمكن بسهولة تمييز الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المتوفى من خلال ملاحظة نوع أثاثه الجنائزي، فمثلا: في ضريح الخروب الذي يقال بأنه يعود للملك ماسينيسان عثر الآثاريون على أثاث جنائزي فاخر ومتنوع من أسلحة هجومية

ودفاعية وجرار وأوان فضية.

في حين كان الماصيلي من الطبقة البسيطة يرفق إلى جانبه أثاث جنائزي فخاري، وقد كان التبسي القديم لا يختلف عن أبناء جلدته من حيث إنه جزء لا يتجزأ من قبائل الماصيل.

لقد مارس الماصيلي شعيرة الحرق للمتوفى في مرحلة لاحقة على استخدام التومولوس والبازينات، وكانت هذه العادة قد عرفها النوميديون منذ احتكاكهم بالفينيقيين خلال القرن الخامس ق.م، كما أثبتت الاكتشافات الأثرية أنها استعملت في القرن الرابع ق.م.(١٩)

ويعد فخار قصطل (كيسة) من نوع الفخار النموذجي الذي يحفظ فيه متاع الميت، وهو متعدد الألوان الأسود والأحمر. وقد سمحت الحفريات بمعرفة أنماط الأواني الجنائزية من فخار منعدم المقابض والمناقير بالإضافة إلى كؤوس كبيرة ذات فتحات مسطحة. (٢٠) وقد كان من نوع الفخار المصنوع بواسطة الدولاب الخزاف.

وقد عثر كامبس في قسطل على أثاث جنائزي معدني يتكون من: ٢٢ خلخال، خاتم، ٠٨ أقراط، وهذا ما يعكس أيضا أن الإنسان التبسي القديم كان يجلب معه إلى القبر أنفس ما عنده من حلي وأدوات زينة.(٢١)

ثانياً: مقاربة تاريخية أنثروبولوجية في تواصل شعائر وعادات الدفن عند الإنسان التبسي القديم

١- الإرهاصات الأولية للمقاربات التاريخية الأنثولوجية:

يعتبر ستيفان جزال (S. Gsell) (٢٢) وغابريال كامبس (G.Camps) (٢٣) وبرتولون (Bértholon) (٢٤) من المؤرخين الذين انتهجوا أسلوب المقارنات والمقاربات في البحوث التاريخية، رغم ما ينطوي عليه هذا المنهج من مخاطر تستدعي توخي الحيطة والحذر، حيث

ظاهرة الموت كانت مقدسة عند الإنسان التبسي القديم

قدمت الأنثروبولوجيا شروحات لفهم بعض ما خفي من حياة المجتمعات الهامشية في المصادر التاريخية، وخاصة بالنسبة للمجتمعات الريفية.(٢٥)

فمثلا: لمعرفة خصائص المجتمع التبسي القديم لابد من الرجوع إلى المفردات الأنثروبولوجية المعينة على المقاربات التاريخية وتشمل: الوشم وزخارف الزرابي وزخارف الخيام والحلي واللباس التقليدي للرجال والنساء وأدوات الحرث والحصاد والمعتقدات وأسماء الأماكن وتفاصيل سير الحياة اليومية، وكل هذه قضايا ضرورية جدا في فهم الهوية القديمة للإنسان التبسي القديم.(٢٦)

ولكن: ماذا يمكن أن يكون في التاريخ من عادات وتقاليد متوارثة عبر الأجيال يمكن أن تكون لها شروحات في الأنثربولوجيا؟

من هذا المنطلق فإن المتتبع لجانب الممارسات الدينية عند الإنسان التبسي القديم يجد بأن هناك الكثير مما يستدعي الدقة والتمحيص والتدبر لممارسات لها أصولها المغرقة في القدم، حيث حافظت على ملامحها العامة لتتواصل عند الإنسان التبسي لأيامنا هذه؛ ذلك أن المعتقدات تكتسي أهمية بسبب التحول الكامل الذي طرأ عليها، ومع أن العبادة الوثنية ظلت مستمرة في ظل المسيحية، إلا أن الأمر كان مختلفا مع الدين الإسلامي الحنيف.

٢- الصورة المعاصرة للعادات والتقاليد الدينية:

هناك ثلاث حالات في الصورة الدينية للعادات الجنائزية المعاصرة هي:

- **الأولى:** تتعلق بعبادات وممارسات دينية اندثرت تماما ولم يعد لها أي وجود لكونها تتنافى مع مبدأ توحيد الله – عز وجل – مثل المرفقات الجنائزية والقرابين والتفنن في التسجية والتي حرمها الإسلام في أحكام الجنائز.
- **الثانية:** تتعلق ببعض العادات والتقاليد التي تصنف من بدع المآتم وهي ممارسات مكروهة كالإطعام والجلوس بجانب القبر.
- **الثالثة:** تتعلق ببعض العادات والتقاليد التي لم ينافها الإسلام،لأنه عندما انتشر في تبسة انتشر بين مجتمع كانت قد تأصلت فيه عادات وتقاليد دينية واجتماعية موروثة عن السلف كالألبسة والمراسيم والأعياد الاحتفالية وكذلك الطعام والآداب والسلوكات ومصطلحات التخاطب وغيرها، مما لم يجد فيها الإسلام ضيرا في بقائها، فكل ما زاوله الناس بعيدا عن الهيكل والمذبح وما نزل فيه نص في مصادر التشريع فهو مباح ولا يسأل فاعله عنه، ولا يبالى به أن ينزع من أصحابه، ولأن روح الإسلام لم تجمد العادات الموروثة فقد انتقل الكثير منها مما يمكن ملاحظته بسهولة تامة، وهو جوهر المقاربة التاريخية الأنثروبولوجية.

٣- مظاهر التواصل:

من خلال عينة الدراسة تم رصد عشرين مأتما تفصيليا في قبائل مختلفة من منطقة تبسة وضواحيها سنة ٢٠٠٤ و٢٠٠٨، والنتائج نسبية فكل مجتمع يمثل وحدة مونوغرافية.(٢٧)

١ – في مجال المعتقد الديني: لم ترصد هناك أية حالة من الحالات المدروسة في مجال الدعاء لغير الله – عز وجل – ولكن، هناك الدعاء بأمل التبرك بالأجداد، مثل قول: «ببركة جدوده ادعوا له بالرحمة»، هذه الجملة تعكس عادة عبادة الموتى من الأجداد.(٢٨)

٢ – في مجال عادات الدفن: تم رصد العادات الآتية:

- **وضع السكين على الميت:** يوضع سكين صغير حاد، القصد منه منع انفجار الجثة، هذا له ما يبرره تاريخيًا فالمرفق الجنائزي الأساسي كان سلاح الميت الذي يعتبر درعه الحامي.

- **تغطية الميت برداء أحمر فوق الكفن:** إنه رمز للمغرة الحمراء التي كانت تصبغ بها عظام الميت وهي كناية عن الدم الساري في العروق منبع الحياة.

- **طواف الميت ببيته قبل خروجه إلى مثواه الأخير:** وذلك بغرض توديع سكنى الدنيا، وتعكس هذه العادة الطواف في الغرفة الجنائزية المخصصة للميت إن كان من الطبقة الثرية، أما من كان من الطبقة البسيطة فيطاف به وتجهل العملية التفصيلية عند الطواف.

- **وجود حفرة صغيرة أو إناء مثبت في وسط القبر:** يملأ بالماء لتشرب الطير والحيوان العابر منه، وهو صدقة جارية على المتوفى، وكانت هذه العادة شعيرة مقدسة تتمثل في جعل إناء يفيض بالماء أو الحليب كناية عن تذكر أهل الميت له.

- **التصدق على روح المتوفى:** كانت تعكس شعيرة تقديم الأضاحي والقرابين ولو بعد سنوات من زمن الوفاة، وقد تناولت النقوش البونية في معبد الحفرة بقسنطينة مواضيع مشابهة.

- **إنشاء مقابر صغيرة عائلية:** وتكون منفردة في أماكن مرتفعة وعلى قمم التلال، مثلا: مقبرة الطوالبية.

- **الإطعام على الميت:** رغم كراهية الشارع الإسلامي لهذه العادة من قبل أهل البيت (٢٩)، فإنه ثبت تاريخيا أن أهل الميت يعدون الطعام ويذهبون به للهيكل إحياء لروح المتوفى.

الخاتمة

خلاصة لما سبق تجدر بنا الإشارة إلى أن كل ما كان في المقاربة التاريخية الأنثروبولوجية هي مجموعة من النتائج المباشرة التي استقيناها بعد دراستنا لموضوع صعب في المجال الإثنوغرافي التخصصي، فكما هو معروف أن العادات الاجتماعية في سير الحياة اليومية يمكن ملاحظتها وتدوينها كون معظمها يرتبط بالأحداث السعيدة التي يجد المرء مفخرة في تدوينها، لكن مع الأحداث المؤلمة كفقدان عزيز فالأمر مختلف.

ولذلك فإن النتيجة الكبرى التي توصلنا إليها تتمثل في أن بقاء هذه العادات إلى يومنا هذا لا يعكس قوة الشعائر القديمة واستفحالها بين أبناء المجتمع بدعوى الجهل وبدعوى ما يروج له في الدراسات الاستعمارية من كون الأنثروبولوجيا هي بوق من أبواق الغرب، لا يمكن الاستفادة منها فيما يخدم المجتمعات المونوغرافية بشكل إيجابي وعلمي ممنهج.

وبقدر ما تعكس هاته العادات روح الماضي العتيق، فإنها تعكس أيضا سماحة مبادئ الدين الإسلامي وتلطفه بالشعوب التي اعتنقته في السماح لمن غلب عليهم الإيمان بالعرف بمواصلة استخدامهم لمثل هذه العادات ومنها: المجتمع المغاربي عموما، والجزائري خصوصا، والتبسي على وجه دقيق.

الهوامش

١-ليونال بالو، الجزائر في ما قبل التاريخ، تر: محمد الصغير غانم ، ط ، ١، دار الهدى، ٢٠٠٥، ص ، ٧ ، و : محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، دار الهدى، الجزائر ، ٢٠٠٣، ص ٥٨.

٢-رابح لحسن، أضرحة الملوك النوميد والمور ، ط ، ١، دارهومة، ٢٠٠٤، ص. ٢٥٥.

٣- رابح لحسن، المرجع السابق، ص٢٦ – ٣٨ .

٤-فراس السواح، دين الإنسان، منشورات دار علاء الدين، دمشق ، ٢٠٠٢ ص ٧١.

٥-محمد الصغير غانم، المعالم الحضارية في الشرق الجزائري (فترة فجر التاريخ)، ط١، دار الهدى ، الجزائر ، ٢٠٠٦ ص ١٠١.

٦- رابح لحسن، المرجع السابق، ص ٢٦ – ٢٩.

٧-Stéphane Gsell. Atlas Archéologique : T: I ، Feuille ، de l' Algérie ، 2ème éd. ٢٩.

٨- رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ج١ – العصور القديمة –، ط١، دار النهضة العربية، بيرت، ١٩٨١ص ١٢٧.

٩- رابح لحسن، المرجع السابق، ص٢٦٢. و انظر: محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، ط١، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٩٥ص١٥١.

١٠- المرجع نفسه، ص٢٦٤.

١١- Stéphane Gsell ، Atlas Archéologique de l'Algérie ، T: I ، ٢ ème éd. ، Alger ، Feiulle Num ٢٨.

١٢- رابح لحسن، المرجع السابق، ص (٢٠ – ٢١).

١٣- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت، ص١٧٢.

١٤- محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، ط١، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ص١٤٥.

١٥- محمد حسين فنطر، الحرف والصورة في عالم قرطاج، منشورات أليف ومركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩ص٤٠.

١٦- محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ط١، دار الهدى ٢٠٠٨، ص٢٣١.

١٧- رابح لحسن، المرجع السابق، ص٢٧٣.

١٨- محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، تر: صال عباد، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٤، ص١٣.

١٩- المرجع نفسه، ص٢١٤.

٢٠- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص١٠٤.

٢١- المرجع نفسه، ص١١٠.

٢٢- Stéphane Gsell ، Histoire Ancienne de l ■ Afrique du Nord ،T. P. ، ١٩١٣ ، I ، Librairie Hachette ، Paris P -. (٢٧٥ – ٣٠٨)

٢٣- غابريال كامبس، البربر، منشورات أليف، تونس، ١٩٩٧، ص٧ – ٩ .

٢٤- محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص١٩٢.

٢٥- محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص٥١.

٢٦- المرجع نفسه، ص١٦٢.

٢٧- إن الدراسة التطبيقية قد تمت باتباع مختلف الأدوات والمناهج العلمية فيما عدا التصوير، وذلك نظرا لحرمة فعل التصوير للمتوفى أمام أسرته، واستهجان ذلك خاصة ونحن من أقرباء أو أصدقاء المتوفى، كما ان العقلية المحلية ترفض بتاتا فكرة التصوير لأنها تعتبره رمزا للأحداث السعيدة وليس رمزا للأحداث المؤلمة، هذا وتوجد عادة تصوير المآتم فقط في المشرق وللشخصيات النافذة وعند الأسر المسيحية.

٢٨- محمد الصغير غانم، الملامح الباكرة للفكر الوثني في شمال إفريقيا، ط١، دار الهدى، الجزائر ٢٠٠٥، ص.

٢٩- أبوبكر جابر الجزائري، منهاج المسلم، ط١، دار ابن باديس، الجزائر، ١٩٩٨، ص٢٩٢ – ٣٠٨ .

الأصولية في البيئة الغربية (٢/٢)

د. سامي عطا حسن
باحث أكاديمي

منذ أن ظهرت الحركات الإسلامية على الساحة السياسية، وأخذت تعمل للعودة بالاسلام إلى قيادة المجتمع، أخذ الغرب ممثلا بالولايات المتحدة الأميركية ينظر بعين الريبة والحذر إليها، ولم يتوان عن استخدام أية طريقة ممكنة للتخلص منها، أو على الأقل أن يحتويها، لذلك ظهرت كثير من الاتهامات الغربية والأميركية الباطلة التي تتهم الاسلام والمسلمين، فتارة يتهم الإسلام بأنه إرهابي وأصولي، ومتطرف، ومتعصب، في محاولة لربط الحركات الإسلامية بالحركة الأصولية المسيحية المتعصبة التي خاضت صداما طويلا مع الكنيسة، انتهى بغلبة السلطة المدنية، وتحييد دور الكنيسة، وتحجيم دورها (١).

أ- الأصولية اليهودية

يتمثل مفهوم الأصولية اليهودية في:

١- تقديس النص.

٢- تقديس الشخص.

فتقديس النص، بتطبيقه حرفيا، وإعطائه سلطة أعلى من أي سلطة أخرى.

وتقديس الشخص: بتقديس كلامه، بل يعتبرون كلامه نصا، وهذا متمثل في الحاخام(١)عند اليهود. ويلخص د.عبدالله بركات الأصولية اليهودية بقوله: «تجسد النصوص المقدسة عند اليهود (الأسفار الكتابية، والتلمود) هذا المفهوم الأصولي من مصادمة للعلم، والثوابت اليقينية، والبدهيات العقلية، وتعميق العنصرية والدموية، والتهاون بمحرمات كل الأجناس غير اليهودية، كل ذلك في نصوص لا تقبل المناقشة والجدل، بينما تتفرد التعاليم الشفوية باعتبار الشخص المعتبر عندهم (الحاخام) أصلا تفوق أهميته وقداسته واعتباره النص ذاته. ومن هنا كانت المصادر اليهودية (نصوصا وأشخاصا) محور الأصولية الذميمة في المجتمع الغربي(٢) ويقدس اليهود كثيرا من

«الأصولية» في الإسلام مصطلح محمود ويطلق على العالم بأصول الفقه

النصوص التي تصادم العقل، وتناقض النقل، من ذلك مثلا:

أولاً: ما جاء في سفر أشعيا: «ويكون الملوك حاضنيك، وسيداتهم مرضعاتك، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك» (٣) فهم يتخذون من هذا النص وغيره أنهم: شعب الله المختار المفضل على جميع الخلق..

ثانياً: وجاء في التلمود (٤): «اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرم على اليهودي أن ينقذ أحدا من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين» (٥).

هذه بعض النصوص التي تفوح منها رائحة العنصرية، والقتل، وغير ذلك من الصفات الذميمة.

واليهود يقدسون الشخص(الحاخام) ويرفعون مرتبته فوق مرتبة الأنبياء، ومما يؤكد تقديس الشخص (الحاخام) عند اليهود ما ذكره صاحب كتاب «الأصولية اليهودية» على لسان المتحدث باسم إحدى المستوطنات اليهودية قوله: «لو طلب منا حاخاماتنا الرحيل بهدوء فلن تجد الحكومة في مدينة يهوذا والسامرة (٦) أسهل في الاخلاء من مدينتنا، أما إذا طلبوا البقاء فسنناضل أكثر من أي مدينة» (٧).

وخلاصة القول: أن الأصولية اليهودية تعني: تقديس النص، والأخذ بحرفيته، والتمسك به. وكذلك تقديس أقوال الحاخامات، وإعطاءها سلطة أعلى من سلطة التوراة (٨).

الأصولية المسيحية الصهيونية

ليس وجود اتجاهات صهيونية لدى بعض المسيحيين أمرا جديدا، أو حدث فقط بعد قيام دولة «إسرائيل» الغاصبة في فلسطين، كما يظن البعض، بل قد وجدت مثل هذه النزعات الصهيونية -أي المؤمنة بتوطين اليهود في أرض فلسطين - لدى بعض المسيحيين الأصوليين من مختلف المذاهب والطوائف، خاصة بين البروتستانت، منذ القرن السادس عشر الميلادي، أي: بعد قيام حركة الاصلاح

البروتستانتية، ولم تتحول تلك الرغبات والأماني إلى تيار قوي إلا في القرنين الأخيرين، حيث بدأت بعض الجماعات، والجمعيات، ورجال دين بارزين، في أوساط المسيحيين الغربيين، وخاصة بين الأصوليين من البروتستانت، تطالب صراحة بلزوم عودة الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد، وأنها وطنه الأبدي.

وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين نشأ تجمع لعدة منظمات مسيحية بروتستانتية أصولية ، أطلق أتباعه على أنفسهم اسم : «الصهيونيون المسيحيون»، وأنشأوا لأنفسهم مركزا في القدس أسموه: «السفارة المسيحية الدولية في أورشليم»(٩).

وقد وصفهم الدكتور القس رياض جرجور- الأمين العام لمجلس كنائس الشرق الأوسط – في كلمة تحت عنوان «صهيومسيحية أم صهيوأميركية؟»، ألقاها في ندوة فكرية في مركز الإمام الخميني الثقافي – بيروت، في ٨ نيسان (أبريل) ٢٠٠٣، قال فيها: «تم تعريف الصهيونية المسيحية على أنها «الدعم المسيحي للصهيونية». وقد قيل أيضًا: إنها «حركة قومية تعمل من أجل عودة الشعب اليهودي الى فلسطين وسيادة اليهود على الأرض». ويعتبر الصهيونيون المسيحيون أنفسهم مدافعين عن الشعب اليهودي وخاصة «دولة إسرائيل» ويتضمن هذا الدعم معارضة كل من ينتقد أو يعادي «إسرائيل»... ثم يقول: أما القس «جيري فالويل» مؤسس جماعة العمل السياسي الأصولي المسماة «الأغلبية الأخلاقية» وهو الذي منذ فترة تكلم واتهم دين الإسلام بأنه دين إرهابي، فإنه يقول: «إن من يؤمن بالكتاب المقدس حقا يرى المسيحية ودولة «إسرائيل» الحديثة مترابطتين على نحو لا ينفصم، إن إعادة إنشاء دولة «إسرائيل» في العام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين لهي

لا يوجد مكان للصهيونية المسيحية في الشرق الأوسط ويجب أن تنبذ من قبل الكنيسة العالمية

في نظر كل مسيحي مؤمن بالكتاب المقدس تحقيق لنبوءات العهدين القديم والجديد». ثم قال: وفي ختام التعريفات أقول إن الصهيونية المسيحية في نهاية المطاف تعبر- وكما جاء في بيان اللجنة التنفيذية لمجلس كنائس الشرق الأوسط في نيسان (إبريل) عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين (١٩٨٦)- عن مأساة في استعمال الكتاب المقدس، واستغلال المشاعر الدينية في محاولة تقديس إنشاء دولة ما، وتسويغ سياسات حكومة مخصوصة.

إذن لا يوجد مكان للصهيونية المسيحية في الشرق الأوسط، ويجب أن تنبذ من قبل الكنيسة العالمية، إنها تشويه خطير وانحراف كبير عن الإيمان المسيحي الحقيقي المتركز في السيد المسيح، كما أنها تدافع عن برنامج سياسي قومي يعتبر الجنس اليهودي متفوقًا. وبكلمات رجل دين فلسطيني محلي: «إنهم أدوات تدمير وخراب، وهم لا يعطون أي اعتبار أو أهمية للمسيحيين الأصليين في هذه البلاد»(١٠).

وتدعو الأصولية المسيحية للعودة إلى الأصول، وتعتقد بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس، أي عصمته من الخطأ والتحريف، فالنص الانجيلي له السلطة العليا فوق الجميع، وهو كلمة الله المعصومة من كل عيب ونقص، وكل ما يعارض النص فهو مرفوض .. وتفسر النص تفسيرا حرفيا، وتحصر فهمه في اللاهوتيين من رجال الكنيسة، وتهتم اهتماما كبيرا بالنبوءات المستقبلية، وتحاول تحقيقها تحقيقا حرفيا، وخاصة ما يتعلق بـ«إسرائيل»، والمجيء الثاني للمسيح – عليه السلام – فالأصولية المسيحية كمثيلتها الأصولية اليهودية، تقوم على تقديس النص، وتقديس الشخص(١١).

هل هناك أصولية في البيئة الاسلامية؟

اعتاد الكتاب الغربيون إطلاق تعبير الأصولية الإسلامية على حركة الصحوة الإسلامية، في محاولات لربطها بالحركة الأصولية المسيحية المتعصبة، التي ظهرت في الولايات المتحدة الأميركية مع كل سلبياتها التي رسبتها في الضمير الأميركي بصورة خاصة، والغربي المسيحي بصورة عامة، ومما يلفت النظر في هذا المجال، تركيز الخطاب الاتهامي على «الأصولية الإسلامية» دون غيرها من الأصوليات المعاصرة التي سبق ذكرها. والذي يهمنا هنا، الأصولية ليس كمصطلح، ولكن كمفهوم سائد متداول في وعينا العام، وفي الخطاب العربي المعاصر، ارتبطت به مفردات اشتق بعضها من فعل «أصل» أصالة، فهو أصيل، وتأصل: صار ذا أصل، والتأصيل والأصالة، والأصولية. وصفة الأصولي تطلق – دون تحديد موقف فكري محدد – على المشتغل بأصول الدين، أو أصول الفقه، أو المهتم بدراسة أصول القضايا والظواهر عامة (١٢).

أما الأصولية فهي وإن تكن تعني الانتساب إلى الأصل، أو إلى الأصول، فإنها تعني شيئا مختلفا ومغايرا تماما، على حد قول الاستاذ محمود أمين العالم، حيث يقول: «الأصولية تختلف وتتمايز عن هذه المفردات جميعا، وتشكل دلالة مذهبية وأيديولوجية خاصة، بمعنى أنها الرؤية التي تتخذ من الأصل – سواء أكانت نصوصا دينية، أم مذهبا دينيا، أم

سياسيا - مرجعا أساسيا وسندا مطلقا نهائيا في مفاهيمها وسلوكها. فليست كل مرجعية إلى أصل ثابت تتسم بالأصولية، وإنما تصبح هذه المرجعية أصولية إذا تكررت هذه المرجعية، واحتكرت وطغت بشكل مطلق، وأصبحت منهجا مسيطرا» (١٣) ويذهب الأستاذ فهمي هويدي إلى أنه يجب ضبط المصطلح ، ويقول: «ومشكلتنا مع الأصولية: أن هذا التعبير- أساسا- لا أصل له في اللغة العربية ، ولا أصل له في الخطاب الإسلامي، ولذلك هو ترجمة لكلمة «فندمنتاليزم» التي لها أصولها المسيحية البروتستانتية المعروفة، إن الحالة الإسلامية فيها درجات لا تستطيع أن تصفها كلها بأنها أصولية، هناك معتدلون ومتطرفون، وإن كان الانطباع الذي ساد هو أن كل من تحدث عن الإسلام كمشروع، أو ما يسمى بالإسلام السياسي قد صنف أصوليا» (١٤).

وجاء في الموسوعة الميسرة أن مصطلح الأصولية في الاسلام «مصطلح محمود غير مذموم، فهو يطلق على العالم بأصول الفقه، وأصول الدين «علم العقيدة والتوحيد» فيقال: عالم أصولي، كما يقال: فقيه، ومفسر، ومحدث» (١٥)..ويرى فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي أنه لا مانع من قبول مصطلح «الأصولية» باعتباره يعني العودة إلى الأصول، والتي هي الكتاب والسنة، والتمسك بهما عمليا، ويقول: «إن كان التمسك بالإسلام الصحيح عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، والدعوة إليه، والاعتزاز به، والدفاع عن مبادئه، وحرماته «أصولية» فليشهد الثقلان أننا أصوليون أقحاح» (١٦).

ومما سبق عرضه تجدر الإشارة إلى اختلاف معنى الأصولية في الثقافة العربية الإسلامية، عنه في البيئة الغربية، لاختلاف ظروف كل منها من حيث النشأة، والفكر، والعقيدة، ولأنه في البيئة الإسلامية رمز لأهل الاجتهاد والاستنباط، ويطلق على علمين هامين هما: علم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، بينما في البيئة الغربية، عنوان على أهل الجمود والتطرف والتدمير(١٧).. بل إن هذا المصطلح غريب عن البيئة الإسلامية، ومقحم عليها بقوة الإعلام الغربي، ولأن الغرب عموما، والولايات المتحدة خصوصا، تحاول أن تلصق بالحركة الإسلامية، وصف الحركة الأصولية بمدلولها الغربي، الذي هو على النقيض تماما من دلالات هذا المصطلح في البيئة الإسلامية. فالإسلام لا يعرف كلمة تدل على الأصولية بمفهومها الغربي، فلا يبرر الإسلام الإكراه في الدين، بل الواقع أن الإسلام يدعو إلى عقائده الخالصة، ودعوته الشاملة بالحكمة والموعظة الحسنة، فمن يجد في نفسه اقتناعا تاما، فالباب مفتوح ليدخل فيه، وإلا فله الحق بأن يبقى على ما هو عليه من دينه، فلا إكراه في الدين.. هذه أصوليتنا الرحبة، والتي لابد من تمييزها عن أصولياتهم المتنوعة، وتياراتها السياسية العنصرية، الإقصائية.. الإمبريالية..لذلك فإن استعمال هذا المصطلح (Fundamentalism) في توصيف بعض الحركات الإسلامية، من قبل العقل الغربي وبعض المتأثرين به ليس صحيحًا، لأن هذا الاستخدام لم يأت في سياقه السياسي والاجتماعي والثقافي الذي نشأ فيه هذا المصطلح، ولأن الإسلام وحركاته السياسية لم يعرف هذا المصطلح، لا تاريخًا، ولا شرائع، أو فقهًا، وأي اتجاه مغالط عن الحقيقة إنما ينبىء عن تبعية فكرية، إن لم يكن أحد أوجه الاغتراب، والتبعية الحضارية للأنموذج الغربي (١٨).

الهوامش

١- الحاخام: كلمة عبرية معناها الرجل الحكيم، أو العاقل . انظر الموسوعة اليهودية، للمسيري مجلد : ٥ ص ١٥١.

٢- مفهوم الأصولية الإسلامية عند الغربيين، عرض ونقد. ص: ٢٤.

٣- سفر اشعيا: ٤٩: ٢٣.

٤- التلمود: كلمة مشتقة من الجذر العبري: لامد، الذي يعني: الدراسة والتعليم. والتلمود من أهم الكتب الدينية عند اليهود. وهو الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية، أي : تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراة). انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري: مجلد ٥: ص ١٢٤.

٥- انظر: من التلمود، إعداد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : ص ٦٢.

٦- يهوذا والسامرة : هو الاسم الذي يطلقه اليهود على الضفة الغربية التي احتلوها في حرب الأيام الستة. انظر الأصولية اليهودية، إيمانويل هيمان: ص ١٢٣.

٧- الأصولية اليهودية: إمانويل هيمان، ص: ١٢٣.

٨- الحركة المسيحية الأصولية الأميركية وعلاقتها بالصهيونية، إعداد: محمد إبراهيم الشربيني: ص ٣٠-٣١.

٩- انظر كل شيء عن أهدافها وأغراضها ونشاطاتها في موقعها على الانترنت، وعنوانه : www.icej.org.il.//http:

١٠- نشرت مع كلمات ومحاور أخرى في كتيب خاص ضمن سلسلة الندوات الفكرية التي يصدرها وينشرها مركز الإمام الخميني الثقافي - بيروت، في ٨ نيسان (أبريل) ٢٠٠٣.

١١- الحركة المسيحية الأصولية الأميركية (مرجع سابق): ص ٣١.

١٢- إشكالية الموقف الغربي من الأمة الإسلامية: بحث مقدم إلى مؤتمر «الإسلام والتحديات المعاصرة» المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية - مكة المكرمة، في الفترة : ٢- ٢٠٠٧/٤/٣م. إعداد: أ.د. عمر سالم سعدالله العبيدي.ص:٩.

١٣- انظر مراد وهبة: أصوليات هذا الزمان، سلسلة كتاب قضايا فكرية، بإشراف محمود أمين العالم، الكتاب الثالث، والرابع عشر. ١٩٩٣م. نقلا عن سليمان حريتاني، توظيف المحرم ط١، دار الحصاد، سوريا، ٢٠٠٠م. ص: ٣٥٦. وانظر: إشكالية الموقف الغربي من الأمة الإسلامية: ص: ٩-١٠.

١٤- انظر: عمرو عبد السميع: المتطرفون (ندوات ودوائر حوار)، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ١٩٩٣م. ص : ٣٥٤.

١٥- انظر : الموسوعة الميسرة : ج٢: ص ٩٧٥.

١٦- انظر : مستقبل الأصولية الإسلامية: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٧م. ص: ١٦.

١٧- انظر: الحركة المسيحية الأصولية، محمد إبراهيم الشربيني، ص: ٤٠.

١٨- انظر: د.حميد حمد السعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للطباعة، عمان ٢٠٠٢م، ص: ١٣٥ .

بيع الاسم التجاري - الحقوق المعنوية(١)

د. سيد حبيب

الاسم التجاري يطلق على التسمية التي يستخدمها التاجر كعلامة مميزة لمشروعه التجاري عن نظائره؛ ليعرف المتعاملون معه نوعًا خاصًا من السلع وحسن المعاملة والخدمة (٢).

والاسم التجاري يشتمل على المضامين الثلاثة التالية:

أ- **العلامة التجارية:** وهي عبارة عن كل إشارة مميزة تُستخدم لتمييز البضائع، للدلالة على مصدرها أو نوعها أو مرتبتها أو ضمانها أو طريقة تحضيرها. وهي ما قد تسمى اليوم بـ «الماركة» المسجلة.

ب- **العنوان التجاري:** هو عبارة عن تسمية مبتكرة أو رمز يختاره التاجر كشعار خارجي لتمييز محله التجاري عن نظائره واجتذاب العملاء. فـ «العلامة التجارية إشارة مميزة للمنتجات، بينما الاسم التجاري تسمية للمنشأة التجارية، وقد تشتق العلامة التجارية من الاسم التجاري، أو من العنوان التجاري» (٣).

جـ - **الترخيص التجاري**

هو عبارة عن الإذن من الجهات المعنية بمزاولة نشاط تجاري محدد ضمن شروط وضوابط محددة (٤).

حق براءة الاختراع

وهو عبارةٌ عن حقّ يُعطي المخترعَ أو المبتكرَ الحَقّ في استخدام الاختراع الذي اخترعه لمدة معينة تحميه منَ دعوى التقليد أو الغش، وله حق التنازل عنه بالبيع وغيره.

حق التأليف

وهو عبارة عن حق يُعطي المؤلف الحق في الاحتفاظ بثمرة جهده الفكري ونسبة هذا الجهد إليه، واحتجاز المنفعة المالية التي يمكن الحصول عليها من نشره وتعميمه(٥).

المراد بالحقوق في الفقه الإسلامي وأقسامها

أ- **تعريف الحق لغة واصطلاحًا**

الحق في اللغة: نقيض الباطل، ويطلق على عدة معان منها: المال، الملك، الموجود الثابت، والنصيب، والواجب، واليقين(٦).

أما في الاصطلاح: فقد عرف بتعريفات عدة متقاربة المعنى، ومنها: أنه «مصلحة شرعية تخوّل صاحبها الاختصاص أو ترتب التكليف». وقيل: «اختصاص يقرر به الشرع سلطة أو تكليفًا» (٧).

ب- **أقسام الحقوق:**

يقسم الحق في الفقه الإسلامي عدة تقسيمات باعتبارات مختلفة حسب المعنى الذي يدور عليه الحق، ومن أهم هذه التقسيمات:

التقسيم الأول: باعتبار مستحقها (صاحب الحق)

ينقسم الحق بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حق الله تعالى، وهو ما قصد به تعظيم الله تعالى، أو تحقيق النفع العام لجميع العالم، كالعبادات والكف عن المعاصي.

القسم الثاني: حق العبد، وهو ما قصد به مصلحة الشخص الخاصة كحرمة مال الغير.

القسم الثالث: حق مشترك بين حق الله وحق العبد، فقد يكون حق الله تعالى غالبًا مثل القذف؛ ففيه حق الله من جهة عدم شيوع الفاحشة، وفيه حق العبد من جهة الاعتداء على عرضه. وقد يكون حق العبد غالبا، كالقصاص(٨).

التقسيم الثاني: باعتبار محل الحق (وهو ما يتعلق به الحق ويرد عليه)

ينقسم الحق بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من حيث المالية، ينقسم إلى قسمين

القسم الأول: الحقوق المالية، وهي التي تتعلق بالأموال ومنافعها كحق استحقاق العوض.

القسم الثاني: الحقوق غير المالية، هي التي ليس محلها المال، كحق القصاص.

النوع الثاني: من حيث تعلقه بالشخص، ينقسم إلى قسمين

القسم الأول: الحق الشخصي، وهو ما يقره الشرع لشخص على آخر، كحق البائع في الثمن والمشتري في السلعة.

القسم الثاني: الحق العيني، وهو ما يقره الشرع لشخص على شيء معين، كحق تصرف المالك في ملكه.

النوع الثالث: من حيث تقرره في محله، ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: حق مجرد، وهو ما كان غير متحرر في محله، وهو ما كان

باحث دراسات اسلامية في وزارة الأوقاف الكويتية

الإسم التجاري مال يجري فيه الاختصاص والملك

مرجعه رغبة المالك ومشيئته إن شاء انتفع به وإن شاء تركه، كحق الشفعة.

القسم الثاني: حق غير مجرد، وهو ما له تعلق بمحله تعلق استقرار، بمعنى أن لتعلقه أثرًا أوحكمًا قائمًا يزول بالتنازل عنه، كحق القصاص.

التقسيم الثالث: باعتبار كيفية الثبوت، وينقسم إلى قسمين

القسم الأول: الحق القضائي، وهو ما يدخل تحت ولاية القاضي، ويمكن لصاحبه إثباته أمام القضاء.

القسم الثاني: الحق الرباني، وهو ما لا يدخل تحت ولاية القاضي، وإنما يكون مسؤولاً عنه أمام الله، كالذي عجز صاحبه عن إثباته.

التقسيم الرابع: من حيث سبب ثبوته لصاحبه، ينقسم إلى قسمين

القسم الأول: حقوق تثبت لأجل دفع الضرر كحق الشفعة.

القسم الثاني: حقوق تثبت لأصحابها أصالة لا على وجه رفع الضرر، كحق الزوج في إبقاء عقد النكاح قائمًا(٩).

التكييف الشرعي لـ «الاسم التجاري»

إن معرفة طبيعة الاسم التجاري هي أساس الحكم الشرعي ومبناه ومبرره، وكلما تحددت صفة وطبيعة الموضوع أمكن إلحاق الحكم المناسب له.

وقد توصل العلماء المعاصرون من خلال معرفة طبيعة الاسم التجاري إلى أمرين مهمين ينبني الحكم الشرعي على وفقهما، وهما:

١- أن الاسم التجاري يعتبر حقًا

«يفهم من تعريف الاسم التجاري أنه في حقيقته عبارة عن علاقة تنشأ بين هذا الاسم التجاري المتضمن لسلع معينة وبين الجمهور، جسد هذه العلاقة جهد التاجر واجتهاده في تمييز سلعته وتجويدها بحيث اكتسب الاسم التجاري سمعة وشهرة جعل الإقبال عليه كبيرًا، وتعارف جمهور الناس على صلاحيته، وجودة ما يشير إليه هذا الاسم دون غيره.

ولاشك أن جهده هذا قد ساعده فيه استشاريون ومختصون ليضمن أحسن المواصفات لسلعه، وأفضل طرق ترويج هذه السلع وتسويقها، وهذا لا ريب كلفه أموالاً طائلة أخصها وأهمها ما بذله من دعاية لازمة لترويج الاسم التجاري.

وقد أثبتنا سابقًا أن الحقوق أموال وهي من هذا الجانب يجري فيها الملك والاختصاص مادام محلها مالاً أو له تعلق بالمال وكان قابلاً للتجزيء، فالاسم التجاري من هذا الوجه مال يجري فيه الاختصاص والملك» (١٠).

٢- أن الاسم التجاري يعتبر منفعة

«يشكل الاسم التجاري عنوانها ووعاءها، وتنسب المنافع حينئذ للاسم التجاري، وهذه المنافع أشبه بمنافع الأعيان ولكنها منافع إيجابية نامية.

والمنفعة مال متقوم على رأي جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة ومتأخري الحنفية، وهي كذلك أموال متقومة على رأي متقدمي الحنفية إذا ورد العقد عليها تحقيقًا لمصلحة الناس، فإذا كان ذلك كذلك فيمكن القول: إن الاسم التجاري يعتبر مالاً في الفقه الإسلامي لاريب، وإذا كان الاسم التجاري منفعة ومالاً متقومًا صلح أن يكون محلاً للملك لأن الناس تعارفوا على تموله وتقويمه واعتباره» (١١).

المراد بالمال عند الفقهاء

أ- تعريف المال لغة: هو «كل ما ملكته من جميع الأشياء» سواء أكان عينًا أم منفعة، ويشمل أيضًا الحق، وإن كان أمرًا معنويًا إلا أنه يملك سواء أطلق عليه عين أو منفعة أو مباح (١٢).

ب- المال في اصطلاح الفقهاء:

اتفق جمهور الفقهاء على مفهوم المال من حيث الجملة، وإن اختلفت عباراتهم في تعريفه وبيان حقيقته، وتحرير محل النزاع:

■ اتفق الفقهاء على أن الأعيان أموال متى أمكن حيازتها وتملكها والانتفاع بها على وجه ما.

■ كما اتفقوا على أن الحقوق المجردة وهي التي لا تدرك بالحس ولا تعلق لها بالمال، كحق الحضانة والولاية والوظيفة ليست مالاً(١٣).

■ واختلفوا في (الأشياء غير المادية) كالحقوق المتعلقة بالمال، والمنافع هل هي أموال أم لا؟ على قولين:

القول الأول: قول الجمهور من المالكية والشافعية والحنابلة ومتأخري الحنفية، أنه لا يشترط في المال أن يكون له وجود في الخارج ويمكن إحرازه، حيث:

- عرفه المالكية بأنه: «ما يقع عليه الملك ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه».

- وعرفه الشافعية بأنه: «ما له قيمة يباع بها وتلزم متلفه».

- وعند الحنابلة: «ما كان فيه منفعة مباحة لغير حاجة أو ضرورة».

- وعند متأخري الحنفية: «يطلق المال على القيمة وهي ما يدخل تحت تقويم مقوم من الدراهم والدنانير» (١٤).

وعليه فجمهور العلماء ومتأخرو الحنفية اعتبروا المنافع والحقوق أموالاً؛ لأن المقصود من الأشياء منافعها لا ذواتها، وهذا هو الرأي الصحيح المعمول به في القانون وفي عرف الناس

ومعاملاتهم، ويجري عليها الإحراز والحيازة (١٥).

القول الثاني: وهو قول متقدمي الحنفية، والمذهب عندهم: أنه يشترط في المال أن يكون له وجود في الخارج ويمكن إحرازه، حيث عرفوا المال بقولهم: «كل ما يمكن حيازته وإحرازه وينتفع به عادة» (١٦).

وعليه فقد حصر متقدمو الحنفية معنى المال في الأشياء أو الأعيان المادية أي التي لها مادة وجرم محسوس. وأما المنافع والحقوق فليست أموالاً عندهم وإنما هي ملك لا مال(١٧).

● المال والاسم التجاري

إذا علم ما تقدم من تعريف المال، «فإن الاسم التجاري عند التحقيق هو مال على مفهوم الجمهور ومتأخري الحنفية، فمن حيث اشتراط النفع في المال؛ فإن الاسم التجاري يتضمن نفعا ومصلحة خاصة لمالكه، ومصلحة عامة لأفراد المجتمع. وهو وإن كان حقا معنويا إلاّ أن فائدته الخاصة مادية وكذا العامة أيضًا، ومن حيث اشتراط القيمة، فإن الاسم التجاري قد تعارف الناس على أنّه له قيمة يعتاض عنها بما يقابلها من نقد، فيمكن تقويمه كما تقوم الأعيان. ولو اعتدى عليه أجنبي بالتزييف والتقليد فإنه يعرض نفسه للمساءلة والضمان»(١٨).

أقوال علماء العصر في بيع الحقوق المعنوية

١- بيع الاسم التجاري

«اتفق العلماء المعاصرون على اعتبار الاسم التجاري حقًا ماليًا، وذا قيمة مالية ودلالة تجارية معينة، يحقق رواج الشيء الذي يحمل ذلك الاسم، وهو مملوك لصاحبه، والملك يفيد الاختصاص أو الاستبداد أو التمكن من الانتفاع والتصرف فيه بالبيع أو الإجارة أو غير ذلك، ويمنع الغير من الاعتداء عليه إلا بإذن صاحبه، والعرف الذي يستند إليه هذا الحق عام، ولا يتصادم مع نص شرعي خاص أو قاعدة كلية عامة في الشريعة الإسلامية»(١٩).

٢- حق التأليف:

اختلف العلماء المعاصرون في حق التأليف على قولين

القول الأول: عدم اعتبار حق التأليف، وبالتالي عدم حل المقابل المالي لهذا الحق، وإليه ذهب بعض المعاصرين؛ وذلك لما يلي:

- أن اعتبار هذا الحق يؤدي إلى حبس المؤلف لمصنفه العلمي عن الطبع والتداول إلا في مقابل مالي يحصل عليه، وهذا من قبيل كتمان العلم المنهي عنه.

- أن العلم قربة وطاعة، وما كان كذلك فلا يجوز أخذ أجر مالي مقابله.

- قياس حق المؤلف على حق الشفعة من حيث كونه حقًا مجردًا.

القول الثاني: اعتبار حق التأليف، وبالتالي حل المقابل المالي لهذا الحق، وإليه ذهب أكثر المعاصرين. وذلك لما يلي:

- أن المنافع تعتبر أموالاً عند جمهور الفقهاء، والتأليف من الأمور المعنوية، والإنتاج الذهني يمثل منفعة من منافع الإنسان، فيعدّ مالاً، يجوز المعاوضة عنه شرعًا.

- أن العرف العام جار على اعتبار حق المؤلف.

- أن الشريعة الإسلامية حرمت انتحال الرجل قولاً لغيره أو إسناده إلى غير من صدر منه، وعدم اعتبار حق التأليف فيه وقوع في هذا الأمر المنهي عنه.

- إذا كان المؤلف مسؤولاً عما يكتبه ويتلفظ به ويحاسب عليه، فيكون له الحق فيما أبدعه من خير عملاً بالقاعدة «الغنم بالغرم».

- أن الإبداع الذهني أصل الوسائل المادية من سيارة وطيارة ومذياع وغيرها مما له صفة المالية، فلابد من اعتبار الأصل في صفته المالية.

- التخريج على قاعدة «المصالح المرسلة» في ميدان الحقوق الخاصة، ويتحقق ذلك بأمرين:

الأول: من ناحية كونه حقًا مميزًا ماليًا، إذ المصلحة فيه خاصة عائدة إلى المؤلف أولاً، وإلى الناشر والموزع ثانيا.

الثاني: أن فيه مصلحة عامة راجعة إلى المجتمع الإنساني كله، وهي الانتفاع بما فيه من قيم فكرية.

والراجح: ما ذهب إليه أصحاب القول الثاني لقوة ما استدلوا به.

والإجابة عمّا استدل به أصحاب القول الأول، هي كالتالي:

- كون اعتبار هذا الحق يؤدي إلى حبس العلم غير مسلّم، بل أكثر الكتب المنشورة والمتداولة بها اليوم- وهي كثيرة- روعي فيها هذا الاعتبار، فكلامهم غير صحيح.

- أن أخذ الأجرة على عمل الطاعات موجود ومقرر شرعًا، وإن حصل نزاع في بعضها.

- أما القياس على حق الشفعة، فهو قياس مع الفارق، لأن حق الشفعة لأجل دفع الضرر، وحق التأليف حق ثابت لصاحبه أصالة، وليس لدفع الضرر(٢٠).

٣- حق براءة الاختراع:

خرّجه بعض المعاصرين على قاعدة «المصالح المرسلة» التي سبقت الإشارة إليها في حق التأليف «ووجه المصلحة في حماية هذا الحق تشجيع الاختراع والإبداع، كي يعلم من يبذل جهده في الاختراع أنّه سيختص باستثماره، وسيكون محميا من الذين يحاولون أن يأخذوا ثمرة ابتكاره وتفكيره ويزاحموه في استغلالها»(٢١).

● فتاوى العلماء في بيع الحقوق

المعنوية(الاسم التجاري، التأليف، الاختراع، الابتكار) الفتاوى والقرارات كلها متفقة في الحكم بأنها حقوق خاصة لأصحابها ويعتد بها شرعا ولا يجوز الاعتداء عليها، ومن تلك الفتاوى والقرارات:

١- قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي بشأن «الحقوق المعنوية»:

«أولًا: الاسم التجاري، والعنوان التجاري، والعلامة التجارية، والتأليف والاختراع أو الابتكار هي حقوق خاصة لأصحابها أصبح لها في العرف المعاصر قيمة مالية معتبرة؛ لتمول الناس لها. وهذه الحقوق يعتد بها شرعًا فلا يجوز الاعتداء عليها.

ثانيًا: يجوز التصرف في الاسم التجاري أو العنوان التجاري أو العلامة التجارية ونقل أي منها بعوض مالي إذا انتفى الغرر والتدليس والغش باعتبار أن ذلك أصبح حقًا ماليًا.

ثالثًا: حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مصونة شرعًا ولأصحابها حق التصرف فيها، ولا يجوز الاعتداء عليها، والله أعلم (٢٢).

٢- فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية:

«لا مانع من تسجيل الأشرطة النافعة وبيعها، وتصوير الكتب وبيعها، لما في ذلك من الإعانة على نشر العلم، إلاّ إذا كان أصحابها يمنعون من ذلك فلابد من إذنهم»(٢٣).

وفي موضع آخر: «لا يجوز نسخ البرامج التي يمنع أصحابها نسخها إلاّ بإذنهم»(٢٤).

٣- فتوى لجنة الأوقاف الكويتية: حيث سئلت عن استنساخ كتب أو برامج أصلية بقصد بيعها بغرض التجارة أو الربح، فأجابت بأن «ذلك ممنوع شرعًا في حالة منع المؤلف أو المنتج الأصلي أو وجود قانون أو عرف يمنع من ذلك؛ لما فيه من الإضرار بالمؤلف أو ورثته، أو المنتج الأصلي»(٢٥).

نتيجة أقوال العلماء

١- أن حقوق الاسم التجاري، والتأليف والاختراع أو الابتكار حقوق خاصة لأصحابها، ولهم حق التصرف فيها، ولا يجوز الاعتداء عليها.

٢- جواز التصرف في الاسم التجاري أو العنوان التجاري أو العلامة التجارية بشرط انتفاء الغرر والغش.

٣- الأصل هو جواز نسخ الأشرطة، وتصوير الكتب ما لم يعلم أن أصحابها يمنعون من ذلك، فحينئذ لابدّ من إذنهم.

هذا ما تيسر جمعه في هذه المسألة، والله تعالى أعلم، وصلى الله تعالى على خير خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

١- انظر: أبوالحسين أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، ج١: ص٣١١، مادة «بهم». والجوهري: الصحاح «تاج اللغة وصحاح العربية» تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ج٥: ص ١٨٧٥. مادة «بهم»، وابن منظور «لسان العرب»، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م. ج١: ص٥٢٣ وما بعدها. مادة «بهم».

٢ - انظر: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي مختار الصحاح، المكتبة الأموية، دمشق، ص: ٢٧.

٣ - انظر: السهيلي عبدالرحمن بن عبدالله الأندلسي، التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام: ص٥٠.

٤-ابن جماعة، بدر الدين الكناني الحموي الشافعي، (ت ٧٣٣هـ)، غرر البيان لمبهمات القرآن: ص٣٨.

٥- انظر: السيوطي، تفسير الجلالين، بهامش حاشية الجمل ج١: ص ١٠٧.

٦- انظر: الإمام أحمد بن حنبل، المسند: ج٤: ، ص ٣٨٤. وأحمد بن علي بن محمد بن حجر في فتح الباري ج٨، ص ١٥٩.

٧- تفسير الماوردي «النكت والعيون في تفسير القرآن الكريم»، ج١: ص٦١.

٨ - انظر: الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج١: ص ٢٥.

٩ - انظر: صديق حسن خان القنوجي الأنصاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج١: ص ٥٣.

١٠- انظر: البقرة: ٦٣ وَ ٩٣، والنساء: ١٥٤، ومريم: ٥٢، وَطه: ٨٠، والمؤمنون: ٢٠، والقصص: ٢٩ وَ ٤٦، والطور: ١، والتين: ٢، وانظر: المعجم المفهرس: ص ٤٢٩.

١١- انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مجلد ٧، ج٢١، ص ٢٠.

١٢- انظر: الزركشي، البرهان: ج ١: ص١٥٦، والسيوطي: مفحمات الأقران: ص ٢٠ وَ٢١.

١٣- الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله، البرهان، ج١: ص ٢٠٣.

١٤- انظر: السهيلي، التعريف والإعلام، ص: ٦٣. والزركشي، البرهان في علوم القرآن: ج١: ص ٢٠٥.

١٥- انظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٣، ص ٢١.

١٦- مكان بينه وبين مكة المكرمة فرسخان، يُحرِم منه من أراد العُمرة. انظر: عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ) معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م. ج١: ص ٣٢١.

١٧- انظر: د. محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط: ج١٨، ص٤٢.

١٨- انظر: الطبري، جامع البيان، ٣٠: ٣٢٩.

١٩- الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله، البرهان الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله، البرهان: ج١، ص٢٠٧، ٢٠٩.

٢٠- انظر: الواحدي، أسباب النزول، ص ٢٢٨-٢٢٩. وصحيح البخاري: ج٣، ص ١٥.

٢١- انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مجلد: ١٢، ج ٢٨، ص ٢.

٢٢- انظر: السيوطي: لباب النقول، ص ١٣٥، والآلوسي: روح المعاني، ج ٢١ ص٦٧. والقينة هي: المُغنية.

٢٣- انظر: السهيلي، الأعلام، ص ١٩.

٢٤- أخرجه البخاري: حديث رقم: ٣١٥٣. وانظر: د. فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص ١٣٧.

٢٥- أبوجعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان، ج١: ص ٥٢٠.

٢٦- ابن الجوزي: زاد المسير: ج١، ص ١٠٢. والسيوطي، مفحمات الأقران: ص ١٤.

٢٧- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج١، ص ١٥٥.

عبادة السيد نوح abadanooh@hotmail.com

بائع الموز الحكيم

هذه قصة رجل توكل على الله، ثم اعتمد على إرادته وعزيمته وصدقه، وراهن على سواعد شعبه وعقول أبنائه ليضع بلده على «الخريطة العالمية»، فاحترمه الناس، ورفعوا له القبعة.

ففي بلد مساحته ٣٢٠ ألف كيلو متر مربع، وعدد سكانه ٢٧ مليون نسمة كانوا حتى عام ١٩٨١ يعيشون في الغابات، ويعملون في زراعة المطاط والموز والأناناس، وصيد الأسماك، وكان متوسط دخل الفرد أقل من ألف دولار سنويًا، والصراعات الدينية (١٨ ديانة) هي الحاكم حتى أكرمهم الله برجل اسمه «mahadir bin mohamat»، حسبما هو مكتوب في السجلات الماليزية.. أو«مهاتير محمد» كما نسميه نحن، فهو الأخ الأصغر لتسعة أشقاء.

هذا الجراح الماليزي استطاع رسم خريطة لمستقبل ماليزيا حدد فيها الأولويات والأهداف والنتائج، التي يجب الوصول إليها خلال ١٠ سنوات، وبعد ٢٠ سنة حتى عام ٢٠٢٠!

فقرر أن يكون التعليم والبحث العلمي هما الأولوية الأولى على رأس الأجندة، وبالتالي خصص أكبر قسم في ميزانية الدولة ليضخ في تدريب وتأهيل الحرفيين والتربية والتعليم ومحو الأمية وتعليم الإنجليزية وفي البحوث العلمية، كما أرسل عشرات الآلاف كبعثات للدراسة في أفضل الجامعات الأجنبية.

وأعلن للشعب بكل شفافية خطته واستراتيجيته، وأطلعهم على النظام المحاسبي الذي يحكمه مبدأ الثواب والعقاب للوصول إلى «النهضة الشاملة»، فصدقه الناس ومشوا خلفه ليبدأوا «بقطاع الزراعة » فغرسوا مليون شتلة «نخيل زيت» في أول عامين لتصبح ماليزيا أولى دول العالم في إنتاج وتصدير «زيت النخيل»!

وأراد بائع الموز أن يكون المستهدف في عشر سنوات هو ٢٠ مليار دولار بدلًا من ٩٠٠ مليون دولار عام ١٩٨١، لتصل الآن إلى ٣٣ مليار دولار سنويًا، فحوّل المعسكرات اليابانية التي كانت موجودة من أيام الحرب العالمية الثانية إلى مناطق سياحية تشمل جميع أنواع الأنشطة الترفيهية والمدن الرياضية والمراكز الثقافية والفنية، لتصبح ماليزيا «مركزًا عالميًا» للسباقات الدولية في السيارات والخيول والألعاب المائية والعلاج الطبيعي.

وفي قطاع الصناعة حققوا في عام ١٩٩٦ طفرة تجاوزت ٤٦٪ عن العام السابق بفضل المنظومة الشاملة والقفزة الهائلة في الأجهزة الكهربائية والحاسبات الإلكترونية.

وأنشئت أكبر جامعة إسلامية على وجه الأرض، وأصبحت ضمن أهم خمسمائة جامعة في العالم يقف أمامها العالم بانبهار وإقبال، كما أنشئت عاصمة إدارية جديدة putrajaya بجانب العاصمة التجارية «كوالالمبور» التي يقطنها الآن أقل من مليوني نسمة، ولكنهم خططوا أن تستوعب ٧ ملايين عام ٢٠٢٠، ولهذا بنوا مطارين وعشرات الطرق السريعة تسهيلًا للسائحين والمقيمين والمستثمرين الذين يأتون من كل بقاع الأرض.

باختصار.. استطاع الحكيم «مهاتير» من عام ١٩٨١ إلى عام ٢٠٠٣ أن يحلق ببلده في الآفاق لتتربع على قمة الدول الناهضة التي يشار إليها بالبنان، بعد أن زاد دخل الفرد من ١٠٠ دولار سنويًا في عام ١٩٨١ عندما تسلم الحكم إلى ١٦ ألف دولار سنويًا أخيرًا، وأن يصل الاحتياطي النقدي من ٣ مليارات إلى ٩٨ مليارًا، وأن يصل حجم الصادرات إلى ٢٠٠ مليار دولار.

وفي عام ٢٠٠٣ وبعد ٢١ سنة، قرر بإرادته المنفردة أن يترك الحكم بعدما أدى دوره على أكمل وجه، رغم كل المناشدات، ليستريح تاركًا لمن يخلفه «خريطة طريق» و«خطة عمل» اسمها «عشرين..عشرين» أي شكل ماليزيا عام ٢٠٢٠، إذ ستصبح رابع قوة اقتصادية في آسيا بعد الصين واليابان والهند..

فهل تعي مجتمعاتنا العربية والإسلامية هذه التجربة الواقعية لدولة باتت اليوم رقمًا صعبًا في الساحة العالمية بعدما كانت صفرًا على الهامش قبل عقدين من الزمان، وتعرف أن السر وراء هذا النجاح هو الصدق في الإخلاص؟ والله ولي التوفيق.

لغة وأدب

غاية الأدب

ثـمَّ رؤى متباينة تجـاه ما يناط بـالأدب من رسالة، وما يسعى إليه من هدف، فطائفة ترى أن غايته تربية المجتمعات وتقويمها، وتجنيبها تنكب السبل، وضلال الدروب، مترفعين به عن كونه مجرد وسيلة للتلهي والتسلية، والإمتاع والتسرية، عادِّين ما جاء على هذا النسق قليل الفـائـدة، ضئيل الأثـر، مقطوع العمر، ضيق التأثير.

وطائفة أخرى ترى أن الأدب نابع عن ذات صاحبه، يرتبط نجاحه بصدق تعبيره عما بداخله، أيًّا كان ووفق ما جاء، على أن يلبس ثوبًا حسنًا يناسب ما يعبر عنه، وتنساب ألفاظه، ومن ثم جمله وتراكيبه، بصورة تحرك مكنون النفس، وتداعب مجوش الصدر، فإن هو فعل شُكر سعيُه على سنيع صنيعه، دون النظر لما سوى ذلك.

لكن التساؤل المُلِحَّ الآن، بعد قراءة للرأيين لا تستطيع أن تركن لأحدهما على حساب الآخر، لقوة ما يقدمان من حجة، وتسامي ما يسوقان من دليل، هو: ألا يمكن أن تسير الغايتان معًا دون تضارب المصالح، وتعارض النكات، على حد تعبير أرباب البلاغة؟

وهذا التوفيق الأخير هو ما تطمئن إليه النفس، وبقدره تقاس درجة الجودة وبلوغ الكمال، وهو مع هذا ليس صعب المنال، إن تنزهت وسمت نفس الأديب، وهكذا ينبغي أن تكون.

التحرير

في كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي

نظرات في بلاغة القرآن وبلاغة العرب (٢/١)

د. محمد بن محمد الحجوي

قال الله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا﴾ (الكهف: ١).لقد أجمع الدارسون في مختلف عصور الثقافة الإسلامية، وعلى تباين مذاهبهم في الدرس الأسلوبي أن السبيل لمعرفة أسرار بيان القرآن وإعجازه هو الدراسة العميقة لضروب الأساليب التي قامت عليها بلاغة العرب في شعرهم ونثرهم مع الاستعانة بالوسائل التي تعين على فهم تراكيبه ومعانيه وصوره الفنية.

في مقدمة هذه الوسائل الطبع والذوق والملكة اللغوية التي تجعل الدارس قادرا على التمييز بين أسلوب وأسلوب، وتركيب وتركيب، وصياغة وصياغة، وبهذه الوسائل كان الناس يتفاوتون في إدراك الخفي والدقيق في البيان العربي.

ومن البديهي أن نقول إن تلك الوسائل لا تكتمل للدارس في عصرنا الحديث إلا بتتبع فصيح كلام العرب في أشعارهم وخطبهم، مع الوقوف على ملحوظات العلماء في اللغة والنحو والبلاغة، وفي ضروب المعاني والأساليب التي جعلت العلماء يعجبون بها(١).

وقد تعددت طرق الشعراء والأدباء في اكتساب المهارات اللغوية والفنية، وانعكس هذا التعدد في شعرهم وأدبهم مما جعله يحمل وجوها عديدة من التراكيب الدقيقة، والدلالات الخفية، والصور البديعة.

وهذا التعدد في الخبرات والمهارات يجعل معرفة ما في التراكيب من محاسن ومساوئ يتفاوت بين الأفراد بمقدار ما استوعبوا من معارف في الأدب العربي. ومن هنا نجد لكل ناقد منهجه في كيفية الاهتداء الى وجوه المحاسن والمساوئ في أسرار علوم اللغة العربية وآدابها، فذهبوا مذاهب متعددة في الاجتهاد والاستنباط والتفسير والتأويل والتخريج، إلا أن هذا الاختلاف لا يبلغ حد التناقض الذي يجعل الحسن قبيحا، والقبيح حسنا، وإنما تجلى اختلافهم في تباعد رؤيتهم في تصور المعاني والدلالات والصور الفنية، وتقويم وجوه المحاسن والمساوئ.

على الدارس للأحكام الشرعية وعلوم القرآن أن يبحث في أسرار البيان لإدراك أسرار الإعجاز

وهذا الاختلاف ايضا لا يمنع الدارس في علوم اللغة العربية وآدابها من الاطلاع عليها، والاستفادة من جزئيات اختلافهم من أجل تقويم بيان العرب عامة، وادراك اسرار بلاغة القرآن الكريم واعجازه خاصة، لأن آراء هؤلاء العلماء رغم ما فيها من اختلافات، جاءت بعد دراسة مستفيضة للتراث العربي، ولبيان القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

وإذا كان البحث في أسرار البيان هدفا وغاية لكل من أراد اكتساب المهارة الأدبية والفنية، والقدرة على إبداع الأدب الجيد، ونقده وتحليله، وتمييز جيده من رديئه، فإن الدارس للأحكام الشرعية، ولعلوم القرآن، أولى بالبحث فيها لمعرفة مقاصد الشريعة وأغراضها، وإدراك أسرار الإعجاز، والرد على دعاة الباطل، ومن ذهب مذهب أصحاب الصرفة (٢)، قال الخفاجي: «وأما العلوم الشرعية فالمعجز الدال على نبوة محمد نبينا

أكاديمي مغربي

ﷺ هو القرآن. والخلاف الظاهر فيما به كان معجزا على قولين:

أحدهما، أنه خرق العادة بفصاحته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية.

وليس للذاهب الى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر.

والقول الثاني، إن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف. وأمر القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة الى تحقيق الفصاحة ما هي؟ ليقطع على أنها كانت في مقدورهم من جنس فصاحتهم (٣).

هذه الفكرة تؤكد حاجة الأديب والفقيه الى معرفة أسرار البيان، فالأديب والشاعر والخطيب، وكل من يبدع في جنس الأدب يحتاج إليها، لأن الإبداع الأدبي يقوم على أساس سلامة الأسلوب والمعاني، والقدرة على التصوير الفني البديع. أما الفقيه والمحدث والباحث في علوم الشريعة ومقاصدها فإنه يحتاج إليها لفهم المعاني، وإدراك خصائص الإعجاز، وتقديم الدليل اللغوي والمعنوي في منهج تفسيره واجتهاده وافتائه، لأن تراكيب اللغة العربية عامة ولغة القرآن خاصة، جاءت بالتعبير الحقيقي والمجازي، ومن لم يفهم مجازات اللغة العربية لا يكون قاصرا عن فهم الحقائق فحسب، وإنما يحرف ويغير الدلالة، وهذا هو الأمر المفزع الذي يقع فيه بعض من يتعاطى التفسير وهو جاهل باللغة والمعاني.

والمجاز في اللغة العربية تعبير أصيل تميزت به عن بقية اللغات

الأخرى، قال الخفاجي: «إلا أن لغتنا فيها من الاستعارات والألفاظ الحسنة الموضوعة ما ليس مثله في غيرها من اللغات» (٤).

وهذه الميزة اللغوية والأدبية والفنية في اللغة العربية لا يدرك سرها إلا من عرف طبيعة اللغات الأخرى بدرس خصائصها التركيبية والأسلوبية. لقد كانت الأمم الأخرى ترى المجازات ضربا من العبث اللغوي، لأنهم لم يفهموا ايحاءاتها ورموزها واشاراتها، لكون لغتهم تخلو منها، ذكر الخفاجي أن أحد ملوك الروم سأل عن شعر المتنبي، فأنشد أحدهم قوله:

كأن العيس كانت فوق جفني
مناخات فلما ثرن سالا

فلما فسر له معناه بالرومية استغرب وأخذه العجب، ثم قال: «ما أكذب هذا الرجل! كيف يمكن أن يناخ جمل على عين إنسان»؟ (٥).

إن التعبير المجازي في اللغة العربية اهتدى إليه الأعرابي بعد تجارب طويلة في ميدان الأدب والشعر كي يتخلص من قيود بيئة عانى من جدبها وشظفها وقساوتها، فلم يكن يجد وسيلة للترويح عن نفسه إلا بالخيال، يسبح في عوالمه ليعانق قمرا، أو يصافح أسدا، أو يحادث زهرة، أو يسامر نجما، بل يتحول بواسطة المجاز إلى أسد شاكي السلاح، وفارس يقهر أعداءه، ويرد غارة المغيرين وكيد الكائدين، وإلى بحر يجود بكل ما يملك على المتعففين وذوي الحاجات في زمن الشدة، والى سيد فخور بنفسه، يتعالى على الملوك وأصحاب العروش.

وبالمجاز حاور الانسان العربي الجماد، وشكا إليه حزنه وتقاسم معه أفراحه، وأضفى عليه صفة القدرة والارادة، ان العربي الذي نشأ في بيئة الفصاحة والبيان لم يجد غموضا في مجازات القرآن، لأنها في شعره ولغته وخياله، وهي جزء من علاقاته الاجتماعية والإنسانية.

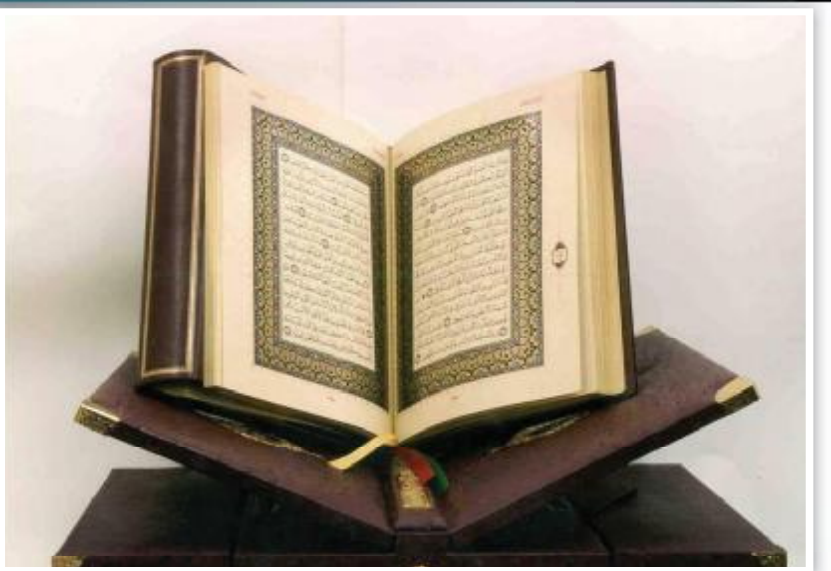

وابن سنان الخفاجي من الأعلام الذين درسوا هذه الخصائص في البيان العربي وفي القرآن الكريم، ولذلك فإن الوقوف على آرائه يبرز جزءا كبيرا من عبقرية اللغة العربية، وإعجاز القرآن، وللتعرف على هذه الخصائص بدقة ينبغي الإشارة إلى خصائص الألفاظ المفردة والمركبة في مباحثه.

فصاحة الألفاظ المفردة

إن رصد وجوه الفصاحة في الألفاظ المفردة عند الخفاجي لا يتم بمراعاة الجوانب التي تركز على تلاؤم حروفها، وعلاقتها بجهاز النطق والسمع فقط، وإنما بجوانب أخرى منها النظر في سلامة مخارج حروف اللفظة من الحلق والشفة، ومدى تأثيرها الموسيقي على جهاز السمع، وارتباطها بالعرف العربي سليقة وملكة، وما يوجد فيها من خصائص الطبع والذوق والبعد عن الغريب والحوشي والمبتذل والشاذ.

وحينما نستعرض ألفاظ القرآن الكريم بالإشارة الى ما ذكره البلاغيون

خصائص حروف القرآن في انتظامها مع الجهاز الصوتي أعطتها شأنا عجيبا في التركيب والفصاحة

من الوجوه الملائمة للفصاحة والبيان نجدها جمعت كل المحاسن، وخلت من كل العيوب التي تشين تركيب حروفها واستواء ألفاظها. فحروف كتاب الله تألفت تأليفا بديعا متناسقا جعل مخارجها مستوية ومنتظمة مع الجهاز الصوتي همسا وجهرا، وشدة ورخاوة، وتفخيما وترقيقا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا﴾ (الكهف: ١).

هذه الخصائص المتميزة والبديعة في حروف ألفاظ القرآن أعطتها شأنا عجيبا في التركيب والفصاحة والبيان، فكانت الآيات البينات تنزل بردا وسلاما على الأسماع، وتجد طريقها الى القلوب الواعية التي هداها الله الى هذا الكلام الطيب، فتحدث فيها أثرا بليغا يفوق ما يحدثه الماء في التربة الكريمة. وأعداء الإسلام برغم رفضهم لرسالة النور واليقين فإنهم كانوا يقفون متعجبين من نمط أسلوب القرآن، وكان منهم من يأتي مستترا في الليل ليستمع الى الآيات البينات التي كان يتلوها الرسول ﷺ وأصحابه، رضوان الله عليهم، ولم يستطيعوا تصنيفه فيما كان متداولا عندهم من أنماط التعبير قصيدا كان أو رجزا أو خطابة أو سجعا، ولهذا عبروا عن إعجابهم ببيانه بقولهم: «والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة» (٦).

وكما تميزت حروف كتاب الله بسلامة الوضع والمخرج تميزت ألفاظه كذلك بهذه الخاصية البديعة للدلالة عن الشيء كما هو في عرف اللغة دون لبس أو غموض او اشتراك او اشتكال يفسد المعنى، لأن القرآن كتاب شريعة سماوية وضع للناس القوانين والأحكام التي تخص أحوالهم في العبادات، وضروب المعاملات والسلوك والعلاقات الاجتماعية والخلقية والسياسية والاقتصادية.

ومن طبيعة التعبير الذي ينظم العلاقات الإنسانية أن يكون واضحا لا لبس ولا غموض في تركيبه ودلالته، ومن هنا كانت ألفاظ كتاب الله وتعابيره مادة تشريعية يعتمد عليها الفقهاء لوضع أصول الفقه وأحكام الشريعة للبث في النوازل التي تحدث في المجتمع، وكذلك تعد مادة لغوية لتصحيح التعابير والنظر في مدى ملاءمتها لسلامة البيان.

وهذا الشاعر أبوتمام كان فحلا

من فحول الشعراء المحدثين وأعلمهم بفصاحة العربية وطرق البيان غابت عنه أشياء كثيرة في دقة التعبير مثل قوله:

حلت محل البكر من معطى وقد
زفت من المعطي زفاف الأيم

لقد لجأ اللغويون إلى تصحيح الخطأ في البيت الشعري من كتاب الله الذي جاء سليما في وضعه اللغوي والتركيبي، واللفظة التي وقع فيها الخطأ في بيت الشاعر هي لفظة «الأيم» التي وضعت موضع «الثيب»، وهي ليست كذلك في الكلام الفصيح البليغ، لأن «الأيم» هي التي لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا، قال تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ (النور: ٣٢).

ليس المراد في الآية الكريمة نكاح الثيبات من النساء دون الأبكار وإنما أريد النساء اللواتي لا زوج لهن (٧).

وظل التعبير القرآني في مختلف عصور الثقافة والفكر مادة لغوية يجد فيها العلماء والفقهاء التركيب السليم الذي يؤدي المعنى دون غموض أو إشكال، كما وجدوا فيه سمة الأسلوب الذي يتجنب التعبير بألفاظ يكره ذكرها، ويعد القرآن نموذجا لهذا الضرب من الأساليب، إذ لم يجد فيه الباحثون لفظة واحدة تؤذي السمع، أو تجعل الإنسان يخجل وهو يتلفظ بها أمام الناس. ومن هذا الضرب من الألفاظ ما نجده في الآيات البينات التي وردت عن طريق الكناية للتعبير عن معان قد يجد فيها الإنسان حرجا إذا عبر عنها بلفظ الحقيقة كقوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ (البقرة: ١٨٧)، والرفث هو مقدمة الجماع من تقبيل وغيره، وقد تجنب القرآن التعبير عن الجماع بالعبارة الصريحة كي يظل التعبير في قدسيته الربانية.

وقوله تعالى: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ (المائدة: ٧٧)، إن الكناية عن قضاء الإنسان حاجته بالأكل تعبير في غاية السمو والروعة، لأن الكائن الحي النشط يحتاج إلى طعام وشراب وهواء، ويحتاج كذلك الى التخلص من الزوائد والفضلات في جسمه لكي يستمر في الحياة، ويؤدي وظائفه الضرورية.

وقوله تعالى: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ (النساء: ٤٣)، والغائط كالوادي يحجب الأشياء، وذكره هنا تعبير عن قضاء الحاجة في الخلوة والستر.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ (النساء: ٤٣)، إن الكناية عن الأعضاء التناسلية بالجلود من الأشياء التي يستحب ذكرها دون خجل.

وقوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ (فصلت: ٢٠)، الملامسة هنا كناية عن الجماع، وفيها الكثير من رقة التعبير وعذوبته، لأن لفظ اللمس فيه دعوة إلى العلاقة الطيبة بين الرجل والمرأة.

الهوامش

١- مما يبين أن وجوه الفصاحة والبلاغة لم تكن تكتسب بسهولة عند الشعراء والخطباء والنقاد أن المتميزين منهم خاصة كانوا يقضون سنوات طويلة في التحصيل والنظر الدقيق في كلام العرب لعلهم يهتدون إلى معنى خفي، أو تركيب دقيق، أو أسلوب بليغ، وبرغم هذا التأني في النظر فقد كانت تغيب عنهم أسرار من التراكيب الدقيقة. وهذان العالمان أبو عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر كانا من أعلم الناس في زمانهما باللغة وأشعار العرب، ومع ذلك غاب عنهما سر من أسرار البيان العربي في قول بشار:

بكرا صاحبي قبل الهجير
إن ذاك النجاح في التبكير

فقد قالا له: لم لا تقول: بكرا فالنجاح في التبكير؟ فقال لهما: إنما قلتها عربية أعرابية. وحينما تأملا وجه التركيب قاما وقبلا بين عينيه إعجابا ببيانه، وقدرة تمكنه وعلمه بأسرار التركيب العربي البليغ.

وبلاغة مثل هذا التركيب هي التي جاءت في البيان القرآني قال الله تعالى: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ (هود: ٣٧).

وقوله عز من قائل: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ (الحج: ١).

٢- كان أول من نادى بهذا الرأي واصل بن عطاء، ثم تبعه تلميذه إبراهيم بن سيار النظام، وهما من فرقة المعتزلة التي دعت الى استعمال العقل في كل شيء، وعدم التقيد بظواهر النص القرآني، لكن فئة منهم لم تعتد بهذا المذهب، ومنهم أديب العربية الأكبر الجاحظ الذي كان صاحب فرقة في الاعتزال سميت الجاحظية، فقد ألف هذا الأديب كتابا في نظم القرآن واسلوبه رد فيه على الطاعنين في بيانه، وأظهر أن القرآن معجز بنظمه وأسلوبه، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه، وأن العرب عجزوا فعلا عن مجاراة آياته، لأنهم رأوها فوق قدرتهم اللغوية والبيانية.

٣- سر الفصاحة: ٣-٤.

٤- المصدر نفسه: ٤٩.

هذا الرأي ليس مقصورا على القدماء، وإنما توصل إليه الباحثون في فلسفة اللغات وتطورها في عصرنا الحديث، ومنهم الباحث عباس محمود العقاد الذي أكد هذه الظاهرة المتميزة في اللغة العربية بقوله: «وليس في اللغات التي نعرفها أو نعرف شيئا كافيا عن أدبها لغة واحدة توصف بأنها لغة شاعرة غير لغة الضاد، أو لغة الإعراب أو اللغة العربية» (اللغة الشاعرة: ٧).

٥- سر الفصاحة: ٤٩.

٦- السيرة: ٢٨٩/١.

٧- سر الفصاحة: ٧٠.

خصائص اللغة العربية وخلودها (٢/١)

محمد مصطفى ناصيف

اللغة ظاهرة خاصة لأنها منطوق دال ذو مظهر حسي يكتنف أفكارا ومشاعر واستخدامات وإشارات قوامها البنية المحسة والمعنى والمفهوم. وهي من أقدم وسائل الاتصال، وكذلك هي عبارة عن أصوات مركبة ذات مقاطع تتألف من كلمات وجمل ذات دلالة وضعية يعبر بها الانسان تعبيرا مقصودا عما يجول بخاطره من معان، ويتفاهم بها مع أبناء جنسه، وقد اختص الإنسان من بين الفصائل الحيوانية جميعها بظاهرة اللغة.

كما أن اللغة مجموعة من النظم أنتجها المجتمع والتزم بها على مر العصور، لأنها حقيقة اجتماعية.

واللغة كما يعرّفها ذوّاق العربية ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) بأنها: «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم» فهي النطق يعبّر عن فكر، ووسيلة تخاطب جماعية، وأداة للاتصال والتواصل، كما أنها وسيلة للتعبير عن العواطف والمشاعر والرغبات.

وهي تعني: الشخصية العربية، والهوية القومية فضلاً عن كونها مستودع القيم والتجارب والعلوم التي انتقلت إلينا من أسلافنا وهي مختزن ثقافة الآباء والأجداد، وقبلها جميعًا أنها لغة ديننا الحنيف وقرآننا الكريم الخالد.

واللغة هي الكلام، ولها صورتان:

الصورة الصوتية: وهي الكلام المنطوق.

الصورة المكتوبة: وهي الكلام المرسوم.

كما أن الكلام دلالة عن عبارات أو جمل تؤدي معنى معينا ومفيدا على الأقل، وكل جملة تتكون من كلمات، وكل كلمة تتكون من أصوات، أو وحدات صوتية، وهي التي يعبر عنها بما يسمى «الحروف الهجائية في كل اللغات.

أسواق العرب التجارية قديما كانت أشبه ما تكون بمعارض للكلمة كمعارض الكتاب حاليا

والكلمات كالاحياء لها مولد وحياة وموت وتبدل وتحول وتطور من معنى إلى آخر واكتساب معنى جديد.

وكذلك فإن الحرف يدل على صوت معين، أو وحدة صوتية، وتظهر الاصوات عن طريق الفراغ الفمي، ويشترك في إصدارها مخارج كثيرة منها:

الجوف والحلق واللسان والشفة، وكل مخرج من هذه المخارج معدٌّ للوظيفة التي يؤديها، وتتشكل جميع اللغات العالمية من حرف، وكلمة، وجملة.. إلا اللغة العربية فإنها تمتاز عن باقي لغات العالم قاطبة بإضافة الصوت والمعنى، وهاتان الصفتان افتقدتهما لغات العالم كافة سواها.

ومن خصائص اللغة العربية وميزاتها الفريدة أنها لغة اشتقاق، وأن مشتقاتها المتعددة تعود في أصولها إلى جذر لغوي تتفرع عنه فروع عدة، استطاع العلماء بها تتبع رحلة المعاني والدلالات الواسعة بين العديد من المفردات، وأن يجتهدوا فيما تستفهم به المصادر والمعجمات.

وقبل الإسلام عاشت اللغة العربية ردحًا طويلًا من الزمن في بيئات منفصلة جغرافيا، بحكم إقامة أهلها في مواقع موغلة في قلب الصحراء، فكانت تصدر عنهم جافة، قاسية، صلبة، مفخّمة الألفاظ والنبرات، تلفّها ملامح تلك الحياة الصحراوية القاسية المنعزلة، تمثلت بذلك كل ما يختلج في صدر ذلك الإنسان، وقديمًا قيل: «الإنسان ابن بيئته». وهذه من خصوصيات اللغة.

وقد تواضع العرب على أسواق عامة يحملون إليها تجارتهم وآدابهم وسيرهم القبلية والذاتية، ومن أشهر أسواقهم: عكاظ والمجنّة والمربد، والتي كانت معارض للكلمة لديهم، كمعرض الكتاب هذه الأيام، وأهمها أثرًا في اللغة «سوق عكاظ» حيث كان لهذه السوق العظيمة تأثير كبير في تهذيب اللغة العربية في «قبيلة قريش» التي كان لقرب السوق منها أسبق القبائل لالتقاط كل معنى حسن، ولفظ جزل وعبارة بليغة، كما تجاوزت تلك الأسواق حدود التجارة إذ كانت ميدانًا رحبا لجميع الأغراض والشؤون الاجتماعية، فكانت سوق عكاظ، مثلا، مسرحًا عامًا يخطب فيها كل خطيب مصقع، ويلقي فيها كل شاعر

عضو رابطة الأدب الإسلامي

مميز متفرد، حيث كان الشعر ديوانهم، وكان رواد هذه السوق يعودون إلى أماكن إقامتهم ببضائع ابتضعوها ومشاهدات دفعتهم إلى محاكاتها أثناء رحلاتهم، من ألفاظ لغوية، ومصطلحات وأساليب طبعت العربية بطابع المرونة والحياة فجاء على ألسنتهم ما ترقّى من الألفاظ، وتأهل للدخول إلى حضرة اللغة الرسمية الجميلة في أدائها وألفاظها، الغنّية بكلماتها ومفرداتها وتراكيبها، العميقة في مدلولاتها ومعانيها، المرنة في صياغتها واشتقاقها، الأنيقة في رسمها وأشكالها، هذا وقد كان للعرب في زمن الجاهلية لهجات وطرق في النطق تختلف بين قبيلة وأخرى ويسمونها لغات فيقولون مثلًا: لغة قريَش، ولغة هذيل، ولغة تميم.

وقد كان لسان رسول البشرية ومعلمها الخير ﷺ هو العربية، والعربية لغة، ولهجة قريش من أهل مكة المكرمة خاصة، لذا فالراجح أن يكون القرآن قد أنزل بلسان قريش، وفي قوله تعالى بكتابه الخالد: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه...﴾ (إبراهيم: ٤) ما يؤيد هذا الترجيح ويؤكده، وكذلك جاء في مسند أبي داود أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عبدالله بن مسعود وهو في الكوفة: «أما بعد: فإن الله أنزل القرآن بلغة قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل» وأفصح الناس قريش لأنهم قوم ارتفعوا عن رتة أهل العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر، وتيامنوا عن شنشنة تغلب، ليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير لخلو لغتهم مما ذكر، ولقريش درج تنزلق عنها أقدام الرجال وأفعال تخضع لها رقاب الأموال، وألسنة تكل عنها الشفار المشحوذة.

كما كان للقبائل الأخرى لغاتها (لهجاتها) ومن الطبيعي أن يوجد «تباين لغوي في أمور معينة بين تلك اللهجات، وهو تباين لا يطغى على وجوه الاتفاق والتقارب بين اللهجات العربية، ولا يحول دون تفاهم أفراد تلك القبائل» (في اللهجات العربية ص١٦ للدكتور ابراهيم أنيس) فأراد الله- برحمته ولطفه- أن يجعل متسعًا في اللغات، ومتصرفًا في الحركات. (تأويل مشكل إعراب القرآن ص ٢٨).

وفيما يلي توضيح لبعض اللهجات العربية ومسمّياتها:

الاستنطاء: وهي لهجة أهل اليمن، تقوم على إبدال العين الساكنة نونًا إذا جاورت الطاء، فمثلًا: «أعطى» يلفظونها: «أنطى».

الإمالة: وهي لهجة قبيلتين من قبائل العرب:

الأولى: لهجة قبيلة «تغلب» حيث يبدلون الألف واوًا، فمثلًا كلمة «باب» تصبح عندهم «بوب»، ولهذا السبب عرفنا سبب كتابة كلمتين هما:

«الصلاة والزكاة» في المصحف العثماني بالواو: «الصلوة والزكوة»

والثانية لهجة قبيلة «تميم» حيث يبدلون الألف ياءً، ففي قوله تعالى: «والضحى والليل إذا سجى» يقرأونها: ﴿والضحي. والليل إذا سجي﴾.

التسكين: وهي لهجة قبيلة «ربيعة».

تقوم هذه اللهجة على تسكين آخر كلمة في الجملة، ففي قولنا: «كتبت خطابا» ينطقونها: «كتبتْ خطابْ» وهذا مصداق قول علماءاللغة:

«العرب لا تبدأ بساكن، ولا تقف على متحرّك، ولا تجمع بين ساكنين».

التسهيل: لهجة أهل الحجاز.

تقوم هذه اللهجة على تغيير الهمزة بحرف يناسب الحرف الذي قبله، فكلمة «فأس» يلفظونها «فاس».

وكلمة «بئر» يلفظونها «بير»، وكلمة «رؤوس» يلفظونها «روس».

الحذف: وهي لهجة قبيلتين من قبائل اليمن، وهما: قبيلة خثعم، وقبيلة زبيد.

تقوم هذه اللهجة على حذف نون «مِنْ» إذا وليها ساكن، مثل:«خرجت من المَسجد. يلفظونها: خرجت ملمسجد. وكلمة «بيضاء» تصبح: «بيضا» . وكلمة «حمراء» تصبح: «حمرا» وكلمة «السماء» تصبح «السما».

أما قبيلة بلحارث فتقوم على حذف الألف واللام من بعد «على» الجارّة.

مثل: ركبتُ على الحصان. يلفظونها : ركبت علحصان.

الشنشنة: وهي لهجة اليمن.

تقوم هذه اللهجة على قلب الكاف مطلقًا إلى شين، فمثلًا: «لبيك اللهم» تصبح: «لبيش اللهم».

الطمطمانية: وهي لهجة قبائل الأزد وحِميَرَ ويافع.

تقوم هذه اللهجة على إبدال لام التعريف ميمًا. مثل: «الهواء» تصبح : « أمْهواء». وكلمة «الجو» تصبح «أمْجوّ» وكذلك إجابته ﷺ لسائل من أصحاب هذه اللغة: «ليسَ من امبّر امصيام في امسفر» أي «ليس من البرّ الصيام في السفر».

العجعجة: وهي لهجة قبائل قضاعة، وبعض قبائل حضرموت، وبعض قبائل بادية الحجاز.

تقوم هذه اللهجة على قلب الياء جيمًا، فمثلًا كلمة «الراعي» تصبح: «الراعج».

العنعنة: وهي لهجة قبائل: كلاب وهذيل وتميم وقضاعة.

تقوم هذه اللهجة على تحويل همزة «أن» إلى عين. فمثلاً قولنا: قد علمتُ أنّي تصبح: قد علمتُ عني.

الفحفحة: وهي لهجة قبيلة «هذيل».

تقوم هذه اللهجة على قلب الحاء عينًا مثل «حتّى» تصبح: «عتّى».

القلب: وهي لهجة قبيلة مازن.

تقوم هذه اللهجة على قلب الحرف إلى حرف آخر، مثل: «برطعَ الولد» أصلها: «سَرْطَعَ». «وبعزقَ» أصلها: «بَعْثَق» و«جَرَمَ اللحم» أصلها: «جَلَمَ».

الكسكسة: وهي لهجة قبيلة بكر وقبيلة ربيعة وقبيلة تميم.

تقوم هذه اللهجة على جعل السين مكان كاف المخاطب، فمثلًا: «أبوك وأمك» تصبح: «أبوسَ وأمّسَ».

الكشكشة: وهيَ لهجة قبيلة سعد وسكان حضرموت وتميم.

تقوم هذه اللهجة على تبديل كاف الخطاب شينًا، ففي قولنا: «أكرمتك وعليك» تصبح: أكرمتُش وعليش.

اللخلخانية: وهي لهجة أعراب الشّحْر وعُمان.

تقوم هذه اللهجة على اختصار الهمزة كقولهم: «ما شاء الله». تصبح: مشا الله.

الوتم: وهي لهجة قبيلة حِمَير.

تقوم هذه اللهجة على إبدال السين تاء، مثل: الناس بالناس. تصبح: النات بالنات.

وهذا من فضل رسول البشرية ومعلمها الخير محمد ﷺ في الارتقاء حضاريا بمستوى العرب بعد عصور الظلام في أوروبا وعهود الجهل في الجزيرة العربية من العمق وبُعدِ الأثر لا يحصره زمان أو يحدّه مكان، عاشته أمة الإسلام ومازالت وسيظل خالدًا باقيًا.

قال الشاعر في وصفه «ﷺ»:

بليغ علم الدنيا بوحي ولم يقرأ
بلوح أو دواة

قال عنه الباحث قسطاكي حمصي- من أدباء نصارى حلب- (١٨٥٨م-١٩٤١م):

«كان سيد قريش نبيّ المسلمين ومؤسس دينهم، وهو أيضًا نبيّ العرب ومؤسس حياتهم، وجامعتهم القومية، وإنه من الحمق والمكابرة أن ننكر ما لسيد قريش من بعيد الأثر في توحيد اللهجات العربية، وقتل العصبيات الفرعية في نفوس القبائل».

هي أم اللغات لا يذكر الدهر
صباها وما تزال كعابا

آفاق جديدة للغة العـــــ

فوزي تاج الدين

تتغير كثير من المفاهيم مع تغير المعرفة، فالخريطة لم تعد حسبما يشير الرسم إلى الأرض فقط وخطوط الطول ودوائر العرض، كذلك الحال بالنسبة للمدركات الشخصية المحدودة- طبقًا لمفهوم الخريطة- فتلك المدركات تتعدى حدود الأرقام والأشكال، لتصل إلى آفاق جديدة، لم يكن الوصول إليها بالشيء اليسير، ولكن هذا ما تحقق بالفعل بعد ظهور ما يعرف بالبرمجة اللغوية العصبية.. وهي ليست قاصرة على لغة بذاتها، بل اللغة بشكل عام.

تتضح الفكرة عزيزي القارئ حينما تشير إلى أن اللغة العربية بوجه خاص جذبت اهتمام بعض المفكرين والكتاب العالميين في مقدمتهم «صموئيل هنتجتون» صاحب الكتاب الشهير «صراع الحضارات» والذي أشار من خلاله إلى أن عدد المتكلمين باللغة العربية يزيد بينما يقل عدد المتكلمين باللغة الأجنبية- خاصة الإنجليزية- وعلل ذلك بعودة بعض الدول إلى استخدام الحرف العربي مثل دور جمعيات الاتحاد السوفيتي السابق.. وكذلك ما ذكره كل من «وليم باسكوم» و«ملفيل هيرسكوفتز» في كتابهما «الثقافة الإفريقية» الذي عقد مقارنة بين أثر كل من اللغة العربية، والأوروبيين في الحياة اللغوية الإفريقية، حيث أكد أن اللغة العربية أثرت بشكل كبير في

باحث لغوي

ـــــــربية داخل الوطن وخارجه

الحياة اللغوية الإفريقية بشكل فاق أثر الأوروبيين.

إلى جانب هذا هناك بعض الكتب التي تحدثت عن اللغة بوجه عام.. وأشير هنا إلى ما جاء في كتابين

أولهما: «المساومة عبر الحدود» لكل من «فوستر» و «دين آلين»، وثانيهما: «البرمجة اللغوية العصبية في ٢١ يومًا» لكل من «هاري ألور» و «بريل هيوز».

أشار الكتاب الأول إلى حقيقة مؤداها أنه عندما تتحدث إلى أجنبي يعرف لغتك يجب مراعاة التحدث بلغة بسيطة وببطء، واستخدام كلمات وعبارات قصيرة واضحة، سهلة شائعة ومباشرة، بل وكلمات قصيرة المقاطع، واستخدام الحركة والإيماءة مكان الكلمات ما أمكن، وتجنب استخدام الألفاظ ذات الشكل البلاغي أو ذات اللهجة المحلية الدارجة، وأشار الكتاب الثاني الذي يعد بمثابة المنهج الفعال في عملية التواصل مع الآخرين وتطور الذات، حيث يرتكز الكتاب على أحدث ما وصل إليه العلم من مهارات في مختلف علوم الاتصال، وأفضل السبل العلمية والعملية لتغيير طريقة التفكير، ولكون هذا المنهج يعتمد على كل من علوم اللغة وعلم النفس يعد منهجًا أكاديميًا أصيلًا، وتمتد تطبيقاته إلى عدة مجالات (العلاج النفسي- التعليم والتدريب- الرياضة- التنمية الشخصية- إدارة الموارد البشرية- العلاقات مع الغير).

والسؤال الذي نطرحه هنا: كيف نستفيد من هذا المنهج في خدمة لغتنا القومية سواء على المستوى القومي أو العالمي؟

هناك الكثير من المصطلحات والمفاهيم التي تضمنها هذا المنهج نستطيع الإفادة منها مثلما أوضح أستاذ اللغة العربية بجامعة المنصورة د.أحمد مصطفى أبوالخير، ومن أمثلة تلك المصطلحات والمفاهيم: الخريطة ليست الأرض، الصندوق الأسود، التناسق والتواؤم، فأما مصطلح الخريطة ليست الأرض، فحاجتنا شديدة إلى إعادة النظر في الخريطة اللغوية العربية، وهي خريطة رديئة تشير إلى صعوبة تعلم الفصحى، والصراع الدائر بينها وبين العامية!، وعدم وجود ربط بين قواعدها، ورغم هذا وتطبيقا لمنهج البرمجة اللغوية العصبية لابد من الاعتراف بأن صورة تلك الخريطة ليست دليلًا على صحتها، ومن ثم حتمية تغيير نظرتنا إليها وتعديلها في ضوء الإحساس بقيمة اللغة العربية.

أما عن الصندوق الأسود: فهو صندوق الأسرار الذي يحتفظ به كل إنسان لا يبوح بشيء منه بسهولة، وهكذا لغتنا العربية لديها الكثير من الأسرار الذي يحتفظ به كل إنسان بعد البحث والغوص، وفي هذا السياق هناك ما لا يحصى من قواعد اللغة العربية التي نراها في خريطة غير متناسقة وغير مفهومة إذا أمعنا النظر فيها قليلًا وجدناها منطقية، فالفعل «ظن» قد ينصب مفعولًا واحدًا في «كسر الزجاج فظننا الغلام»، في حين ينصب مفعولين في «ظننت الجو حارًا»، في الجملة الأولى ظن بمعنى «اتهم» ولا يناسب إلا مفعولًا واحدًا في حين يتسع الظن لمفعولين.

وأما عن التناسق والتواؤم: بداية نقول إن التناسق يكون مع الذات والقيم والمبادئ، أما التواؤم فيكون مع الآخرين رغم اختلافهم عنا، لا يستطيع الإنسان أن ينجح في حياته دون التوازن بين أمرين: التناسق مع الذات والتواؤم مع الآخرين، فإذا ما طبقنا هذا على اللغة العربية فإنه يجب علينا أن نلزم أبناءنا بتعلم لغة الأم أولًا حتى يتناسق العقل مع الذات، فإذا ما تم له تعلم لغته، يستطيع تعلم ما يشاء من اللغات الأجنبية حتى يتواءم مع الآخرين.

هذا عن مجال رعاية لغتنا داخل الوطن، لكن ماذا عن لغتنا خارج الوطن أي تعليمها لغير العرب، هناك أمران: أولهما التواصل غير اللفظي، وثانيهما التركيب اللغوي البسيط.

ففيما يتعلق بالتواصل غير اللفظي نجد أن الكلمات لا تمثل أكثر من ٧ ٪ من الرسائل بين طرفي الاتصال- عندما يكون الاتصال وجها لوجه- وهنا يمكن التعامل مع المبتدئين في تعلم العربية من خلال استخدام الإشارة، وفي هذا تنوع من التواصل غير اللفظي لتسيير عملية الشرح والفهم لدرس أعضاء الجسم، أما عن التركيب اللغوي البسيط: فيناسبه ضرورة الابتعاد عن استخدام المجهول والركون إلى الجملة الفعلية خصوصا أفعال الحركة المحددة الواضحة.

فتلاحظ الفرق بين الأمثلة التالية «كُتبت الرسالة- الولد مُسافر- قُطعت الورقة» وبين «كتب الطالب الرسالة- سافر الولد- قطع الولد الورقة»، إن غياب الفعل أو جهالته يزيد الجملة غموضًا وكذا الجملة الاسمية والأفعال غير المحددة، فإذا كان تبسيط اللغة أمرًا مهمًا في التواصل العادي بين أصحاب اللغة فإنه ألزم وأهم في تعليم اللغة لغير أصحابها.

الشاعر محمد عاكف.. حين يوظف الشعر لخدمة قضايا الأمة

علاء فاروق

نظمت جامعة القاهرة مؤخراً احتفالية كبرى للاحتفاء بشاعر القومية التركية محمد عاكف أرصوي، والتي جاءت تحت عنوان «محمد عاكف أرصوي.. جسر لتعزيز الصداقة التركية المصرية»، وذلك بمشاركة لفيف من المفكرين والإعلاميين من تركيا والدول العربية وآسيا الوسطى، على رأسهم أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي د.أكمل الدين إحسان أوغلو، والسفير حسني عوني سفير تركيا في مصر.

أكد الحضور أن الشاعر الكبير كان همزة وصل بين الثقافتين المصرية والتركية، حيث أقام الشاعر أرصوي في مصر في السنوات الأخيرة من عمره وعاش في حلوان وقام بتدريس اللغة التركية في جامعة القاهرة.

الشعر وقضايا الأمة

في البداية، أكد أوغلو حرصه على المشاركة في هذه الاحتفالية الكبرى، مشيرا إلى أن أرصوي كان رمزا لكل تركيا، وهو صاحب النشيد القومي التركي، وقال: إن عاكف لم يكن «شاعر الوطنية التركية» بل هو شاعر «الوحدة الإسلامية».

وذكر أوغلو أن الشاعر الإسلامي محمد عاكف هو نموذج شعري رائع وهب حياته للإسلام والوحدة الإسلامية، فكان جديرا بأن يلقبه الشعراء بشاعر الإسلام تشبيها بزميله محمد إقبال.

وأوضح أوغلو أن عاكف وظف شعره في الدفاع عن قضايا الأمة ومعايشة معاناتها؛ مؤمنا أن للشعر دورا كبيرا في خدمة القضايا السياسية، مضيفا أن عاكف كان يعتز بذلك، وأنه كان يعتبر نفسه مجاهدا بقلمه، وظهر ذلك جليا في شعره وكتاباته؛ حيث إن معظم قصائده تنادي بالدفاع عن القومية التركية وعن كافة الحقوق في كل مكان بعيدا عن العنصرية.

واستشهد الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي ببعض كلمات عاكف التي توضح حرصه على الوحدة والتي تؤكد أيضا انخراطه في العملية السياسية بقلمه، ومنها قوله: «من الجدير بك أن تعتز بقومية الإسلام. وقوله أيضا: الأتراك لا يستطيعون العيش من دون العرب ومن يدعي غير ذلك فهو مجنون، أما الترك فهم ساعد العرب الأيمن، فتكاتفوا وإلا فهو الخسران المبين، وعندئذ لا يبقى في الأرض دين».

ثم عقد أوغلو مقارنة مختصرة بين شاعري الإسلام محمد إقبال ومحمد عاكف موضحا أن هناك تشابها كبيرا بين الشاعرين، فكلاهما عاشق للإسلام ووحدة المسلمين، وأنهما لم يختلفا إلا في طريقة شعرهما، فعاكف في حداد مستمر طوال قصائده يستعرض فيها الكوارث النازلة على العالم الإسلامي عامة وعلى بلاده تركيا خاصة، أما إقبال فكانت فلسفته بناءة تنصب على الذات، ودعا إلى ضرورة عودة كل إنسان إلى ذاته يقويها ويدعمها وينفي عنها الخوف والضعف.

وأكد اوغلو في نهاية كلمته أن الشاعر التركي محمد عاكف أرصوي كان مميزا جدا في توظيف الشعر في خدمة قضايا بلاده السياسية، وظهر ذلك في النشيد الوطني الذي ألفه الشاعر وقدمه إلى بلاده، ومازال يصدح في أركان تركيا ليؤكد وجود الشاعر في أخص خصوصيات السياسة.

الإسلام.. جسر تواصل

وأكد رئيس جامعة القاهرة د.حسام كامل عمق العلاقات بين الشعبين المصري والتركي، وقال: إن الإسلام أسهم في تحقيق التقارب بين الشعب التركي والشعوب الإسلامية، وخاصة مصر وصولا إلى عهد محمد علي الذي شهد التاريخ أنه أحد بناة مصر الحديثة، مشيرا إلى أنه بعد ما يقرب من ١٠٠٠عام منذ عهد بن طولون اندمجت العائلات المصرية والتركية.

وأضاف كامل أن الشاعر التركي الكبير محمد عاكف أرصوي عاش ١١سنة في مصر، وأثرى الحياة الأدبية، موضحا أن جامعة القاهرة قد كرمته وأطلقت اسمه على إحدى قاعات كلية الآداب.

وقال عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة د.زين العابدين محمود: تركيا دولة يمتزج فيها النسيج الاجتماعي التركي بالنسيج الاجتماعي المصري، وأما شاعرها ارصوي فقد كان أحد أساتذة جامعة القاهرة لمدة ١٢ عاما، وكان له الفضل في نقل وتعليم اللغة والثقافة التركية للدارسين المصريين.

وتحدث المستشار الأول للسفارة التركية سعدي التتوك عن مجال جديد للدبلوماسية الحديثة، وهو المجال الثقافي الأدبي، موضحا أن الأدب يعد جسرا للتواصل بين الشعوب، خاصة بين مصر وتركيا، لأن تواصلهما يمتد لمئات السنين، وأضاف: أما شاعرنا أرصوي، فهو يحمل الروح التي تعبر عن الاستقلال في فترة صعبة من تاريخ تركيا، كان عاكف ينادي فيها بالأخذ عن الغرب مع التمسك بالقيم الإسلامية، وكان في الوقت نفسه، وخلال السنوات التي قضاها في مصر، يعبر عن

صحفي مصري

روح الشاعر المحب للعالم الإسلامي بأسره.

قصة النشيد الوطني

ويذكر أستاذ اللغة التركية بجامعة القاهرة د.شوقي حسن قصة اختيار عاكف لكتابة النشيد الوطني، حيث أعلنت وزارة المعارف العمومية في تركيا عن مسابقة لتأليف نشيد قومي في أثناء حرب الاستقلال ضد الإمبريالية الأوروبية، وخصصت جائزة ضخمة وتقدم إليها ٧٠٠ شاعر لم يجدوا في أشعارهم ما يجسد أحلام الأمة، فطلب الوزير من عاكف تأليف النشيد واشترط عاكف ألا يحصل على مقابل، في وقت لا يملك فيه شراء معطف يقيه برد الشتاء القارس.

ويتابع د.شوقي: وقد حاول ضعاف النفوس النيل من النشيد بتوجيه نقد لاذع للشاعر الذي استقدم كلمات كالأذان في نشيد دولة دستورها علماني، إلا أن الشاعر أشار إلى أن الأذان محبب ككلمة للشعب التركي المسلم، كما أنه ليس عدوا للحضارة ولكنه عدو للاستعمار الغربي الذي يتربص بالإسلام والمسلمين.

محمد عاكف في سطور

- ولد في اسطنبول عام ١٢٩٠هـ - ١٨٧٢م.
- حفظ القرآن الكريم قبل العاشرة من عمره على يد شيخ من شيوخ جامع الفاتح في اسطنبول.
- تخرج في مدرسة الطب البيطري.
- كان يتلقى دروسا في اللغة العربية والفارسية في الرشدية والمدرسة المُلكية فأتقنهما أيما إتقان.
- كان مولعا بالرياضة البدنية كالمصارعة والتجديف وحمل الأثقال.
- توفي في اسطنبول عام ١٩٢٦م إثر مرض ألم به وألزمه الفراش.

حياته العملية

تولى رئاسة تحرير مجلة «الصراط المستقيم» الأسبوعية و«سبيل الرشاد».

- كان يدعو المسلمين إلى النهضة والتقدم من خلال شعره، ويدعوهم إلى الأخذ بنصيب من العلوم الغربية مما هو صالح ولا يتناقض والمفاهيم الإسلامية، ونبذ ما هو طالح ويتنافى معها.
- عمل معلما في الجزيرة العربية.
- عُين رئيسا للكتاب في «دار الحكمة الإسلامية».
- درس مادة الأدب التركي في جامعة القاهرة.
- انتخب نائبا في البرلمان عن منطقة «بوردر» سنة ١٩٢٠م.

إنتاجه الأدبي

١- خطاب إلى القرآن، قصيدة نشرت بتاريخ ١٥ آذار ١٩٨٥م.
٢- النشيد الوطني، قصيدة.
٣- الصفحات، ديوان شعر.
٤- المرأة المسلمة، لفريد وجدي، ترجمة.
٥- ردا على الكنيسة الانجليكية، لعبدالعزيز شاويش، ترجمة.
٦- العودة للإسلام ، لسعيد حلمي باشا، ترجمة.
٧- التشكيلات السياسية للإسلام ، لسعيد حلمي باشا، ترجمة.

نماذج من شعره المترجم

لا، لن أصفق للظلم ولن أحابي الجبار العنيد
ولن أندّد بالماضي إرضاءً للقادم الجديدْ
ولن أرضى الذّل لأجل بضعة لئامْ
لا، لن أرضى عن الغبن أبدا باسم الحق والوئام
إن كنت سمحا فمن قال إني غنمٌ من الأغنام
وقد يُضربُ عُنقي ولكن يأبى أن يجرّأو يهان
ولن أقول دعك يا هذا وامض بسلام
إنني عدوٌ للظالم ونصير للمظلوم

من نشيد الاستقلال:

إلهي.. رجاء روحي الوحيد
ألا تمس أيدي الرجل الأجنبي صدر المساجد
وألا ينقطع أنين الأذان..
الذي شهادته أساس الدين
أبدًا في سماء البلاد..
إذ يسجد ألف مرة في بلادي الحجر
ويسيل الدمع- يا إلهي- من كل الجوارح ويتفجر
ويندفع من الأرض مثل روح صافية منعشة
ويسجد برأس شامخا نحو العرش
وأخفق أمواجًا مثل الشفق يا مجد الهلال
حق لك كل الدماء المسكوبة من أجلك وحلال
لا زوال لك إلى الأبد ولأمتي.. لا زوال
حق لرايتي التي عاشت حرة الحرية لا محال
حق لشعبي العابد لله الاستقلال

ومن شعره الإسلامي

في المحنة ألف قصيدة بعنوان (لا يأس) افتتحها بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾، ثم قال يحذر الأتراك من الاستسلام لليأس ويستنهضهم لإعادة مجدهم الإسلامي:

أين مني نفحة من الأمل فيك؟
أتحسب أنه قد انطفأ؟
ما كان لفجر الحق الأزلي أن يُمْحى
أيها الظالم!
بعد قليل ترى ما أظلم أيام غدك!
ويأيها القلب المؤمن الذي حار وهو يعبد الحق
إن صدرا واحدا فقط يعيش بدون أمل وهو صدر الكافر
أيجتمع اليأس والإيمان؟
حاشا لله، وقد علمت وأيقنت أنه ضرب من المحال
فلماذا إذن أذللت عنقك ووقفت مطرق الرأس؟
ألا تشفق على ذريتك إن لم تشفق على نفسك؟
لو أطبقت على الآفاق آلاف الكوارث
لما انهارت هذه الأمة.. ما دمنا نتجنب أن نقول: إنها سوف تضمحل
ما كانت لتنهار كلا، لن تنهار ولن تسقط!
فاقتل أنت اليأس العاوي وأيقظ العزم
فحسبها نفحة من الإيمان حتى تعود إلى الحياة
فلينتعش أملك، ما هذه الخيبة؟ وما هذا الخسران؟
ابدأ بإسكات الآلام الماضية
وبث الأمل القوي في أبنائك
وتوكل على الله واعتصم بحبل السعي
واخضع للحكمة
هذا هو الطريق ولا أعرف صراطا مستقيما سواه

في حلقة نقاشية أدبية

«الوعي الإسلامي» ناقشت أسباب الانصراف عن الأدب والنقد

التحرير

كما تتلاقى خلاصة أفكار الكتاب والمفكرين والعلماء على صفحات مجلة «الوعي الإسلامي»، التفت نخبة من أدبائها المميزين في حلقة نقاشية تناولت قضية حساسة وساخنة، هي أسباب الانصراف عن الأدب والنقد، واستضافت الحلقة الشيخ طلال العامر من مشايخ وزارة الأوقاف، وهو أديب له جهود أدبية إعلامية واضحة، والدكتور محمد إقبال عروي المستشار الثقافي بوزارة الأوقاف والمشرف على سلسلة روافد التي تعنى عناية بالغة بالأدب والنقد، والأستاذة حياة الياقوت رئيسة تحرير موقع دار ناشري الإلكتروني.

في البداية رحب سكرتير تحرير المجلة سليمان الرومي بالضيوف، مشيرًا إلى أهمية إقامة الحلقات النقاشية في خلق روح المحاورة الإيجابية، وتوفير الجو العلمي المثمر لمعالجة ما يستجد من قضايا تعرقل مسيرة نهضة الأمة الإسلامية.

ووعد الرومي بمواصلة إقامة مثل هذه الحلقات البناءة، قائلًا: «هذه أول حلقة نقاشية أدبية تقيمها مجلة «الوعي الإسلامي»، وإن شاء الله لن تكون الأخيرة، فنحن الآن بصدد الإعداد لحلقة نقاشية أدبية أخرى، وربما تكون في صورة ندوة عامة، نناقش من خلالها أدب الطفل».

وأبدى الرومي أسفه على عدم انتشار مجلة «الوعي الإسلامي» في الكويت بالصورة المأمولة، رغم أنها مجلة كويتية عريقة تؤدي دورها على أكمل وجه منذ صدورها الأول في عام ١٩٦٥، دون توقف، باستثناء فترة الغزو العراقي الغاشم على الكويت، «وما نسعى إليه الآن هو ربط المجتمع الكويتي بهذه المجلة العريقة من خلال بعض الوزارات مثل وزارتي التربية والشؤون الاجتماعية والعمل، هذا إلى جانب وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التابعة لها المجلة».

الياقوت: المحنة موقوفة على الأدب الملتزم.. والفصحى أُمَة ولدت ربتها

بدوره أوضح مدير الحلقة الزميل عامر أحمد عامر أن «الوعي الإسلامي» حريصة على أن تتلاقى العقول الناضجة متحاورة في ساحة المجلة كما تتلاقى أقلامها على صفحاتها، وهذه غاية لا تقل أهمية، بل ربما تزيد، عن مناقشة عنوان معين أو قضية بعينها.

أما عن عنوان الحلقة، وهو «أسباب الانصراف عن الأدب والنقد»، فأوضح عامر أن هناك أسبابًا متعددة لذلك، منها ما هو مرتبط بالأدب والنقد ذاتهما أو ناتج منهما، ومنها ما لا دخل لهما فيه، مبينًا أن النوع الثاني «لا يعنينا كثيرًا الآن، وربما أفردنا له حلقة خاصة».

ويأتي التعقيد والغموض من أهم أسباب النوع الأول، كما يرى عامر الذي لفت إلى أن بعض المتخصصين في الأدب يقرأون في الأدب ولا يفهمون شيئًا، و«الغريب أن ذلك قد يحدث مع أسماء لها ثقلها في عالم الأدب، وهو ما يدفع القارئ إلى الشك في عقليته وفهمه وإدراكه»، لكنه دلل على أن المشكلة في كثير من الأحيان ليست في القارئ بل هي في العمل ذاته، أو في الأديب نفسه أو الناقد، بقصة رواها وهي أن كاتبًا ساخرًا كتب مجموعة صفحات في ساعة واحدة لا ترابط بينها ولا علاقة بين جملها، وهو خلو من كل ما تعارف عليه أهل هذا الفن، وزعم أنها ترجمة لرواية أجنبية لراوٍ مشهور، وأرسلها إلى إحدى دور النشر التي أرسلتها بدورها إلى مجموعة من النقاد لتأتي آراؤهم عجبًا، فناقد يقول «هذه هي الدراما»، وآخر يقول «إن الرواية تمثل بحق مأساة الإنسان الغربي»، ثم فجر الكاتب الساخر قنبلته لتكون المفاجأة المضحكة للجماهير، المصيبة لعرق النقاد العظام، ولا عزاء للأدب.

ومن هذه الأسباب أيضًا، من وجهة نظر مدير الحلقة، ظهور ما يعرف بالقوالب الجامدة الجاهزة في النقد وانتشارها، فكل ما يقال في قصيدة يكرر في غيرها، بنفس الألفاظ والعبارات، وكل ما يوجه إلى أديب من استحسانات أو انتقادات تراه ينال غيره، لدرجة أصبحت معها صفحات الأدب في

كثير من الجرائد والمجلات مجالًا خصبًا للتندر والفكاهة، وهو ما دفع كثيرًا من كتاب الدراما إلى التقاط وتصوير هذا المشهد للناقد الذي يتشدق بألفاظ نمطية فضفاضة يمكن أن تقال في كل ميدان.

واستهل د.محمد إقبال عروي حديثه قائلًا: «الحديث العلمي عن ظواهر اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو فكرية يعلمنا أن هناك ظواهر لا يمكن أن تسند إلى سبب واحد، بل تتساند لإيجادها مجموعة من الأسباب، والظاهرة موضوع الحديث من هذه الظواهر المتعددة الأسباب، لكن الشعور بأن هناك نقصًا في التعامل مع الأدب أو أن هناك انصرافًا عنه مجرد ظن، والقضية كي تصير حقيقة علمية لابد أن تكون مستندة إلى بحوث ميدانية، تتمثل في الاستقراءات والاستبيانات واللقاءات، فمثل هذه الأشياء هي التي تعكس حقيقة ما يجري في الواقع، وقضية انصراف الناس عن الأدب والنقد مما يدعمه الحس، والحس أصل معتبر حتى في الأحكام الفقهية والفتاوى، وأنا لا أريد أن أقول إنه ليس هناك انصراف عن الأدب والنقد، لكن حبذا لو تتبنى مجلة «الوعي الإسلامي» بشكل مؤسسي هذا الموضوع، وتنجز لنا أو تكلف من ينجز لنا استبيانات واستقراءات حول هذا الموضوع، حتى يكون نقدنا على بينة وعملنا على هدى.

أما الشيخ طلال العامر فقال: إن النفس البشرية تلوذ بطبيعتها بالأدب حين تلوذ في بعض الأحايين، وتأكد لي من تجارب شخصية أن الناس فيهم أصالة

عروي: الشعور بالانصراف عن الأدب مجرد ظن.. وهو دليل معتبر على وجوده

حب الأدب، لكن عملية الاهتمام بالأدب هي التي ربما تكون مشكلة، وإذا كان د.إقبال قد أثار الآن قضية إقامة الأدلة على الانصراف، فلدي بعض ما يمكن أن يقوم دليلًا على ذلك الانصراف، وإن كان لا يرقى إلى وسائل البحث العلمي، من هذا أن بعض دور النشر هنا في الكويت تأتي بنسخ معدودة من كتاب أدبي نادر لا يباع في الكويت كلها إلا في دار النشر هذه، ثم لا تنفد هذه النسخ المعدودة (٥ نسخ) إلا بعد مرور مدة طويلة، قد تصل إلى أربع أو خمس سنوات.

وقال العامر: «وإذا نظرنا إلى الكويت نجد أن الحياة الأدبية فيها اتخذت شكلًا مغايرًا تمامًا بعد الغزو العراقي عما كان سائدًا قبله، فقبل الغزو كانت هناك دعوات قومية، وهي بدورها لها أدبها الذي يتحدث عنها، وفوجئنا بعد الغزو بأصحاب هذه الدعوات القومية يتحدثون باسم الغربية والليبرالية... إلخ، وتولدت لدى كثير من هؤلاء خيبة أمل في العروبة والعربية، وإذا كان بعض النصارى في وقت من الأوقات يحملون لواء الذود عن العربية مثل لويس شيخو، وإن كانت هناك اعتراضات شرعية على بعض ما كان يثير في كتاباته، لكنه بشكل عام كان مدافعًا عن العربية، فإن العربية الآن لاذت إلى كنف الإسلامية، ولكن مع الأسف الشديد تقاعست الإسلامية عن حماية العربية، ولدي مؤكدات لهذا الموضوع، فمع أنه أصبحت لدينا قنوات فضائية فإننا نفتش فيها بالمجهر عن المعنى الأدبي فلا نجده، ولقد وقفت أمام هذه القضية عن كثب، وإذا قدمت إحدى القنوات شيئًا من هذا فيأتي تقليديًا ساذجًا ممّلا، وغالبًا ما يكون ضيوفه من الشيوخ وعلماء الشريعة وليس من الأدباء المختصين، فلا روى الظامئ المبتدئ ولا علّ الناهم المختص، وأذكر أن د.عبدالرحمن العشماوي، وهو رجل متخصص في الأدب، خرج في برنامج أدبي فكان البرنامج متواضعًا إلى حد كبير، من حيث الديكور والإخراج، وتوقيت العرض لم يكن مناسبًا بالرغم مما كان في البرنامج من مادة جيدة».

وزاد العامر أن المسألة الثانية «وقد اكتشفتها منذ نعومة أظفاري، وهي أن هناك جفوة واضحة للأدب في عموم الخطاب الإسلامي، من خلال الخطب والدروس والمواعظ، مع استصغار المشتغل بالأدب، واحتقار شأنه، وفي أحسن الأحوال اعتباره مشتغلًا بفضول

الأشياء، وإذا استضيف في برنامج فإنه يستضاف لقضاء أوقات الفراغ وذكر النوادر والطرف، هذه هي الصورة الغالبة للأدباء الآن، وإن كانت هناك صور أخرى جيدة لكنها نادرة».

وتابع العامر أن هناك ظاهرة غريبة يمكن تسميتها «التغريب الإسلامي»، ومن صورها إطلاق أسماء أجنبية على مشاريع إسلامية وأعمال خيرية، «ومما أفرحني في هذا الصدد أنني سمعت أنه في مكة أعطوا مهلة ٦ أشهر لتعريب أسماء المحال».

من ناحيتها قالت حياة الياقوت، في بداية أدبية معبرة ساخرة: «جئت هنا محمّلة بكثير من التحايا، وواجب عليّ إيصالها.. النبطي، والملحون، والزجل يحيونكم جميعًا، ويخبرونكم أنهم في خير خير حال.. القصص الرومانسية للجيب، والروايات المعربة المهرّبة تقرئكم وافر السلام وتقول لكم: الكمية محدودة، احجز نسختك الآن.. الأدب يا قوم في صحة وعافية وبحبوحة، حتى إن وزنه ازداد أخيرًا بضعة كيلوجرامات! هذه كانت مقدمة واجبة، لنعرف أن المعضلة ليست معضلة أدب، بقدر ما هي معضلة يواجهها صنف معين من الأدب، مصائب ومصاعب الأدب الفصيح، الأدب الملتزم، على العمومية المزعجة لهذه الكلمة».

ثم تساءلت الياقوت عن العزوف عن الأدب والنقد، قائلة: عزوف من؟ من الذي عزف؟ وعلى أي وتر حساس؟ قد نقصد عزوف القارئ، وقد نقصد عزوف الأدباء المحتملين عن خوض غمار الأدب.. أيًا ما قصدنا، فكل منهما يقود إلى الآخر، فأديب متحمس لا يلقي بالا للقراء سينكفئ في محارته، والقارئ المتوقد إن لم يجد أدبًا يناسب ذائقته ويناسب روح عصره وتطلعاته، ستتخطفه كلاليب كثيرة، لكن لابد من أن نحدد المتهم الرئيس، ثم

طلال العامر: تقاعسنا عن حماية العربية.. وهذه هي الأدلة

الرومي: نعد بمواصلة إقامة الحلقات النقاشية.. ونجهز لندوة عن أدب الطفل

المتهم المتواطئ معه، وحتى لا ندخل في معضلة الدجاجة والبيضة التي حلها لها الشيخ محمد متولي الشعراوي- يرحمه الله- بأن جزم بأن الدجاجة جاءت قبل البيضة، نقول بكل ثقة إن عزوف الأديب هو الدجاجة، والبيضة هي عزوف القارئ، كلاهما مليم إن عزف، لكنّ الأديب عليه واجب دفع زكاة موهبته، جنى ثمارها أو لم يفعل، فالحق عليه مضاعف وهو يعلم جيدًا خط سير الدنيا، وأنها تهوى تكريم المبدعين بعد أن يردوا قبورهم!

واستطردت الياقوت: الفصحى أَمَةٌ ولدت ربتها! الفصحى.. تلك الحرة، تلك السيدة التي صارت اليوم أَمَة وولدت ربتها (العامية)، وهذا على أي حال من أشراط قيام الساعة.. لماذا نتعامى عن العاميّة؟ إنه عصرها اللامع، ومن الطبيعي أن يربو ويزهو الأدب المكتوب بها، ودون إحصائيات، حاولوا أن تقارنوا مثلًا بين مشاهدي البرامج الفصيحة ونظيراتها العامية وستعلمون جيدًا ما أقصد.

وكي أدلل على أهمية تضافر الأدب والفن والإعلام، خذوا مثلا «الأناشيد» التي غالبها بالفصحى، كم قربت «مواطن الشارع» من الفصحى وأسهمت في تعريفه ببعض روائع الشعر، وأسهمت في كسر جمود الفصحى والصورة النمطية التي رسمتها لها المسلسلات التاريخية.

وحَمّلت الياقوت الإعلام والتعليم المسؤولية، قائلة: في حصة التعبير تأتي التعليمات كما يلي: «يعد كذا وكذا مهمًّا جدا، عبر عن رأيك بهذا الأمر بأسطر وقدرها كذا»، تعليمنا ممتاز ليس في قتل الملكات اللغوية، بل في قتل ملكات التفكير، إنه يستولي على مقدرة الطالب على تكوين رأي بنفسه، إنه يُكوّن له الرأي سلفا، ثم يطلب منه الانطلاق والتعبير عن الرأي «الصحيح» الذي هبط فجأة.. العصفور يغرد في القفص، نظن أن صوته جميل.. لا نفقه ما يقول، لعله يدعو علينا!

والإعلام لا يبحث عن المادة الأدبية الجيدة بقدر ما يبحث عن المادة التجارية الرائجة، لكن هل من الأفضل خسارة رؤوس الأموال أم خسارة الرؤوس التي تحوي العقول؟

وختمت الياقوت قائلة: «الأدب يمكنه أن يكون بعافية بشرطين: أن يعي دوره الرسالي، وأن يمد كل أياديه إلى الفن والإعلام، وأن ينظر بتفاؤل وجدية إلى الآفاق الإلكترونية، هنا سيمتطي صاروخًا، ويشاهد من على مقبرة القطارات المحكوم عليها بالإعدام».

تغير الظروف وأثره في اختلاف الأحكام في الشريعة الإسلامية

محمد عويس

وجد الفقهاء أنفسهم مطالبين بضرورة البحث في أصول الشريعة عن حلول وإجابات عملية لما جد من مشكلات ووقائع ظهرت مع تطور الحياة واختلاف البيئات، وكان هذا البحث هو البداية الحقيقة لتطور الفقه الإسلامي، الذي ظل ينمو باطراد مع كثرة الوقائع، واختلاف الظروف، وتبلور فيما بعد، في شكل مدارس أو مناهج فقهية اتسم كل منها بطابع خاص في فهم نصوص الشريعة.

الدكتور محمد قاسم محمود المنسي في كتابه (تغير الظروف وأثره في اختلاف الأحكام في الشريعة الإسلامية- دار السلام للنشر والترجمة والطباعة والتوزيع) اشار إلى أن هذا البحث- هو الأساس الذي أُقيمت عليه نظرية الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ذلك أن الاجتهاد- وهو مجهود عقلي صرف- لا يستهدف فقط إنشاء أحكام جديدة في مسائل لم ترد فيها نصوص خاصة من القرآن والسُنة، وإنما يستهدف أيضا إعمال الجهد، في تفهم نصوص الشريعة، وخصوصًا تلك التي تقبل تعدد المعاني والتفسيرات، وفقه الظروف والملابسات التي تحيط بالواقع، مجال التطبيق، ابتغاء الفهم الصحيح والتطبيق السليم، الذي يتفق مع مقاصد الشريعة ويحقق مصالح الناس في الوقت نفسه.

ولئن كان ميدان البحث في نصوص الشريعة يدور حول المعاني والدلالات التي يمكن أن تستخرج منها في ضوء المعطيات اللغوية والتشريعية، التي تكون مادة الأحكام، فإن ميدان البحث في الواقع بظروفه وملابساته يدور حول الخصائص التي يتميز بها واقع عن آخر، من حيث العوامل المؤثرة في تشكيله، والمشكلات التى تواجهه.

وحول تفسير ذلك أشار الباحث إلى أن النص جاء في الأصل حاكما للواقع، ومهيمنا عليه، وهذا مقتضى ثبوته وعدم قابليته للتغير وبعبارة أخرى هذا هو الدليل العملي على صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، ومن ثم تظل وظيفة النص ثابتة وهى ضبط الحركة الواقعية بما يتفق مع مقاصد المشرع، ويحقق مصالح الناس. أما الواقع فإنه يتسم دائما بالتغيير، أثرا لسنة الله في الخلق، وينشأ عن هذا التغير وقائع جديدة تقتضي أحكاما جديدة، قد تعارض أحكامها الأصلية، إذ إن وحدة الحكم تقتضي تشابه الظروف، وهذا غير واقع، لأن الظروف تتغير باطراد، ومن ثم وجب اعتبارها عند إنشاء الأحكام وصياغتها، حتى لا يؤدي إغفال هذه الظروف إلى تطبيق أحكام تناقض مقاصد الشرع.

وأكد على أن هذا يوجب ألا ينقطع الاجتهاد لأن الظروف الملابسة، للأشخاص أو للوقائع والأحداث في تغير مستمر، كما أنها تؤثر في تشكيل علة الحكم، وتوجيه الاستدلال بمدركه الشرعي. ومن ثم فإن تغير هذه الظروف يكون سببا في اختلاف الأحكام الشرعية، ذلك أن الحكم يتعلق- عند التطبيق- بواقع ذات ملابسات وأحوال محددة، فإذا ما تغيرت هذه الملابسات أو الأحوال كان ذلك علامة على أننا أمام وقائع جديدة تستلزم أحكاما جديدة، وهكذا تختلف الأحكام باختلاف الظروف.

واختتم الباحث دراسته بالإشارة إلى أنه

أولا: فيما يتصل بحقيقة التغير وموقف الشريعة منه: لابد من التفرقة بين نوعين من التغيرات.. تغيرات ايجابية،

باحث مصري

ظهرت في واقع الحياة نتيجة طبيعية لرقي الإنسان ونموه العقلي، وارتقائه في الأسباب والوسائل المادية، وتغيرات سلبية، نتجت عن محض الرغبة في تقليد الأنظمة أو العادات التي ظهرت في مجتمعات لا تعترف بالشريعة. وحول قيامه بالتفرقة بين هذين النوعين، أرجع ذلك إلى أن التغير- عادة- لا يمضي في اتجاه واحد بل يمضي في اتجاهات مختلفة بعضها ايجابي وبعضها سلبي، ومن ثم يختلف موقف الشريعة من كل منهما:

فالتغير الإيجابي ينبغي الحفاظ عليه وتطويره، أما التغير السلبي فينبغي رفضه ومقاومته أو تعديله بحيث يصبح موافقًا لمقاصد الشريعة وأهدافها.

ثانيا: أن التغير الذي تعتد به الشريعة ويُبنى على أساسه القول بتغير الأحكام، يشترط فيه عدة شروط:

١- ألا يكون مخالفا للنصوص الشرعية، لأن الشريعة جاءت حاكمة للواقع لا محكومة به، ومقتضى ذلك أنه إذا تعارض التغير- بصورة قطعية- مع بعض أحكام الشريعة فإنه لا يلتفت إليه، مهما كان له من القبول والانتشار، لأن الالتفات إليه في مثل هذه الحالة يعد إهدارًا أو تعطيلا لنصوص الشريعة.

٢- أن يكون مطردا أو غالبا، ويعني المؤلف بذلك أن يكون التغير قد استقر في حياة الناس، وتتابعوا على العمل به وصار أمرا شائعا بينهم، ومن ثم لا يلتفت الى التغيرات النادرة أو التي لم يتحقق فيها شرط الاطراد وغلبة الاستعمال.

٣- أن يكون جوهريا ونعني بذلك أن التغير يكون جوهريا إذا ترتب عليه أحد هذه الأمور: اختلال مصلحة من المصالح الضرورية للناس، كمصلحة حفظ الدين أوالعقل أوالنفس أو النسل أو المال، وقوع الناس في الحرج والمشقة المعتبرين شرعا، حدوث تغير جوهري في فطرة الإنسان بحيث يصبح كائنًا مختلفًا عن الإنسان الذي خلقه الله.

الاستحسان وسد الذرائع يمكن أن يسهما في حل المشكلات المتعلقة بتطبيق أحكام الشريعة

٤- ان يكون يقينيًا أو قريبًا من اليقين: ويُقصد بذلك أن ما بُني من الأحكام الفقهية على ما كان متاحًا من معارف وخبرات العصور الماضية، لا يؤخذ به، اذا تغيرت هذه المعارف، بصورة يقينية أو قريبة من اليقين، اذ لا يصح بناء الأحكام الفقهية على معارف ما تزال في طور الدراسة أو الظن، أو لم ترق الى اعتبارها حقائق علمية.

٥- ان يكون موافقا لمقاصد الشريعة: ونعني بذلك ان كل ما يحقق مصالح الناس-التي هي مقاصد الشريعة- من السياسات أو التدابير التي يحدثها أولو الأمر، ويقتضيها التطور الاجتماعي، يدخل في إطار الأعمال الشرعية- مع انه لم ينص عليها بذاتها- لأن الشريعة لم تحصر كل الوسائل التي يتوصل بها الى تحقيق مصالح الناس، اتساقًا مع منهجها في إجمال ما يتغير وتفصيل ما لا يتغير.

ثالثًا: وفيما يتصل بأثر التغيير في اختلاف الأحكام، فقد توصل الباحث الى ان الأحكام الشرعية- المنصوص عليها- وإن كانت تتسم بالثبات وعدم التغير، إلا أنها تتغير- عند التطبيق- بسبب اختلاف الظروف، وهذا التغيير لا يُعد من باب نسخ الحكم أو تعطيله، إذ لا يجوز ذلك بعد عصر التشريع، وإنما مراعاة لأحوال الواقع المختلفة، حيث يتطلب الأمر- في بعض الظروف- إباحة المحظور، أو حظر المباح، وذلك دفاعا للتناقض بين جزئي الشريعة وكليها، وحرصا على الأصل التشريعي العام وهو جلب المصالح ودرء المفاسد، إن الحكم- الذي بُني على اجتهاد فقهي- يتغير بتغير الظروف، زمانا ومكانا، بسبب تغير الأعراف، أو حدوث المشقة، أو وقوع الضرورة، أو تغير أحوال الناس، فكل هذه ظروف مؤثرة في اختلاف الأحكام. ومن ثم فإذا كان الحكم الفقهي مبنيا على عرف سابق أو ترتب على العمل به- في غير زمانه ومكانه- وقوع الضرر أو المشقة، فإن المصلحة تقتضي أن يتغير الحكم دفعا للضرر أو المفسدة.

رابعًا: وفيما يتصل بالأصول الشرعية التي يستند إليها الفقه في تغير الأحكام، فقد اشار الباحث الى أن الفقه الاسلامي قد أقر مبدأ التغير في الظروف، وبُني عليه جواز اختلاف الأحكام، وذلك من خلال أصول فقهية منضبطة، وهي الاستحسان، وسد الذرائع، والمصلحة المرسلة.

فمن خلال هذه الأصول استطاع الفقه الإسلامي أن يواكب المتغيرات الاجتماعية، وأن يلبي حاجة المجتمعات المختلفة إلى التشريعات التي تتطلبها حياة الناس ومعاملاتهم، ويؤكد الكاتب على أن الفقه الإسلامي لا يزال قادرا- بهذه الأصول- على تلبية حاجة المجتمع المعاصر إلى التشريعات المختلفة على الرغم من تغير الظروف واختلاف الحاجات. فالاستحسان وسد الذرائع يمكن أن يسهما في حل المشكلات المتعلقة بتطبيق أحكام الشريعة - في الواقع المعاصر - وذلك إما باستثناء الحالات أو الوقائع التي سيؤدي فيها التطبيق إلى ضرر معتبر شرعا أو بتأجيل العمل بالحكم بصورة محددة، إلى أن تتوافر الظروف المناسبة التي يؤدي فيها التطبيق إلى نتائج إصلاحية، وإما بإباحة المحظور أو حظر المباح، إذا دعت الضرورة إلى ذلك.أما المصلحة المرسلة فإنها توفر سندا شرعيا لكل التشريعات التي تتعلق بالأوضاع التي آل إليها حال المجتمع المعاصر، ذلك أن كل ما يحقق مصالح الناس يعتبر عملا مشروعا، وإن لم ينص عليه بذاته، ما لم يكن مخالفا لنص شرعي أو يؤول إلى مخالفته.

أسرتي

الدعوة النسائية

تعد الدعوة النسائية من الفروض الواجبة في عصرنا الحالي، لاسيما أننا نعيش في زمن تضيع فيه الهوية الإسلامية ويقصى الناس عن الدين، الأمر الذي يوجب على كل امرأة مسلمة الاجتهاد في أن تكون خير سفيرة للإسلام في حلها وترحالها.

لكن العمل الدعوي النسائي يواجه عديدًا من المعوقات التي تقف في طريق تحقيق أهدافه، بداية من أزمة التقوقع على الذات والانغلاق، ربما لسوء الفهم والإدراك الضيق، أو للعوائق التي تقابل العمل الدعوي النسائي بشكل عام.

لذا ينبغي الاهتمام بالداعيات من حيث تثقيفهن وإفهامهن دورهن الأساس في خدمة دعوتهن، بالإضافة إلى الحرص على استغلال الإمكانات والطاقات المتوافرة مع التوظيف الأمثل لهذه الطاقات، ومحاولة إقناع الرجل والأسرة والمجتمع بالدور المهم للأخت الداعية في مجال دعوتها، وأهميته في عرض وسرد قصص الشخصيات النسائية التي ضحت من أجل دعوتها، وبذلت الغالي والنفيس للحفاظ على الدعوة حتى وصلت إلينا.

هذا إلى جانب أن تكون الداعية اجتماعية، وأن تخالط من حولها، مع مراعاة التدرج في الدعوة، حتى لا يرفضها المجتمع، وقبل كل ذلك الاستعانة بالله عز وجل، و إخلاص النية لله والتوكل عليه.

التحرير

الأسرة المسلمة وتوحيد القيادة

شعبان محمود شعبان

لابد للسفينة من ربان واحد يحسن القيادة ويجيد الحكمة ويرعى الأمور ويتجنب العواصف، فإن واجهته قابلها بالاتزان وضبط النفس حتى تمر بسلام. وكذلك سفينة البيت.. إنها تشبه سفينة البحر تماما.. مرة هادئة ومرة مضطربة! وقضت سنة الحياة أن يكون الربان رجلا، ورجلا ماهرا، فالمرأة مشوبة بالعاطفة متوقدة الذكاء ولكنها قليلة الاحتمال لأعباء الحياة. والاطمئنان على السفينة ليس من حق الزوج والزوجة وحدهما، بل يشاركهما في ذلك فلذات أكبادهما ونتاج زرعهما. فلابد للسفينة أن تسير في انتظام لا تنحرف بها العواطف ولا ينزلق بها الإغراء، فإن انحراف العواطف وراءه كارثة وان انزلاق الاغراء ينتهي بمصيبة!

الدين حين أمر بالحشمة ونهى عن الاختلاط وحرّم التبرج واستفحش الفاحشة، كان غرضه من ذلك أن يحفظ سفينة الأسرة من العواصف وأن يبعدها عن تقلبات الأجواء خشية أن تتحطم أو مخافة أن تغرق في البحر.

وحين يسود هذا النظام، نظام توحيد القيادة، سنشاهد علائم الاستقرار وسعادة الأسر وراحة البيوت.

وأقول: حين يسود؛ لأن مجتمعنا الأسري اليوم تضطرب فيه القيادة بين الرجل والمرأة.

كلٌّ يريد أن يمسك «العجلة»، الرجل يطالب بحقه، والمرأة تقول إن عهد الرجل قد انقضى.. والحقيقة ضائعة.

ومن وراء هذا الاضطراب عاش فتيان اليوم وفتياته حائرين مضطربين، هل ينحازون الى اليمين أم الى اليسار؟

وما حل الاضطراب في بيت إلا أفسده، ولا في جمع إلا شتته.. وهنا تظهر فضيلة الاسلام حين نادى بتوحيد القيادة وضبط العواطف وإنصاف المرأة والذرية.

مشكلة المشاكل أمام امرأة اليوم مسألة «قوامة الرجل» إنها «البعبع» الذي تخافه المرأة وتخشاه، فهل هي على صواب في ذلك؟

وقبل أن نجيب: ينبغي أن نرى حدود هذه القوامة ومنتهى ما تؤدى إليه.

باحث أسري

إن الرجل القيم لا يصح له أن يتصرف في مال زوجته بغير إذنها، حتى المال الذي يهبه هو لها أو يتنازل عنه لها، لا يصح كذلك أن يتصرف فيه إلا بإذن منها.

وإن الرجل القيم لا يجوز له بحال أن يحجر على امرأته العاقلة، أو يستبد بها أو يضغط عليها في رأي معين، فحرية الرأي وحرية التصرف وحرية الدين مكفولة كل الكفالة للمرأة مع قوامة الرجل عليها.. فهل هي على صواب في نفورها من الاسلام أو في فرارها من قوامة الرجل؟

ولئن كانت هناك وظائف تعجز المرأة عن القيام بأعبائها، فلقد خصت الطبيعة المرأة بوظائف لا يستطيع الرجل أن يقوم بها.

كم سلما ارتقته المرأة حتى وصلت الى هذه المنزلة السنية العالية.

إن الإسلام استطاع أن يتطور بالأذهان حتى هضمت هذه الأفكار وحتى رقت القلوب القاسية وحتى يبكي عمر فيسأل عن سبب بكائه فيجيب: تذكرت ابنتي وقد دفنتها أيام الجاهلية وبينما أحفر الحفرة لها طار تراب الى ذقني فأخذت تنفضه عني.. ومع ذلك فقد دفنتها.

وحق لعمر أن يبكي، ويبكي طويلا.

لقد كانت المرأة لعبة فجعلها الإسلام حقيقة، وكانت شهوة رخيصة فجعلها الإسلام معنى رفيعا، وكانت لهوا ومتاعا فجعلها الإسلام نورا وضياء.

تمنت أم مسلمة يوما أن يكون للنساء من القوة مثلما للرجال حتى يقمن بأعباء مماثلة.. فنزل الوحي يرتل:

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما﴾ (النساء: ٣٢).

هل المرأة على حق حين تعتقد أن قوامة الرجل هي «البعبع» الذي تخشاه؟!

فعظمة الإسلام في مرونته وتمشيه مع مقتضيات الأشياء وطبيعة الأمور، ولا جعجعة ولا غلبة ولا قهر، كل يسير في طريقه المرسوم له، وقد خاب من افترى.

إننا نعلم جميعا- ومن غير استثناء- جمال التشريع الإسلامي ولكن مشكلة المشاكل أن نهيئ أنفسنا لقبوله وأن نخضع أفكارنا لدستوره.

هل يستطيع أحد كائنا من كان أن يدعى أن تكوين المرأة الجسماني والروحي، كتكوين الرجل سواء بسواء؟

وهل يستطيع أحد- كائنا من كان- أن يدعي بأن تقوم المرأة بجميع الأدوار التي يقوم بها الرجل مع أمومتها وحضانتها؟

لا يشك أحد أن التكوينين مختلفان، والمهمتين مختلفتان كذلك، وأن هذا الاختلاف يستتبع دائما اختلافا دائما في نظام الحياة المتصلة بكل منهما، وهذا هو سر ما جاء في الإسلام من تفريق بين وظائف الرجل والمرأة.

إن الإسلام يوجب على الآباء تعليم الفتيات على آخر طراز من التربية الكاملة المهذبة ووعدهم على ذلك ثوابا عظيما من رب كريم.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن، وفي رواية فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن، فله الجنة».

ومن حسن الأدب: التعليم، والتثقيف، والتهذيب، ولكن: يجب أن تعلم المرأة في تعليمها وتثقيفها وتهذيبها أن المرأة لبناء أسرة سعيدة أولا وأخيرا.

وصدق الله العظيم ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾.

وإذا كان من حق الرجل أن يطمئن على سلامة سفينته فإن من حق المرأة أن تراقب حركات القائد وتحاسبه إن مال أو حاد، فلا محسوبية ولا محاباة ولا تحيز ولا تعصب.

إن درجة الرجل ليس معناها الاستبداد بالمرأة أو التحكم فيها.. أو القسوة عليها.

جرح الطلاق النفسي لا يستثني الرجال

د. خالد سعد النجار

«الطلاق» تلك الكلمة الكئيبة، والمضمون المعبر عن فشل التوافق، والشبح الذي يؤرق الحياة الزوجية.. أبغض الحلال عند الله تعالى، لكنه في بعض الأحيان قد يكون الحل الوحيد والمثالي لمشكلات زوجية استعصت على الحل، حيث استحالت الحياة والعشرة.. ورغم جرحه وألمه فالطلاق لا يعني نهاية المسيرة سواء للرجل أو المرأة، ومهما كانت الحالة، فالانفصال يعني أسوأ لحظات الزواج وأكثرها كآبة، ويترك في النفس جرحا يطال الرجل كما يطال المرأة على عكس ما يتوهم البعض أن الخاسر الأكبر في كل الأحوال يكون المرأة فقط.

الآراء التي تزعم أن الرجل بعد الطلاق أسرع على التأقلم في الحياة، وأقدر على تجاوز المحنة ما هي إلا معتقدات منبثقة من إرث ثقافي خاطئ، لأن الرجل مثله مثل المرأة كلاهما يتأثر جدا بالحدث، وهناك عوامل خارجية وأخرى داخلية تؤثر على تكيف الفرد مع الموقف، أهمها تاريخه الشخصي، وكيفية نمط حياته، والخبرات السابقة، بالإضافة إلى الثقافة والبيئة الاجتماعية التي تحيط سواء بالرجل أو المرأة والتي لها دور رئيسي في مدى تأثر كل منهما بالآثار النفسية السلبية الناجمة عن الطلاق.

تقول إحدى الدراسات الغربية التي أجرتها مجلة «صحة الرجال» على شبكة الإنترنت: إن أول رد فعل للرجل بعد انتهاء العلاقة، هو سرعة الخروج مع أصدقائه وسرعة الارتباط بأخرى، فحوالي ٢٦٪ من الرجال يتعالى على ما حدث، وكأنه يحتفل مع أصدقائه، وأن الموضوع برمته غير مهم وهؤلاء أقلية، لأن ٣٦٪ من المشاركين في الدراسة، قالوا: إنهم يودعون طليقاتهم بابتسامة لامبالاة، وكلا النسبتين تمثل شكلا من أشكال الأقنعة الزائفة التي يخفي بها الرجال مشاعرهم الحقيقية، لأنهم لا يستطيعون التعامل مع آلامهم أو

غضبهم أو إحباطهم، وقد لا يتنبه الرجال إلى حالة الوحدة، إلا بعد تخطي المرحلة الأولى من ردود الفعل الأولية، فيبدأون في الحداد على حياتهم.

أما النساء فلا يضيعن الوقت، وفور انتهاء العلاقة يبدأن في البكاء، ثم يبدأن مرحلة الحديث مع الأخريات بصراحة عن مشاعرهن بعد الطلاق.. إنهن يواجهن الأحزان فورًا- كما أكدت الدراسة- الأمر الذي يساعدهن على التخلص من المحنة بشكل أسرع، وتفريغ شحنة الانفعالات بصورة إيجابية، عكس الرجال الذين يكبتون مشاعرهم فتظل تنتقل معهم في سراديب حياتهم.

كما وجد باحثون أن ٩٥٪ من الرجال المطلقين يغيرون مسكن الزوجية، ولا يحبون العيش فيه بعد الانفصال، فنفسية الرجل ووضعه الاجتماعي ليسا بالقوة المعتقدة كما هو متعارف، فهو غالبا ما يشعر بالفراغ والوحدة بعد الطلاق.

من ناحية أخرى أكدت دراسة ميدانية مصرية أجراها باحثون في قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة عين شمس بمصر، أن معظم الرجال الذين سبق لهم الزواج وفشلوا فيه، معرضون للإصابة بالاضطرابات النفسية جراء هذا الفشل، وأن «الرجل المطلق» يعاني غالبا من عدم القدرة على التكيف اجتماعيا بعد الطلاق، كما يواجه صعوبات في خوض التجربة مرة أخرى باعتباره رجلا له ماض.

معاناة صامتة

«ينبغي على الرجال دوما ألا يفصحوا عن أحاسيسهم وخصوصا الحزينة، خشية أن ينتقص هذا الإفصاح من رجولتهم».. تلك هي الستارة الزائفة التي تختفي ورائها مشاعر الرجل بعد الطلاق، خاصة أن عادات المجتمع لا تسمح للرجل بإظهار ضعفه وحاجته للمرأة لأنه ببساطة رجل، ولأن مجتمعاتنا رجولية بالدرجة الأولى، الأمر الذي يحتم على الرجل كتم أحزانه، والمعاناة من حالة احتقان نفسي داخلي غير مأمونة العواقب.

تربوي مصري

أي أن الرجل المطلق يعاني في صمت، ويتألم بدون صوت، ويقاسي جرح الماضي زمنا طويلا بلا بوح، لأن المجتمع ونظرة الرجال لبعضهم البعض جعلت الرجل لا يجسر على البوح بآلامه وخسائره.

أما أطباء الصحة النفسية فيؤكدون بحسب مجلة «الصدى»، أن السبب الآخر الذي يضايق الرجال بعد الطلاق ليس فقط فقدان دورهم كأزواج، ولكن خسارتهم لدورهم كآباء، فالأم تلعب بعد الطلاق دور الأب والأم معًا، أما الزوج فيخسر دوره كأب.

وعن الانعكاسات المرضية العضوية يذكر د. مصطفى الحاروني أستاذ علم النفس التربوي بجامعة حلوان المصرية أن الطلاق يعد منجما للأمراض ولا يستثني الرجل من الآثار النفسية والاجتماعية المدمرة. وأكثر الأمراض شيوعا لدى هؤلاء هي الإرهاق المزمن، القرحة، تساقط الشعر، أمراض القلب، والأمراض الجلدية «الحساسيات».

حالات صعبة

إذن لاشك أن الزوج يتأثر عاطفيا بالطلاق، بل وقد يصاب بأعراض وأمراض نفسية وعضوية، خاصة في حالات معينة تزيد الموقف صعوبة، أهمها:

- مبادرة الزوجة بطلب الطلاق، سواء باللجوء لفسخ العقد لخلل في جانب الزوج، أو حتى في طلب المخالعة من أجل عتق نفسها من الارتباط بذلك الزوج.
- وجود أبناء محصلة ذلك الزواج، فلا مكان إطلاقا للطلاق الذهني أو النفسي بين الزوجين عند وجود الأبناء.
- طول مدة الحياة الزوجية التي قضاها الزوجان معًا، فلا يزال شبح الذكريات يؤرق الطرفين..إذ إنهما قضيا زهرة حياتهما معا.
- تأخر الدخول في تجربة الزواج مرة أخرى بعد الطلاق، نتيجة العزوف والكره للجنس الآخر.
- الطلاق بعد الخمسين بالنسبة للرجل يكون شديد الوطأة عليه بخلاف الطلاق في مقتبل العمر.
- ملاحظة الرجل المطلق للحساسية الكبيرة والتحفظ المفرط عند التعامل مع الزملاء، وخصوصا لدى دخوله منازلهم، حيث ينظر إليه الجميع كشاب أعزب، يفتقد لزوجة تعصمه وتصونه وتعفه.

لا شك أن الرجل يتأثر عاطفياً بالطلاق وقد يصاب بأمراض نفسية وعضوية

وإن كان هذا لا ينفي وجود آثار إيجابية يمكن أن تحدث نتيجة للطلاق، فقد يدفع الرجل الإحساس بالفشل إلى الثورة على نفسه، فيحاول التركيز في عمله وإثبات ذاته والتغلب على مرارة التجربة وقسوة الذكريات.

الكل يخسر

الفرد حين ينوي الطلاق يكون تفكيره قائما على الخلاص، لكن ما يشعر به عقب ذلك من وحدة وعدم استقرار يضعه في أتون حياة صعبة. فلاشك أن كل الأطراف تكون خاسرة، حيث تفقد الزوجة الدعم والأمان والحماية التي يوفرها لها الزوج، وهو الآخر يخسر الحضن الدافئ والسكن النفسي والراحة التي تحققها لها زوجته، علاوة على عودته مرة أخرى لحياة «العزوبية»، وعدم وجود من يهتم بشؤونه، وبعض الرجال يهرب من خيال زوجته السابقة بالزواج السريع من امرأة أخرى ليسترد جزءًا من اعتباره وكبريائه المحطم، ولكن الحقيقة التي لا مناص منها أن الزوج يدخل في دوامة المقارنة ما بين طليقته وزوجته الجديدة، خاصة لو كان مغرما بطليقته.

ولاشك أن التأثير سلبي وكبير على الأطفال سواء عاشوا مع أمهاتهم أو آبائهم، لأن الأسرة هي أول بقعة ضوء تتجلى فيها للطفل القيم والنظرة إلى العالم، وتسمح للصغير بالنمو والحفاظ على التوازن والاستمرار، والطلاق يشوه في داخل الطفل نقاءه وعالمه المثالي فيسيطر عليه الحزن والقلق، وقد يحدث هذا شرخا في نفسيته يحمله معه إلى الكبر فيصبح انطوائيا ويفقد الطموح ويتراجع وينهزم أمام أقل الصعاب، وأكبر الآثار سلبية على أطفال المطلقين عندما يحاول أحد الطرفين تشويه صورة الآخر أمام أبنائه، كأن يقول الأب لأطفاله: إن أمكم لا تحبكم، وهي امرأة لا تصلح كزوجة وأم... الخ أو تحاول الأم أن تزرع الكراهية في نفوس الأبناء تجاه أبيهم، وما أقساها من سلوكات انتقامية خاطئة كفيلة بأن تدمر حياة هذه البراعم الغضة، وتؤثر على مستقبلهم.

فن التعامل مع الناس

كمال عبدالمنعم خليل

إن ديننا الإسلامي هو دين الألفة والمودة، فهو يدعو إلى المعايشة والمخالطة، وينفر من المقاطعة والمنافرة، كيف لا، وقد قال ربنا سبحانه وتعالى مخاطبًا الناس جميعًا، مؤمنهم وكافرهم، عربهم وعجمهم: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا...﴾ (الحجرات: ١٣)، وروى الترمذي وابن ماجة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»، والمؤمن في تعامله مع البشر كافة صورة عملية لهذا الدين الحنيف الذي يدين به، فلينظر في أي صورة يظهر هذا الدين، فقد رسخ في أذهان البعض أن التدين معناه الجفاء والغلظة والعبوس في وجه الآخر، إلا أن هذا الفهم- لاشك- خاطئ وبعيد تمامًا عن الحقيقة، والوسطية التي تميز بها ديننا تجعل المسلم في قصد واعتدال في كل شيء، فلا يحيد عن الصراط المستقيم، ولا يميل عن المنهج القويم الذي ارتضاه للناس رب العالمين.

لا يزال الواحد منا يتذكر هذا الرجل الذي عبس في وجهه أثناء إبداء النصيحة له، وهي صورة قل أن تمحى من الذاكرة، وإن غابت بعض الوقت، فهي لا تزال تتردد بين الحين والحين، إن رسولنا ﷺ وصفه أصحابه بأنه كان بسام المحيا، فلا يتكلم إلا ووجهه مبسوط، وكان ذلك غالب حاله إلا إذا انتهكت حرمات الله تعالى، بل وصل به الأمر أن كان يمزح ولا يقول إلا حقًا، فقد روى ابن ماجة في سننه أن أنس بن مالك رضي الله عنه كان له أخ صغير اسمه عمير، وكان ﷺ يمازحه ويقول له: يا أبا عمير، ما فعل النغير؟ (والنغير طائر كان يلعب به عمير)، وهذه امرأة يقال لها أم أيمن الحبشية جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك، فقال: من هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟ فقالت: ما بعينه بياض، فذهبت المرأة فوجدت زوجها نائمًا، فأخذت تفتح عينيه لترى هل بهما بياض أم لا؟، ودخلت امرأة عجوز عليه ﷺ وسألته أن يدعو الله لها أن يدخلها الجنة، فقال: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، وحضرت الصلاة فخرج رسول الله ﷺ وبكت المرأة بكاءً شديدًا حتى رجع النبي ﷺ فقالت عائشة: إن هذه المرأة تبكي لما قلت لها: إنه لا يدخل الجنة عجوز، فضحك النبي ﷺ وقال: لا يدخل الجنة عجوز، ولكن قال الله تعالى: ﴿إنا أنشأناهن إنشاءً. فجعلناهن أبكارًا. عربًا أترابًا﴾ (الواقعة: ٣٥-٣٧).

فاحرص على أن تخاطب الناس بوجه بشوش، وتذكر أنه لا سلطان لك عليهم، وإنما السلطان فقط هو هذا القبول الذي لا يتأتى إلا بالكلمة الحانية والبسمة اللطيفة والنصيحة الهادئة، عندها يقبلون النصيحة، وتكون سببًا في هدايتهم.

التوازن الانفعالي

إن بعض الدعاة الذين يحملون على عاتقهم توجيه الناس ودعوتهم، لا يبالي إن تعرض لموقف يغضبه ويثيره أن يرفع صوته ويصرخ ويتكلم بما لا يليق من القول، وهذا- لا شك- موقف سلبي له مردوده العكسي على دعوته ورسالته، لأنه في أعين الناس المتزن الذي لا يدفعه إلى التهور شيء، بل يضبط نفسه

كاتب وباحث أسري

ويكبح جماحها، وقد بين الرسول ﷺ أن الشدة والقوة لا تكون بشدة الغضب ولا بالاعتداء على الناس، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب، فردد مرارًا فقال: لا تغضب»، وقدوتنا في ذلك النبي ﷺ فقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد (نوع من الثياب) نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ، وقد أثر بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء».

وقد ورد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ (فصلت:٣٤) قال: الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم، ومعنى ادفع: أي ادفع السيئة وقابلها بالتي هي أحسن من الصفح والعفو، وقد ضرب الصحابة والتابعون أروع الأمثلة في عدم الاندفاع والتهور، فهذا رجل شتم أبا ذر رضي الله عنه فقال له: يا هذا لا تستغرق في شتمنا، ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكبر من أن نطيع الله فيه، وقال معاوية رضي الله عنه: لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم، وحكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه، ومن نصائح سيدنا علي رضي الله عنه لولده الحسن رضي الله عنه: احذر الغضب، فإنه يسفه الحليم، ويطيش العالم، ويفقد معه العقل، ويظهر معه الجهل، وقد أحسن الإمام الشافعي حين قال:

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلمًا
وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه
ومن حقر الرجال فلن يهابا

فلا ينبغي للمسلم أن يخرج عن مشاعره المعتادة وسلوكه الهادئ من أجل سبب بسيط حتى لا يسقط من أعين الناس.

عدم الصراع على المادة

إن الرجل لا يزال في عزة وعلو مكانة حتى يجاري الناس في صراعهم على زخارف هذه الحياة الدنيا، فتدب إليه الأخلاق والصفات الذميمة التي نهى عنها الرسول ﷺ مثل الحرص والحسد والبغضاء، وكل هذا يكون بسبب المادة والرغبة في جمع المال والإكثار منه حتى ولو دفعه ذلك إلى الخصام وقطع الأرحام.

وقد رهب القرآن الكريم من الصراع على هذه الحياة الدنيا لأنها زائلة وفانية، قال الله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ (الحديد:٢٠).

ورغبنا في الآخرة لأنها باقية، قال تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت:٦٤)، والحيوان هي الحياة الدائمة الباقية.

والمؤمن يترفع دائمًا عن الصراع على المادة والرغبة في جمع المال والإكثار منه، والنبي ﷺ كان أجود الناس، وكان دائمًا ما يحث أصحابه على الزهد في هذه الدنيا، والزهد معناه جعل الدنيا في الأيدي وليست في القلوب، وبين النبي ﷺ لنا أقصر طريق لنيل حب الله وحب الناس في وقت واحد، فقد روى ابن ماجة وغيره عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس؟ فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»، والصراع على المادة والحرص على جمعها يفسد على الإنسان دينه، فقد روى الترمذي بسند حسن صحيح عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

فينبغي للمسلم أن ينتبه لما يضره فيتجنبه، ولا يدخل نفسه في صراع على هذه الحياة الدنيا، فهي لا تستحق الصراع ولا النزاع عليها، فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه (عن جانبيه)، فمر بجدي أسك (صغير الأذن)، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال:

«أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ ثم قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا، إنه أسك، فكيف وهو ميت، فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء».

وما أجمل القول في هذه الحياة الدنيا:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن
إذن لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة
وقد شبعت فيها بطون البهائم

الرحمة شعار تعاملك

لقد سمى الله تعالى نفسه بالرحمن الرحيم، وجعل هاتين الصفتين آية من سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب وأساس القرآن، كذلك وصف الله تعالى نفسه بالرحمة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم حيث قال سبحانه: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ (الأعراف: ١٥٦)، وقال عز من قائل: ﴿إن الله كان بكم رحيمًا﴾ (النساء: ٢٩)، كذلك فإن السنة الشريفة مليئة بالأحاديث التي تحث على الرحمة والتعامل بها، فقد روى أبوداود والترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، والرحمة خلق يتعامل به الخلق جميعًا، العاقل منهم وغير العاقل، فقد روى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لله مائة رحمة، قسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق، به يتراحم الناس والوحش والطير»، فالرحمة تشمل الوالدين في الحياة وبعد الممات، قال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾ (النساء: ٣٦)، فليس أقل من الرحمة كأسلوب للتعامل معهما جزاء ما قدموا وسهرا وتعبا، هذه الرحمة تكون في الحياة بالإحسان إليهما والرفق واللين في معاملتهما، وطاعتهما في المعروف، وبعد الممات تكون بالدعاء والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما، والصدقة عليهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وقد جعل الله تعالى الدعاء لهما بالرحمة قرآنًا يتلى إلى قيام الساعة، قال تعالى:﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا﴾ (الإسراء:٢٣)، والرحمة بالأبناء وبالزوجة لها شأن عظيم، إذ إن أسس العلاقة الزوجية هي السكن والمودة والرحمة، قال سبحانه:﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (الروم: ٢١)، فالتعامل بين الزوجين يجب أن تعلوه الرحمة، من أجل حياة هادئة هانئة، وفق منهج الله ورسوله، والرحمة بالأبناء حث عليها النبي ﷺ، فقد روى مسلم وأبوداود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قبَّل الحسن والحسين وعنده الأقرع بن حابس التميمي فقال: «إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فقال له الرسول ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحم»، كذلك فإن الرحمة تشمل الأقارب الذين سماهم الله تعالى بأولى الأرحام، قال تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ (الأحزاب: ٦).

وقد رغب الرسول ﷺ في صلة الرحم، فقال فيما رواه البزار والحاكم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من سره أن يمد له في عمره، ويوسع له في رزقه، وتدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله وليصل رحمه»، وحذر الله من قطع الرحم فقال تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ (محمد: ٢٢)، وروى البخاري ومسلم من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع» (يعني قاطع رحم)، ولا تعجب إن قلنا: إن الحيوانات والطيور نالت جزءً من رحمة الإسلام، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة سجنتها حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» كذلك حرم الإسلام أن يتخذ الطائر غرضًا بغير منفعة، فقد روى النسائي وابن حبان عن الشريد بين السويد أن الرسول ﷺ قال: «من قتل عصفورًا عج (اشتكى) إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب، إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة».

والرحمة ينبغي أن تسود المجتمع الإنساني بأثره على اختلاف مله ونحله، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: «إنه ليس رحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة» (رواه الطبراني)، أما الرحمة مع غير المسلم فهي دعوة صادقة لبيان صورة الإسلام، ما لم يحدث منهم

ظلم أو بغي، وما انتشر الإسلام في سائر أقطار الأرض إلا بمثل هذا الخلق الحسن، السيرة النبوية العطرة مليئة بمواقف شتى تظهر رحمة النبي ﷺ بغير المسلمين، وموقفه من أهل الطائف، وموقفه من قريش يوم الفتح خير دليل على ذلك، وكان الرسول ﷺ يوصي قادة الجند وأمراء الجيوش بالتعامل بالرحمة حتى أثناء الحرب، فقد روى مسلم عن سليمان بن بريدة أن النبي ﷺ أوصى أحد قادة الجند في إحدى السرايا قائلاً له: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من صد عن سبيل الله، ولاتغالوا ولاتغدوروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا طفلاً ولا تحرقوا نخلاً ولا تخربوا عامرًا، فهذه رحمة الإسلام بالمحاربين وأترك للقارئ الكريم المقارنة بما يحدث في حروب ونزاعات اليوم وما فيها من قسوة وهمجية تأتي على الأخضر واليابس.

فما أسعد البشرية إن هي تعاملت بالرحمة التي هي عنوان ديننا الإسلامي الحنيف.

كن سليم الصدر

هل تستطيع أن تكون كذلك؟ وأن تتحصل على هذه المزية التي لا يقدر عليها إلا من صفا قلبه، وصفح عن المسيئين إليه؟ فكم من الآيات تحدثت عن الصفح الجميل والصبر الجميل والدفع بالتي هي أحسن، الذي لا يعقبه انتقام للنفس ولا انتصار للهوى، قال الله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ (الحجر: ٨٥)، ولقد نهى النبي ﷺ عن سوء الظن الذي هو ناتج عن تشويش ووسواس في الصدر، فقد روى البخاري في صحيحه والترمذي في سننه وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا

المؤمن يترفع دائماً عن الصراع على المادة والرغبة في جمع المال

ولاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

وحتى يصل المسلم إلى سلامة الصدر عليه أن يحسن الظن بالله أولًا ثم بإخوانه، كما يجب عليه أن يلزم القرآن الكريم لأن شفاء الصدور في تلاوته وتدبره والعمل به، كذلك عليه أن يرضى بما قسم الله وقدر فإن في الرضا اطمئنانًا للنفس وراحةً للقلب، والصدقة تعالج كل داء، كما أن الصوم يذهب وحر الصدر (أي الغل)، وقبل ذلك وبعده فإن اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء في جوف الليل أن يجعل القلب تقيًا نقيًا خاليًا من كل وسواس خناس، طاهرًا من كل حقد وغل للمؤمنين، وعلى المؤمن أن يتذكر دائمًا أن رسولنا ﷺ كان أنقى وأصفى الناس سريرة، وتشبه به الصحابة الأطهار- رضوان الله عليهم- فهذا أبودجانة رضي الله عنه دخل الناس عليه وهو مريض فرأوا وجهه يتهلل ويستبشر، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ قال: ما من عمل أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى كان قلبي للمسلمين سليمًا، وهذا ابن عباس- رضي الله عنهما- عندما شتمه رجل قال له: إنك لتشتمني وفيَّ ثلاث خصال: إني لآتي على الآية في كتاب الله عز وجل فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع أن الغيث قد أصاب بلدًا من بلدان المسلمين فأفرح به، وما لي به من سائمة».

فكن سليم الصدر تكن من أهل الجنة كهذا الرجل الذي بشره النبي ﷺ بالجنة، فقد روى أحمد في مسنده بسند جيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا مع الرسول ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف (تقطر) لحيته من وضوئه، وتكرر ذلك ثلاثة أيام... الحديث» فلما تتبعه عبدالله بن عمرو بن العاص وراقب عمله الذي أوصله إلى هذه المنزلة، فلم يجده كثير صلاة ولا كثير صيام فسأله عن هذا السر، فقال له هذا الرجل: لا أزيد على عملي إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه، فقال له عبدالله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.

تلطف في النصيحة

لا تتوقع من كل من تدعوه إلى الهدى أن يقول لك: سمعنا وأطعنا، ولو كان الأمر بهذه السهولة ما تعب أحد، وما تعدد إرسال الرسل من قبل الله تعالى، لذلك عليك أن تتوقع الرفض والمعارضة والجدال، فكما أنت تحب الهدى والرشاد فإن الآخر يزين له الشيطان عمله، فعليك أن تتودد وأن تتلطف في النصيحة، فما عليك إلا التذكرة بأسلوب هين لين، فإن الله تعالى أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يلينا القول لأعتى المجرمين فرعون قال تعالى: ﴿فقولا له قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه:٤٤)، كذلك نبه النبي ﷺ لمثل هذا فقال له ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران: ١٥٩).

هكذا يكون التعامل مع الناس، من أجل هداية قريبة ومن أجل رحمة مرجوة من الله تعالى.

خصوصية المرأة في كتابة قصص الأطفال

عبدالباقي يوسف

العلاقة بين الأم والطفل هي علاقة وثيقة وقويمة بدرجة تؤهل الأم لمخاطبة الطفل بشكل أكثر تأثيرًا من الرجل، ذلك أن الطفل يتعرف على رائحة الأم قبل أن يتعرف على رائحة الأب، ويسمع خفقات قلب الأم قبل أن يسمع خفقات قلب الأب، ويسمع صوت الأم قبل أن يسمع صوت الأب.

أريد أن أقول هنا بأن المرأة يحالفها النجاح في توجيه الطفل بدرجة أعلى من الرجل، ذلك أن المرأة تمضي مع الطفل فترة أكثر من الرجل، وهي تتحاور مع الطفل أكثر مما يتحاور الرجل، كذلك فهي تحمل الطفل وهو جنين وتعقد علاقة أولية معه لمدة تسعة أشهر، وهذا ما لايكون للرجل.

حتى في البيت يمكن أن نلاحظ بأن المرأة تستوعب الطفل أكثر من الرجل، ويمكن للرجل أن ينفر من إزعاجات ابنه، أو من بكائه الطويل في الليل، فيخرج إلى غرفة أخرى ليبتعد عنه ويحقق لنفسه راحة وسكينة، بيد أن المرأة لايمكن لها أن تفعل ذلك، بل تبقى تتحايل على طفلها بكل الوسائل، وتهدهده حتى ترضيه ويغفو بين يديها.

إنها لاتتهرب من مسؤوليتها عندما يهرب الأب من مسؤوليته، وتصبر على طفلها عندما ينفد صبر الأب، ولذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبة طفلها قصصيًا بدرجة أكثر قربًا من الرجل.

أقول طفلها لأن أي امرأة عندما تنظر إلى أي طفل في العالم، ينتابها إحساس بأنه جزء منها بسبب المعاناة المشتركة التي تشترك فيها نساء العالم، وبسبب مشاعر الأمومة الفطرية المشتركة بين النساء كافة سواء أكن أمهات، أم كن عانسات، أم كن فتيات.

شخصية الأم تذكرنا بسنوات الطفولة أكثر مما تذكرنا شخصية الأب

أقول مشاعر الأمومة الفطرية المشتركة، لأن مشاعر الأب هي مشاعر مكتسبة بالمقارنة مع مشاعر الأم، كونه لايشعر بمعنى الأبوة الحقيقية إلا بعد ولادة الطفل، ونموه، ومداعبته، والتعرف على ملامحه، وكلما كبر الطفل، أكسب الأب مشاعر مسؤولية الأبوة، بينما الأم تطعمه وتسقيه، وتعالجه، وتداعبه، وتحدثه قبل أن تراه رأي العين، وهي بذلك لا تزداد أمومة له فقط، بل تزداد حنانًا له أيضًا، هذا الحنان الذي يجعلها تفدي طفلها بعمرها من خلال كلماتها اليومية معه، في حين لا يجعل الأب من نفسه قربانًا لابنه على الأقل من خلال الألفاظ كما تفعل الأم بمسرة.

متابعة الأم لمراحل نمو الطفل

في الشهر الأول: تنظر إلى يديه القريبتين من بعضهما، وتشابك أصابعه.

في الشهر الثاني: يبدأ يرفع رأسه، وينظر إلى الحركات من حوله، وترتسم على شفتيه بسمة صغيرة.

في الشهر الثالث: يحرك قدميه، ويمص أصابعه، يكثر البكاء.

في الشهر الرابع: يرفع رأسه بشكل جيد، ويريد أن يتحرك في محاولة ليتقلب على يمينه أو يساره، يضحك بصوت واضح.

في الشهر الخامس: يستقيم ظهره والأم تحاول أن تجلسه، يحدق في الوجوه وكأنه يبدأ في تمييزها.

في الشهر السادس: تنظر إليه وهو ينقلب على بطنه ويحاول أن يرفع جسده بواسطة يديه، وتتابع تشكّل أسنانه اللبنية المؤقتة.

مؤلف وكاتب قصص الأطفال

في الشهر السابع: توقفه على قدميه، فيلبث واقفًا بمساعدتها، ينتزع الدمى والألعاب من يديها، وتسمعه لأول مرة يلفظ: مم.. أي.. آه.

في الشهر الثامن: توقفه على قدميه، وتدعه لبريهات فيميل، تمد يديها لتسنده وهي تدربه على الوقوف، يعتمد على يديه في مسك زجاجة الحليب، ينقلها من يد إلى أخرى.

في الشهر التاسع: تراقبه وهو يزحف بشكل جدي على يديه وقدميه، يقول: ما.. با.. دا.

في الشهر العاشر: يقف على قدميه بمساعدة أقل منها، يحاول أن يقلدها في بعض الحركات، يبحث بيديه عن الدمى والألعاب.

في الشهر الحادي عشر: تمسك به من الخلف فيمد خطواته نحو المشي وهو يقول: ماما.. دادا.

تضع خيطا في أسفل قدميه ليقطع الخيط ويمد خطواته.

بعد شهر يمد خطوات المسير بشكل أفضل ويبتعد عنها، يرفع الملعقة ويأكل بها، ويصفق لأول مرة.

في الشهر الخامس عشر يرفع جسده إلى الأرجوحة، وينزل منها، يصر على بعض الأشياء التي يريدها.

بعد ثلاثة أشهر تلاعبه، ويركض، يسمّي بعض الأشياء التي يراها.

إنها تعيش كل هذه المراحل مع طفلها، وتتابعه خطوة بخطوة، لذلك يمكننا ببساطة ملاحظة امرأة في أي شارع من شوارع العالم، أو في أي حافلة، تتقدم نحو طفل وتأذن أمه حتى تظفر منه بقبلة، وقد تبيّنتُ لي هذه الحقيقة من خلال التجربة الشخصية بعد ولادة ابنتي «روهات» التي هي مع كتابة هذه السطور في سنتها الثالثة والنصف، وولادة ابني «لوند» الذي هو في سنته الأولى والنصف، أذكر هذا لأنني ما أزال في ذروة المشاهدة اليومية لِما تبيّن، ويتبيّن معي.

لاحظتُ هذه الحقيقة التي لفتت نظري بسبب التكرار، ولأننا نسافر كثيرًا، يمكنني القول بأن آلاف النسوة تقدمن من زوجتي وهن يقلن: أتسمحين يامدام أن أقبلها.

ثم تأتي امرأة اخرى وهي تنظر إلى أخيها قائلة: أتسمحين يامدام أن أقبله؟

وعند الموافقة أرى المرأة تحمل الطفل في حضنها، وتقبله، ثم تعطيه هدية صغيرة مثل قطعة سكر، أو شوكولا، أو بسكوت، عندئذ أرى بأن صدر المرأة انشرح وهي تمضي بسرور.

وما كان يحدث بتكرار مع ابنتي، يحدث الآن مع ابني لأنه يجذب عيون النساء أكثر بسبب صغر سنه.

أذكر هذه الوقائع الشخصية لأنني أرغب في أن أعزّز فكرة إمكانية توجيه الأم للطفل بدرجة أبلغ وأعمق مما قد يقوم به أي رجل في العالم، في الوقت الذي لا أكاد أذكر فيه رجلًا واحدًا تقدم من زوجتي واستأذنها كي يظفر بقبلة من ابنتي أو من أخيها مقارنة بكل تلك الأعداد الهائلة من النسوة المختلفات الأعمار والمواقع والألوان واللغات والأديان.

وأمام جواب واحد كنتُ أردد لنفسي: الرجل الذي يتهرب من مسؤوليته الأبوية بعد منتصف الليل، لا يصعب عليه ألاّ تنتابه مشاعر أبوية تجاه طفل رآه صدفة في حافلة نقل مّا، أو في حانوت مّا.

إذن، هذا الرجل إذا كان مربيًا للأطفال، هل سيبلغ المبلغ الذي تحققه المرأة في التعبير عن عالم الطفل، وفي اعتقادي أن الأمومة ذاتها هي لمسة ناعمة قادمة من بستان الطفولة، في حين أن الأبوة هي كلمة تحتمل الخشونة والرعونة أكثر مما تتسع لها كلمة «الأمومة».

من جهة أخرى، فإن شخصية الأم تذكرنا بسنوات الطفولة أكثر مما تذكرنا شخصية الأب، فإذا نظرنا إلى أمهاتنا، تذكرنا ملامح الطفولة وفيض براءتها، وفصول سنواتها.

لذلك فإن أول ما يوجه للرجل العاق لأمه: تذكّر بأنها حملتك تسعة أشهر في بطنها، وأرضعتك حليبًا من ثديها.

بمعنى تذكّر سنوات طفولتك فيها، ولا تنس تلك البصمات الخالدة التي تركتها على بدنك، وعلى نفسك أيضًا.

فضل ممارسة الألعاب الرياضية لأطفالنا

د. نانى علي إبراهيم

يحرص الكثير من الآباء والأمهات على تشجيع أطفالهم على ممارسة الألعاب الرياضية المختلفة، وذلك في الأندية والساحات الشعبية وغيرها وهذا يدفعنا للتساؤل: إلى أي مدى يمكن للطفل أن يشارك في الرياضات المختلفة؟ وكم عدد الساعات التي يتحملها جسمه من التدريب؟ ما هي أهم الاحتياطات التي يمكن أن يتبعها الأهل حتى نجني الفائدة المرجوة من ممارسة الرياضة دون المساس بصحة أطفالنا ولتجنب الأضرار التي تنجم عن الإفراط في بذل المجهود؟ كيف نختار اللعبة الرياضية المناسبة للطفل؟

أولا: عندما يطلب المدرب إحضار شهادة طبية بعدم وجود ما يمنع من ممارسة الطفل واللعبة الرياضية فلابد من إجراء الكشف الطبي الدقيق وعمل التحاليل الطبية اللازمة، التي تؤكد سلامة جميع أعضاء جسمه وقدرته على ممارسة نشاط اللعبة الرياضية، والابتعاد عن تقديم شهادة طبية روتينية دون كشف أو عمل التحاليل المطلوبة.

وهذا من أجل صحة الطفل أولا لأنه إذا تبين من خلال الكشف أو التحاليل وجود مانع مرضي، فإنه بالتالي سيتم علاجه، وفي الوقت نفسه لا يؤذي أقرانه إذا كان المرض معديا.

ثانيا: عندما تختار الأسرة اللعبة الرياضية التي يمارسها الطفل لابد أن تتعرف على مدى قدرته على ممارستها بالفعل، فالطفل قليل الوزن والحجم لا ينصح بممارسته الرياضات العنيفة نوعا ما مثل الجودو والكونج فو، وكذلك الطفل قصير القامة، لأسباب وراثية، لا ينصح أيضا بممارسته رياضة كرة السلة.

ثالثا: تعتبر رياضة السباحة متاحة لجميع الأعمار ولكن بشرط أن يعرف الأهل أن ممارسة الطفل أقل من ١٤ سنة للرياضة تكون لأسباب ترويحية وترفيهية،

وهذا هو المتبع في العالم فلا توجد بطولات للسباحة أقل من ١٤ سنة، لأن ممارسة الرياضة للحصول على بطولة تتطلب جهدا يفوق قدرة الطفل، خصوصا مع التدريبات اليومية طوال أيام الأسبوع ولساعات محددة يحددها المدرب، يزيد عددها باقتراب موعد البطولات.

رابعا: ضرورة تعويض الطفل بعد التدريبات المجهدة بقدر كاف من الراحة، والحرص على أن ينال قسطا وافرا من النوم الليلي، لايقل عن ٨ ساعات ليلا لأن نوم النهار لا يعوض نوم الليل، وبالتالي السهر مرفوض.

وقد يعتقد كثير من الآباء والأمهات أن زيادة ساعات نوم الطفل بالنهار يعوض قلة ساعات نومه ليلا، وهذا اعتقاد خاطئ ينبهنا إليه د.محمد التونسي، لأن هرمون النمو لدى الطفل يفرز فقط أثناء نومه ليلا طوال فترة نموه وحتى البلوغ، إلى جانب أن السهر ليلا قد يسبب خللا في دورة الكورتيزون بجسم الطفل، وهبوطا في ضغط الدم أثناء النهار.

خامسا: أن تهتم الأم بتغذية طفلها تغذية صحية سليمة في جميع الوجبات خاصة وجبة الإفطار المهملة في معظم البيوت، إما بسبب الذهاب المبكر إلى المدرسة أو الحضانة، أو نتيجة الاستيقاظ متأخرا أثناء الإجازة الصيفية نتيجة السهر مع الأسرة أو مشاهدة التليفزيون، وممارسة الألعاب الالكترونية وغيرها.

وينصح أطباء الأطفال بأن يحتوي غذاء الطفل على جميع العناصر الغذائية الرئيسية، خاصة الفيتامينات والمعادن الموجودة في الخضروات والفواكه الطازجة وكذلك البروتينات، كما أنه من المهم أن يحتوي غذاء الطفل المتدرب على حوالي ٦٠٪ مواد كربوهيدراتية حيث إنها مصدر السعرات الحرارية التي يحتاجها لممارسة الرياضة.

سادسا: الاهتمام بشرب الماء بكثرة خاصة في فترات الحر، بالإضافة إلى العصائر الطازجة والاستفادة من الأملاح

استشاري الأطفال بمستشفى الحميات- مصر

التي توجد في الخضراوات والفاكهة الطازجة والعصائر الطبيعية لصحة جسمه، ويراعى عقب التدريبات وقاية الطفل من التعرض للتيارات الهوائية كالمراوح أو أجهزة التكييف حتى لا يصاب بالمرض.

نصيحة أخرى

تعتقد الأسرة أن الطفل الذي يعاني الحساسية الصدرية أو الربو الشعبي، والذي يصاب بالأزمة عندما يقوم ببذل المجهود يجب منعه من ممارسة الرياضة وهذا اعتقاد خاطئ، فالرياضة في الحدود المعقولة مطلوبة بشرط أن يتوقف الطفل المصاب عن اللعب إذا أحس بالتعب، لأن الرياضة تؤدي إلى تفتح حويصلات الشعب الهوائية، كما أن السباحة تعتبر من أكثر الرياضيات المناسبة لمن يعاني من الحساسية الصدرية والربو لأنها تقوي عضلات التنفس.. ولكن مع الحرص دائما وحسب إرشادات الطبيب المختص على إعطاء الطفل الدواء المناسب الموسع للشعب الهوائية قبل ممارسة الرياضة بنصف ساعة.

وينصح الآباء والأمهات بأن يمارس أطفالهم أكثر من لعبة رياضية قبل مرحلة البلوغ لتنمية قدراتهم الحركية، وأن يوضع في الاعتبار دائما أن هناك فوارق بين الأطفال في القدرات الجسمية والفسيولوجية وأيضا النفسية يترتب عليها طريقة ونوعية وشدة التدريبات التي تناسب الطفل، ولذلك فليس هناك «روشتة» ثابتة للتدريب على رياضة معينة ولكن يوضع برنامج التدريب بما يتناسب مع قدرات الطفل المتدرب.

وعموما فإن التدريب على لعبة رياضية بهدف تعلمها وممارستها يختلف عن التدريب بهدف الدخول في المسابقات والحصول على بطولات.

ثرثرات عجوز طيبة

محمد محمود غدية

تجاوزتْ من العمر الكثير.. لاتعرف متى ولدت! ولا كم عمرها! لكنها تعرف الكثير من الحكايات المدهشة ترويها في عذوبة بالغة.. أستأذنكم في أن أنقل عنها بعض الحكايات الطريفة.

الحكاية الأولى

العريس والعروس في فترة الخطوبة، كل منهم ينتقي أجمل وأرق الألفاظ، هو يتكلم وهي تسمع، وبعد عقد القران هي تتكلم وهو يسمع.. وبعد الزواج.. يتكلمان معا في وقت واحد.. ويسمعهم كل الناس.

الحكاية الثانية

تسكن بجوارهم جارة سيئة الطباع، تتشاجر مع جيرانها طول الوقت بسبب ودون سبب حتى ضاق بها الجميع، قالت يوما لجارتها: سننتقل للسكن في مكان أفضل، ردت جارتها قائلة: ونحن سنسكن في حي هادئ.. قالت: هل ستنتقلون مثلنا؟ أجابت: لا، لكن هكذا سيكون حال المكان بعد رحيلكم.

الحكاية الثالثة

عجزت الأم عن إقناع طفلها المريض بتناول حبة الدواء شديدة المرارة التي رفضها الطفل، فأخفتها في قطعة حلوى وأعطتها له، وشغلت في أعمال المنزل ثم سألته: هل تناولت الحلوى؟ أجاب الطفل: نعم، بعد أن أخرجت منها البذرة وألقيتها في القمامة.

الحكاية الرابعة

أوقف أحدهم سيارته أمام منزلنا.. وألقى بعلبة عصائر فارغة، أخذتها حفيدتي ذات السنوات العشر، وكان تلعب أمام المنزل، وتوجهت بها لصاحب العربة قائلة: ألا تريدها؟ قال: لا، قالت: ولا نحن.. وألقتها داخل سيارته.

الحكاية الخامسة

كريم الحفيد الصغير، دأب على تقليد والده في ارتداء بدلته التي يختفي بداخلها، ذات يوم ارتدى حذاء والده وأخذ يدور بداخله حتى تعثر وسقط وجرح.. بعدها تعلم ان ارتداء أحذية الكبار وملابسهم لا يجعلنا مثلهم ولا يزيد في الخطو وانما يعرقل السير، تقليد الكبار في تفوقهم وأحلامهم.. لا في ملابسهم.

آخر الحكايات

انهمرت الدموع من عيني العجوز الطيبة المنطفئتين كالمطر المباغت والإعصار، انسكبت في داخلنا.. أربكتنا وأبكتنا وأوجعتنا وهي تطلب منا حث أولادها على البر بها، لا تريد اتصالاتهم الهاتفية الباردة المتباعدة، يموت منها جزء كل يوم في غياب الألفة والدفء.

كاتب صحافي

مكتبات قرطبة العامرة

محمد شعبان
باحث في التراث

كلما مررت بتاريخ الأندلس شعرت بأن ثمة حضارة لا يجب أن تخبو جذوتها في عقل وضمير القارئ العربي والمسلم؛ ذلك لأن هذا التاريخ الساحر والدافئ، الذي تنساب كلمات أبنائه عنه انسيابًا، يشل حركة المتلقي فلا يستطيع أن يتحرك يمنة أو يسرة من حلاوته وطلاوته، فأسطر المؤلفات الأندلسية لا تكاد تخلو من الإبداع في التاريخ والتراجم والأدب والعلوم والمؤلفات الفقهية والتشريعية.

هذا الإبداع ما كان ليظهر وينتشر ويترك الأثر في أبناء الحضارة الأندلسية إلا بوجود عوامل مساعدة، ألهبت الحماسة، ونشرت المعارف والعلوم، وقدمت الميراث الثقافي في صورة ميسرة لمن أراد أن يستكمل المسيرة التربوية والثقافية والحضارية للإسلام عامة.

لقد كانت المكتبات هي المحاضن المناسبة لهذا التراث الماضي الذي استفاد به الأندلسيون وشغفوا به، حتى كانت المنطلق لإظهار علوم جديدة، أكملت المنظر العام للثقافة الأندلسية، وحسبنا في هذه الصفحات القليلة أن نقف مع الكتب والمكتبات في قرطبة وحدها لنعلم مقدار عظمة ومجد هذه المدينة العريقة.

المكتبة الأموية

ما إن استقرت أحوال الأندلس تحت حكم عبدالرحمن الداخل (ت ١٧٢هـ)، حتى بدأ الاهتمام بالعلوم والثقافة والتربية، ففي عهد محمد بن عبدالرحمن الأوسط (ت٢٧٣هـ) بدأ المؤرخون يُشيرون إلى المكتبة الأموية كواحدة من أشهر مكتبات قرطبة، واشتهر عبدالرحمن الناصر (ت٣٥٠هـ) بحب الكتب، وبلغت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى بيزنطة، فحين أراد إمبراطورها قسطنطين السابع أن يستميل الخليفة الأندلسي، فكر أن يهدي عبدالرحمن الناصر أحب شيء إلى قلبه: كتابًا جديدًا لم يعرفه من قبل، فأرسل إليه كتاب ديسقوريدس في الطب «مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب، وكان الكتاب مكتوبًا بالإغريقي الذي هو اليوناني، وبعث معه كتاب هروسيس صاحب القصص، وهو تاريخ للروم عجيب» (١).

وفي ذلك الحين كان اثنان من أبناء عبدالرحمن الناصر، وهما: الحكم ومحمد، قد بدآ دراستهما تحت إشراف مؤدبين وعلماء كان لهم شهرة واسعة، ومن ثم استيقظت هوايتهما، حتى إن خوليان ريبيرا ذلك المؤرخ الإسباني الكبير كان يقول عنهما «إن مكتبة أبيهما لم تعد تشبع نهمهما، وتنافس كلاهما أيهما يستطيع أن يسبق الآخر في تكوين مكتبة أدق اختيارًا وأكثر عددًا، وبعد فترة توفي الأمير محمد، وورث أخوه الحكم مكتبته، وبوفاة عبدالرحمن الناصر والدهما أخذ الحكم مكتبته، وجمع المكتبات الثلاث في واحدة، وأصبحت هذه مكتبة القصر، وكان أسلافه من قبله قد أحاطوها بكل رعايتهم» (٢).

ولقد كان يعمل في مكتبة القصر، دون توقف، أمهر المجلدين في الأندلس، إلى جانب آخرين جيء بهم من صقلية وبغداد، ومعهم جمهرة من الرسامين والمزوقين والمنمقين، فكانوا يزخرفون الكتب بالزخارف الجميلة، بعد أن نسخها أدق الخطاطين لتقديمها إلى لجنة من كبار العلماء تقوم بمعارضتها وتصحيحها، وتدفع لهم الدولة مرتباتهم في سخاء.

وقد ذكر ابن الفرضي طائفة من هؤلاء العلماء الذين كانت مهمتهم تنحصر في مراجعة الكتب ومعارضتها وتصحيحها في المكتبة الأموية في قرطبة والزهراء، منهم الرباجي محمد بن يحيى الأزدي، قال عنه ابن الفرضي «كان فَقيهًا، إمامًا، موثوقًا أخذ كتاب سيبويه رواية عن ابن النّحاس، وكان جَيّد النظر، دقيق الاسْتِنْبَاط، حاذقًا بالقياس، نظر النّاسَ عنده في الإعراب، وأدّب عند الملوك، وَاسْتَأْدَبه أمير المؤمنين الناصر رضي الله عنه لابنه المغيرة، ثم صار إلى خدمة المُسْتَنْصر بالله في مقابلة الكتب وتوسع له في الجراية، وكان رجُلًا صَالِحًا متدينًا. وتُوفّي (رحمه

الله) في شهر رمضَان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» (٣).

وكان من بين هؤلاء المعارضين والمصححين الأديب اللغوي محمد بن الحسين الفهري القرطبي، وهو ناسخ ووراق، وقد تقدم أقرانه في حفظ الأدب والعلم باللغات، وقد استعمله الحكم المستنصر في مهمة علمية لمكتبته؛ فقد «تولى مع رفيقه محمد بن معمر الجياني نسخ ما لم يهذبه أبوعلي القالي من تأليفه الذي سماه «البارع» وتهذيبه مع أصوله التي بخطه وخطهما عما كتب بين يديه، وكان هو قد عمل فيه من سنة خمسين إلى أن توفي لسبع خلون من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وصحح منه كتاب الهمزة وكتاب العين، فلما كمل الكتاب وارتفع إلى الحكم المستنصربالله وأراد أن يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجتمع عليها من كتاب العين، فبلغ ذلك إلى خمسة آلاف وستمائة وثلاث وثمانين كلمة» (٤).

ومن الغريب والطريف أن الدولة كانت تستخدم الخطاطات من النساء في المكتبات والخزائن العامة، فقد كن مشتهرات بحذق هذه الصنعة، فعلى سبيل المثال اشتهرت الخطاطة الأندلسية «لُبنى»، وكانت كاتبة للخليفة الحكم المستنصر (ت٣٦٦هـ)، قال عنها ابن بشكوال: «كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عروضية، خطاطة جدًا. وتوفيت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة» (٥). وهناك «مزنة: كاتبة

المؤلفات الأندلسية لا تكاد تخلو من الإبداع في التاريخ والتراجم والأدب والعلوم الفقهية

الخليفة الناصر لدين الله. كانت حاذقة من أخط الناس، توفيت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» (٦)، وهناك فاطمة بنت زكرياء بن عبدالله الكاتب المعروف بالشبلاري، فهي كاتبة ابنة كاتب، قال عنها ابن بشكوال: «كانت كاتبة جذلة متخلصة عمرت عمرًا كثيرًا واستكملت أربعًا وتسعين سنة تكتب على ذلك الكتب الطوال، وتجيد الخط، وتحسن القول. ذكرها ابن حيان وقال: توفيت سلخ جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وأربعمائة. ودفنت بمقبرة أم سلمة وشهدها جمع الناس، ماتت بكرًا، رحمها الله» (٧).

ويصف لنا العلامة ابن حزم (ت٤٥٦هـ) ضخامة المكتبة الأموية، بحديثه الذي أجراه مع القائم بأعمالها في عهد الحكم المستنصر ويُدعى تليد الفتى، قال ابن حزم: «وأخبرني تليد الفتى- وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس- أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط» (٨). أي أن عدد فهارس المكتبة الأموية كان ٢٢٠٠ ورقة فيها أسماء المؤلفات فقط، وهذا دليل عظيم على مقدار ضخامة تلك المكتبة الملكية.

والحق أن تشجيع الناصر (ت٣٥٠هـ) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر (ت٣٦٦هـ) للعلماء والأدباء والفقهاء من كل صنف ونوع، قد ضخم المكتبة الأموية ضخامة جعلتها أعظم المكتبات في أوروبا في ذلك الوقت، فقد كان للحكم المستنصر «وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها، ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة. وكان مع هذا كثير التهمّم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلما تجد له كتابًا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم، يقرأه ويكتب فيه بخطه- إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه- نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثوقًا به مأمونًا عليه.. صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به. قلتُ (أي ابن الأبّار): وقد اجتمع لي من ذلك جزء مقيد مما وجد بخطه، ووجدتُ أنه يشتمل على فوائد جمة في أنواع شتى. وكان قد قيد كثيرًا من أنساب أهل بلده، وكلف

أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أُخمل ذكره قبل ولايته، وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك، ويؤلف من الكتب، ويرد كل ذي نسب إلى نسبه، وفرج ذلك بالعلم فتم له من ذلك ما أراد، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد» (٩).

مكتبات القرطبيين

إن مما يلفت الانتباه أن المكتبات كان لها دور عظيم في مسيرة التربية والتثقيف في الأندلس قاطبة، وفي قرطبة خاصة، ولم تكن المكتبات والخزائن حكرًا على الأسرة الحاكمة الأموية في قرطبة أو من بعد ذلك في عصر ملوك الطوائف أو المرابطين أو الموحدين أو عهد ملوك الطوائف الثاني أو في عهد الدولة النصرية في غرناطة، لقد انتشرت المكتبات في كل أرجاء الأندلس، وفي الأوقات كافة، قال ول ديورانت عن عدد المكتبات في الأندلس وحال علمائها «كان في الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة، وظل النحاة وعلماء اللغة وأصحاب الموسوعات والمؤرخون موفوري العدد والثراء» (١٠).

فمن جملة المكتبات التي اشتهرت في قرطبة، وكانت ملكًا لأحد أعرق وأرهب القضاة في تاريخ الأندلس، مكتبة أبي المطرف بن فطيس، عبدالرحمن بن محمد بن عيسى (ت٤٠٢هـ)، وكانت أعجوبة من عجائب قرطبة بلونها الأخضر في كل شيء، وهذا من الطرافة والجمال و«الديكور» الراقي الذي تمتع الأندلسيون به، وقد وصفها النباهي بقوله: «كان له بداره مجلس عجيب الصنعة، حسن الآلة، ملبس كله بالخضرة: جدرانه وأبوابه. وسقفه وفرشه وستوره ونمارقه، وكل ذلك متشاكل الصفات، قد ملأه بدفاتر العلم ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها؛ وبهذا المجلس كان أنسه وخلوته رحمه الله» (١١).

وكان لابن فطيس- رحمه الله- «ستة وراقين ينسخون له دائمًا، وكان قد رتب لهم على ذلك راتبًا معلومًا (أجرة)، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه، وبالغ في ثمنه، فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه وردّه عليه» (١٢). وكان له تقليد صارم، وحب زائد لكتبه ومكتبته، حتى إن حفيده يحكي عنه أنه «كان لا يعير كتابًا من أصوله البتة، وكان إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير فإن صرفه وإلا تركه عنده» (١٣).

ومما يُدلل على كبر حجم هذه المكتبة وغلاء الكتب التي كانت تحويها أنه عندما أجبر أولاده وأحفاده على بيعها في زمن الفتنة في قرطبة، فقد ظلت كُتبها تُباع مدة عام كامل، قال ابن بشكوال: «أخبرني حفيده أبوسليمان (أي حفيد ابن فطيس) أنه سمع عمه وغير واحد من سلفه يحكون أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وانه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية» (١٤).

لقد كانت قرطبة بحق عاصمة الأندلس في الكتب والمكتبات، وقد أثرت هذه الطفرة المعلوماتية في أهلها، حتى وسم الأندلسيون بأنهم أهل الكتب، قال ابن سعيد المؤرخ كلمات مهمة عن شغف القرطبيين بالكتب: « قال والدي: وهي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها، ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به» (١٥).

وهذا الرجل لا ينتسب لأسرة ابن حزم الشهيرة المعروفة التي منها الإمام ابن حزم رحمه الله.

لقد كان هذا المعلم المغمور يشتغل ساعات فراغه في نسخ الكتب التي يعيرها له أصدقاؤه، ورغم أن ظروفه

لا تتيح له ترف أن يستخدم لها خازنًا لكن ذلك لا يعني أنها كانت مهملة، أو غير مرتبة، أو يجهل قيمتها، وكان أدباء قرطبة يغبطونه على دقة مخطوطاته، وروعة بعضها، وندرة البعض الآخر، وقد أحضرها في رحلة له من المشرق استهدف بها هذه الغاية، ويمكن أن تراه في ملابس متواضعة، ويتناول طعامًا أشد تواضعًا، ولكن مكتبته تعكس بوضوح إلى أي حد يمكن أن يبلغ حب الكتب الجيد بصاحبه حتى عند أصحاب الدخول المحدودة، والأرزاق المتواضعة (١٦).

منافسة مستعرة!

مكتبة في البيوت أحد المظاهر الدالة على وجوب الاحترام والتوقير لذلك الشخص بين الأندلسيين، ويحدثنا الحضرمي أحد جماعي الكتب، وطلاب العلم عن منافسة بينه وبين رجل آخر في كتاب بحث عنه كثيرًا بقوله: "أقمتُ مرة بقرطبة، ولازمتُ سوق كتبها مدة، أترقبُ فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط جيد، وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيدُ في ثمنه فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلتُ له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي؟ قال: فأراني شخصًا عليه لباس رياسة. فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده. قال: فقال لي: لستُ بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمتُ خزانة كُتُب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيتُه حسن الخط، جيد التجليد استحسنته، ولم أُبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير. قال الحضرمي: فأحرجني وحملني على أن قلتُ له: نعم لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك، يُعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه!" (١٧).

لقد كانت قرطبة بحق عاصمة الأندلس في الكتب والمكتبات، وقد أثرت هذه الطفرة المعلوماتية في أهلها، حتى وسم الأندلسيون بأنهم أهل الكتب، قال ابن سعيد المؤرخ كلمات مهمة عن شغف القرطبيين بالكتب: " قال والدي: وهي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها، ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به» (١٨).

هذه هي حال الثقافة في العاصمة الأموية في الأندلس: قرطبة، تؤكد لنا بوضوح وجلاء أن من أراد تسنم الذروة العليا في الخافقين، وإعلاء شأن أمته في العالمين، عليه أن يبذل قصارى جهده في نشر العلم، وتحبيبه للناس عامة، أمثال أولئك القرطبيين الذين شغفهم العلم حتى كانت المكتبات العامة والخاصة أحد أهم الملامح العامة لمجتمعهم، بل لتفاخرهم فيما بينهم، ونعمت المفاخرة إن كان هدفها إعلاء قيمة العلم، وإثراء روح التربية العلمية والعملية والثقافية.

الهوامش

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا ص٤٩٣، منشورات دار الحياة- بيروت.
٢- خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر مكي ص١٥٦، الطبعة الثانية، دار المعارف- القاهرة، ١٩٩٤م.
٣- ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق عزت العطار ٧١/٢، مطبعة المدني- القاهرة، ١٩٨٨م.
٤- أبوعبدالله القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبدالسلام الهراس ٢٩٨/١، دار الفكر للطباعة- لبنان، ١٩٩٥م.
٥- ابن بشكوال: الصلة، تحقيق إبراهيم الإبياري ٣/ ٩٩٢، ترجمة رقم ١٥٤١، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري- القاهرة، ١٩٨٩م.
٦- ابن بشكوال: الصلة ٣/ ٩٩٢، ترجمة رقم ١٥٤٢.
٧- ابن بشكوال: السابق ٣/ ٩٩٤، ترجمة رقم ١٥٤٨.
٨- ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس ٢/ ٢٠٣، الطبعة الثانية، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٥م.
٩- ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٢٠٣.
١٠- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود ٥/ ٤٧٣٨، الهيئة العامة المصرية للكتاب- القاهرة، ٢٠٠١م.
١١- النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ص٨٨، الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ١٩٨٣م.
١٢- ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٤٦٧، ترجمة رقم ٦٨٩.
١٣- ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٤٦٨.
١٤- ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٤٦٨.
١٥- القضاعي: التكملة لكتاب الصلة ١/ ٢٣١.
١٦- خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص١٦٥.
١٧- المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس ١/ ٤٦٣، دار صادر- بيروت، ١٩٦٨م.
١٨- المقري: نفح الطيب ١/ ٤٦٢، ٤٦٣.

الشيخ محمد محمود الحامد الحموي

تركي النصر

ولد الشيخ العلامة محمد بن محمود الحامد في العام ١٣٢٨هـ بمدينة حماة وسطًا بين أخوين شقيقين، أكبرهما شاعر حماة بدرالدين الحامد، وأصغرهما عبدالغني الحامد، وكلاهما اشتغل في تدريس العربية.

كان والده الشيخ محمود الحامد في بلده موضع التقدير والتوقير من أهل حماة، وتوفي- رحمه الله- ولما يبلغ ابنه الشيخ محمد السادسة من عمره، ثم فجع الشيخ بوفاة أمه بعد سنة من وفاة والده، فذاق مرارة اليتم مبكرًا، ولم يكن من بين إخوته من يصلح للتكسب إذ كان أكبرهم في الخامسة عشرة، وكلهم في نطاق الدراسة، فتكفلهم بعض أهل الصلاح من أقربائهم، فعاش الشيخ مع إخوته بمرارة وحرمان، حيث كان يبقى دون طعام الساعات الطوال، الأمر الذي اضطر أكبر إخوته لترك دراسته لمساعدة إخوته في دراستهم.

على أن هذا المأزق الصعب لم يقطع اليتيمين عن الدراسة، فقد حزم بدرالدين عزمه على تعليمهما مهما لقي في ذلك من العنت، وقد ركز اهتمامه بوجه خاص على محمد، لما كان يبدو عليه من ملامح الذكاء والاجتهاد، وخاصة بعد أن رأى تفوقه على سائر رفاقه، وهكذا أتيح له أن يتنقل من صف إلى آخر من المدرسة الابتدائية، حتى فرج الله كربة الحرب، وعين بدرالدين معلمًا في العام ١٩٢٠، فكان في راتبه متسع لتوفير حياة أيسر لهم جميعًا.. وكان المأمول أن يتابع محمد دراسته بعد إنهائه المرحلة الابتدائية في القسم الإعدادي، بيد أنه لم ينسجم مع ذلك الجو الجديد، وظل متطلعًا إلى إيثار التعليم الشرعي في حلقات الشيوخ، فاستجاب له أخوه، وألحقه بدكان خياطة فكان يعمل فيها نهاره، فإذا جاء المساء قصد إلى دروس العلماء في المساجد، واستمر على ذلك حتى افتتحت مدرسة «دار العلوم الشرعية» فما لبث أن هجر الخياطة إليها، مع استمراره في حضور تلك الحلقات.

أبرز شيوخه في حماة

كانت فترة دراسة الشيخ في «دار العلوم الشرعية» من أسعد مراحل حياته، لما فيها من ملازمة مشايخه الذين كانوا أحب الناس إليه ومنهم خاله العلامة السلفي الشيخ سعيد الجابي، والشيخ العلامة محمد توفيق الصباغ الشيرازي، شيخ الشافعية ومدير دار العلوم في حماة، والعلامة الشيخ محمد سعيد النعساني، مفتي محافظة حماة، والشيخ العلامة أحمد المراد، والد زوجته، وكان له أكبر الأثر في حياته حيث اعتنى به وأحسن تربيته وتعليمه، وزوجه ابنته... وغيرهم.

أنهى الشيخ- رحمه الله- دراسته في حماة سنة ١٩٢٨م، ثم ذهب إلى حلب يبحث فيها عن مجالس العلماء، فوفقه الله للانتساب لأرقى وأقوى المدارس علمًا في سورية آنذاك، وهي المدرسة الخسروية، حيث أبدع الشيخ فيها وظهرت مواهبه وقوّته العلمية وتفوقه على أقرانه، الأمر الذي لفت إليه أنظار مشايخ وعلماء المدرسة، فأثنوا عليه وشجعوه، ودعوا له بالخير.

كان الشيخ- رحمه الله- يحرص بشدة على شهود الدروس العلمية التي تلقى في مساجد حلب، فكان يداوم على دروس علامة حلب الشيخ نجيب سراج الدين الحسيني- رحمه الله تعالى، ولم يقتصر في دراسته على المناهج الرسمية بل كان يطالع الكثير من المصنفات، يدفعه إلى ذلك شغفه العلمي، وحرصه على بناء شخصيته العلمية بناءً كاملًا.

وفي أثناء وجود الشيخ في حلب كان كثير الحنين لمدينته حماة، عُرف ذلك منه لكثرة ذكرها، ونظم الشعر فيها ومنه:

آهًا على وادي حماة
إذا نسيم الصبح هبا
آهًا على تلك الربوع
وأهلها بعدًا وقربًا
النهر يخترق الرياض
وقد جرى حلوًا وعذبًا

إمام وخطيب في وزارة الأوقاف الكويتية

دولابـــه يبكـي ويسـقي
الـدمـعُ فـاكـهـة وأبـا
أنـــى أرى ذاك الحمـى
إنـي رأيـت البعـد صعبـا
مـذ غبتُ عنه بكى الفـؤاد
ومـات هـذا القـلـب كربـا
يـا مـن بقـلـبـي ودُّهـم
وبحـقـهـم لـم أجـن ذنبـا
لا تـقـطـعـوني إنـنـي
قـد كنـت والله المحبـا

أبرز شيوخه في حلب

الشيخ العلامة الفقيه أحمد الزرقا، والشيخ العلامة أحمد الكردي مفتي الأحناف في حلب، والشيخ العلامة إبراهيم السلقيني، والمؤرخ الشيخ محمد راغب الطبّاخ، والشيخ أحمد الشماع، والشيخ المحقق فيض الله الأيوبي الكردي، ومفتي الشافعية في حلب الشيخ محمد أسعد العبجي... وغيرهم من المشايخ والعلماء.

ومما يذكر في مرحلة وجود الشيخ في حلب هو التغير في بعض أفكاره ومنهجه العلمي، حيث تأثر بأفكار شيخه محمد أبوالنصر خلف- رحمه الله- بعد أن كان شديد التأثر بفكر خاله العلامة السلفي الشيخ سعيد الجابي.

الشيخ في مصر

أنهى الشيخ- رحمه الله- دراسته في حلب، وفي سنة ١٣٥٣هـ، عاد إلى حماة التي لم تنعم كثيرًا بمكثه فيها، حيث سافر منها إلى القاهرة، وفيها التحق بجامعة الأزهر التي أثبت فيها مكانته العلمية فجذب أنظار العلماء وطلاب العلم، واشتهر بينهم بالشيخ الحموي، وحصل على شهادة «العالمية» وأتبعها بتخصص القضاء، وعلى الرغم من توافر الفرص أمامه للالتحاق بالدراسات العليا مع رفيقه وزميل دراسته الشيخ مصطفى السباعي ومع الشيخ محمد نمر الخطيب؛ إلا أن الشيخ أبى إلا اللحاق بمسقط رأسه.

وعندما غادر مصر إلى حماة سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م كان شديد الحزن على فراق إخوانه بها، وبكى على هذا الفراق، في عدّة قصائد، ومنها قوله:

ذبت يا مصر مذ عزمت رحيلًا
ولو استطعت عشت فيك طويلًا

تابع الشيخ- رحمه الله- رحلته العلمية، وكان كثير المطالعة، ويسر الله له أن يستلم حجرة في الجامع الجديد، وجعل منها مكانًا لدارسة العلم ومدارسته، كما بدأ- رحمه الله- يلقي دروسه العامة.

في سنة ١٣٥٣هـ عهد إليه الشيخ أحمد المراد- رحمه الله- بالتدريس مكانه في الجامع الجديد، كما درَّس وخطب في جامع السلطان بطلب من الشيخ أديب الحوراني- رحمه الله- وأصبح هذا الجامع مركزًا لنشاطه العلمي.

أقوال العلماء فيه

قال الشيخ علي الطنطاوي- رحمه الله: «كنت أخالف الشيخ الحامد في مسائل الفقه... وأشهد مع ذلك أن الشيخ كان صادقًا مع الله، صادقًا مع نفسه، وقد جعل الله له من الأثر في الناس ما لم يجعل لعشرات من أمثالي أنا».

عودته إلى حماة وجهاده

في عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٢م عاد رحمه الله إلى حماة، وبدأ يطالب باستقلال بلاده، حيث كانت البلاد في ذروة جهادها الوطني الذي كان يذكيه الشيخ بخطبه الحماسية، داعيًا إلى الثورة على المستعمرين، وتطهير البلاد منهم، وفي المأساة الفلسطينية تألم الشيخ كثيرًا، وأراد أن يخرج بنفسه، ولكن كبار العلماء أشاروا عليه بالبقاء لحاجة الأمة إليه، ولكثرة عدد المجاهدين، ولقد استحوذت قضية فلسطين على اهتمامه، فخصص لها الكثير من خطبه المنبرية، وفي عام ١٩٥٦م أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر انضم الشيخ إلى صفوف المقاومين الشعبيين، وحمل السلاح بنفسه، وكان يخرج على رأس إحدى المجموعات إلى حقول التدريب.

لقد وقف الشيخ نفسه وجهوده على توعية المسلمين بحقائق دينهم، ليل نهار، خطيبًا ومدرسًا ومناقشًا ومؤلفًا، لا يهادن أحدًا في حق الإسلام، ولو كان أقرب الناس إليه وأعزهم عليه، وكثرت ردوده حتى على أحبابه.

مؤلفاته

للشيخ رحمه الله الكثير من المؤلفات منها ما هو مطبوع ومنها بخطه رحمه الله، أشهرها:

نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام، ردود على أباطيل، كتاب في تحريم نكاح المتعة في الإسلام، حكم الإسلام في الغناء، رحمة الإسلام للنساء، آدم لم يؤمر باطنًا بالأكل من الشجرة، القول في المسكرات وتحريمها من الناحية الفقهية، حكم اللحية في الإسلام، التدارك المعتبر لبعض ما في كتاب القضاء والقدر، بدعة زيادة التنويرات في المساجد ليالي رمضان وغيرها، لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسمًا للفوضى الدينية، حكم مصافحة المرأة الأجنبية... وغيرها كثير.

وفاته

توفي الشيخ سنة (١٩٦٩م) بحماة، ودفن به، رحم الله الشيخ رحمة واسعة.

المصادر

١. الشيخ المجاهد محمد الحامد رحمه الله لعبدالحميد طهماز.
٢. العظات والمحامد في سيرة الشيخ محمد الحامد.

مشاكل البلوغ

د.عبدالرحمن النمر

البلوغ مرحلة من العمر تتميز بأحداث مهمة تمهد لانتقال الإنسان من طور الطفولة إلى طور النضج الجسماني ومطلع الشباب، إذ فيها تحدث طفرة النمو ويكتمل نضج الأعضاء التناسلية وتبرز فيها ملامح الذكورة أو الأنوثة التي سوف تلازم الإنسان فيما بقي له من عمر، وهذه المرحلة المهمة من العمر لها مشاكلها الخاصة بها، سواء منها المرضية أو تلك الناشئة عن التغيرات الوظيفية في الجسم.

تبدأ مرحلة البلوغ عند الصبيان والفتيات في سن الحادية عشرة (١١) أو بعدها بشهور قليلة، ويأتي الإذن ببداية مرحلة البلوغ من مكان في المخ يسمى «الجسم تحت المهاد: hypothalamus»، إذ يفرز الجسم تحت المهاد هورمونا يسمى «الهورمون الحاث لإطلاق الهورمونات الجنسية».

ويؤثر هذا الهورمون مباشرة على الغدة النخامية التي تنتج بدورها نوعين من الهورمونات يطلق عليهما اسم «الهورمونات الحاثة (المنشطة) للغدد الجنسية».

تحت تأثير هورمونات الغدة النخامية، وهي غدة صغيرة تقع عند قاعدة المخ داخل تجويف الجمجمة، تنشط الغدد التناسلية عند الذكور والإناث لإنتاج هورمونات الذكورة والأنوثة، والغدة التناسلية عند الذكر هي الخصية، وهي تنتج هورمون الذكورة المسمى تيستوسترون «testosterone»، أما الغدة التناسلية عند الأنثى فهي المبيض الذي ينتج هورمون الأنوثة المسمى ستراديول «oestradiol» أو اختصارا «E ٢»، وهورمونات الذكورة والأنوثة هي السبب في حدوث التغيرات الوظيفية والجسمانية في مرحلة البلوغ.

وإذا كانت سلسلة الأحداث المؤدية إلى بداية واستمرار مرحلة البلوغ معروفة، فمن غير المعروف السبب أو المنبه الذي يحفز الجسم تحت المهاد في المخ لإطلاق شرارة ابتداء مرحلة البلوغ! ومن غير المعروف كذلك لماذا ينشط الجسم تحت المهاد لإطلاق شرارة البدء عند هذا العمر المحدد دون غيره (حول سن الحادية عشرة)؟!

علامات البلوغ

أول علامات البلوغ عند الفتيات ظهور كتلة صغيرة جامدة أو صلبة نوعًا ما تحت حلمة الثدي، تكون مؤلمة عند الضغط عليها بأصابع اليد، أما الطمث أو الحيض (الدورة الشهرية) فعادة يبدأ بعد عامين أو ثلاثة أعوام من بداية مرحلة البلوغ، بينما تكون أول علامات البلوغ عند الصبيان كِبَر (زيادة) حجم الخصيتين، وقد تظهر في أثناء (جمع ثدي) الصبيان كتلة صغيرة مؤلمة كتلك التي تظهر في أثناء الفتيات، إلا أنها تكون متأخرة في الظهور ولذلك لا تعتبر أول علامات البلوغ.

أما طفرة النمو التي تتميز بها مرحلة البلوغ فتحدث عند البنات في أول البلوغ، بينما تحدث عند الصبيان قرب نهاية مرحلة البلوغ، وهذا الفارق في التوقيت في حدوث طفرة النمو هو سبب الاعتقاد الخاطئ الشائع بين الناس بأن الفتيات ينضجن قبل الصبيان، والحقيقة العلمية تؤكد أن مرحلة البلوغ تبدأ عند الجنسين في سن واحدة تقريبا، وتنتهي كذلك في سن واحدة تقريبا، وفوارق البداية والنهاية لا تتجاوز شهورا معدودة.

ويحدث النضج أو النمو الجسماني في مرحلة البلوغ أولا في العظام الطويلة في الطرفين العلوي والسفلي، ثم يحدث بعد ذلك في العمود الفقري (سلسلة الظهر)، والطرف العلوي يشمل «العَضُد»، وهو ما يمتد بين مفصل الكتف إلى مفصل الكوع، و«الساعد» الذي يمتد من مفصل الكوع إلى الرسغ، وكذلك «اليد» التي تمتد من مفصل الرسغ إلى أطراف الأصابع. أما الطرف السفلي فيتكون من «الفخذ» الذي يمتد من مفصل الحقو إلى مفصل الركبة، ثم «الساق» التي تمتد من مفصل الركبة إلى رسغ القدم، ثم «القدم» التي تمتد من مفصل الرسغ إلى نهاية الأصابع، ويؤدي نمو العظام بسرعة إلى زيادة طول الجسم زيادة ملحوظة في زمن وجيز نسبيا، إذ يتحول الصبي أو الفتاة في ظرف سنوات قليلة تتراوح ما بين ثلاث إلى خمس سنوات (٥:٣) إلى إنسان فارع القوام، وتتغير هيئة الجسم من الشكل الطفولي الذي استمر لأكثر من عشر سنوات إلى هيئة الإنسان البالغ.

وخلافا لزيادة طول الجسم، فإن التغيرات الجسمانية في مرحلة البلوغ تشمل كذلك تغير الصوت من النبرة الطفولية إلى النبرة البالغة المميزة لكل جنس، كما تصبح أكتاف الصبيان عريضة بالنسبة إلى منطقة الحوض، بينما يحدث العكس عند الفتيات فتكون منطقة الحوض أعرض من منطقة الكتفين، ويكتسي جسم الفتاة بطبقة من الدهن تحت الجلد تؤدي إلى ما يسمى باستدارة الجسم، فيما يكبر حجم الثديين تدريجيا إلى حجم الثدي

طبيب مصري

البالغ، كذا يكبر حجم الأعضاء التناسلية عند الجنسين إلى الحجم البالغ.

تستمر مرحلة البلوغ زمنا يتراوح بين ثلاث إلى خمس (٣-٥) سنوات، وفي نهايتها يكون الإنسان قد اكتسب طول الجسم الذي سوف يبقى ثابتا إلى آخر العمر، ويكون النضج الجسماني، بما في ذلك نضج أعضاء التناسل، قد اكتمل من الناحية التشريحية والوظيفية.

المشاكل الوظيفية للبلوغ

المقصود بالمشكلات الوظيفية للبلوغ تلك الحالات التي تنشأ كنتيجة طبيعية للتغيرات الحادثة في وظائف الأعضاء في مرحلة البلوغ، دون أن تكون هذه الحالات مرضا في حد ذاتها أو دالة على وجود مرض.. من ذلك ما يلي:

حَبّ الشباب:

من المشكلات الشائعة في مرحلة البلوغ ظهور حَب الشباب في مناطق مختلفة من الجلد، خصوصا الوجه، ويعتقد أن سبب ظهور حب الشباب في هذه المرحلة من العمر هو ارتفاع نسبة الهورمونات الجنسية في الدم، خصوصا هورمون الذكورة، إذ يؤثر هورمون الذكورة على الغدد الدهنية في الجلد فيزيد إفرازاتها، الأمر الذي يعرض الغدد الدهنية إلى تراكم تلك الإفرازات الكثيرة في قنواتها، وبالتالي انسداد تلك القنوات، وعندما تنسد قناة إحدى الغدد الدهنية فإن الإفرازات الدهنية المتجمعة تحت الجلد تظهر على هيئة حبة صغيرة، وهذه الحبوب الصغيرة هي ما يسمى «حَبّ الشباب: acne».

كِبَر حجم الثدي:

هذه مشكلة شائعة عند الصبيان في مرحلة البلوغ، إذ يصاب بها خمسة وسبعون في المائة (٧٥٪) من الصبيان في وقت ما في مرحلة البلوغ، وعادة تستمر هذه المشكلة لمدة عام تقريبا، تختفي بعده نهائيا.

وفي أحوال قليلة يكون كبر حجم الثدي مشكلة مؤرقة عندما يوشك حجم ثدي الصبي أن يبلغ نفس حجم ثدي الفتاة

مرحلة البلوغ عند الجنسين تبدأ في سن واحدة بعكس الإعتقاد الخاطئ بأن الفتيات ينضجن قبل الصبيان

في نفس عمره، وفي هذه الأحوال ينبغي طمأنة الصبي إلى أن هذه مشكلة عابرة سوف تزول بعد حين، لكن إذا أدى كبر حجم الثدي إلى متاعب نفسية، بسبب سخرية الأقران من الصبي، فيمكن تصغير حجم الثدي باستئصال بعض النسيج الدهني فيه جراحيا، لكن يجب التنبيه إلى أنه لا يوجد عقار (دواء) لتصغير حجم الثدي عند الصبيان، ويجب عدم معالجة هذه المشكلة بالعقاقير.

تأخر البلوغ:

هذه كذلك مشكلة شائعة عند الصبيان، قد تسبب انزعاجا شديدا للوالدين، وربما للطفل نفسه عندما يلاحظ الاختلاف الجسماني بينه وبين أقرانه، سيما وأن مرحلة البلوغ هي الفترة من العمر التي تستحوذ فيها صورة الجسم على تفكير الإنسان.

وفي هذه الأحوال يتعين فحص الصبي طبيا للتأكد من عدم وجود سبب مرضي لتأخر البلوغ، ويجب أن يشتمل الفحص الطبي على فحص الأعضاء التناسلية والتأكد من سلامة الخصيتين.

اضطراب الدورة الشهرية:

من المعتاد أن تستمر الدورة الشهرية مضطربة لمدة عامين أو ثلاثة أعوام في أول البلوغ، لذلك تكفي طمأنة الفتاة في هذه الحالة بعد استبعاد وجود أي علة مرضية، إذ لا يلزم علاج هنا، لكن في الأحوال النادرة التي يكون فيها نزيف الدم مفرطا أو مستمرا فيتعين علاج الفتاة وفق ما يشير به طبيب متخصص في أمراض النساء، وعادة يكون النزيف مفرطا بسبب زيادة إفراز هورمون « استروجين oestrogen».

مشاكل البلوغ المرضية

المشكلات المرضية المتعلقة بالبلوغ كلها نادرة وتتمثل فيما يلي:

نضج الثديين المبكر:

من الحالات النادرة أن يكبر الثديان عند طفلة قبل سن الثالثة أو الرابعة، ويحدث هذا نتيجة زيادة إفراز أحد الهورمونات الحاثة للغدد التناسلية، والذي تفرزه الغدة النخامية (يعرف اختصارا بحروف الإنجليزية FSH)، ويستجيب أحد المبيضين للهورمون الحاث فينتج هورمون الأنوثة «استروجين»، الذي يؤدي بدوره إلى كبر حجم الثديين.

ظهور شعر العانة المبكر:

من العلامات الثانوية للبلوغ ظهور ونمو شعر في منطقة العانة، وهي منطقة أعضاء التناسل، ومن الحالات النادرة ظهور شعر العانة قبل سن السابعة أو الثامنة، وغالبا ما يكون ذلك مصحوبا بدرجة بسيطة من زيادة سرعة نمو الجسم (أقل مما هي في مرحلة البلوغ).

البلوغ المبكر:

هذه كذلك حالة نادرة يكون معظم المصابين بها من البنات، إذ تقدر نسبة حدوثها بين البنات والبنين بثمانية إلى واحد (٨: ١)، (أي ثماني بنات مقابل كل صبي واحد).

السبب وراء البلوغ المبكر هو النشاط المبكر للجسم تحت المهاد في المخ في إطلاق شرارة ابتداء سلسلة أحداث البلوغ، ويعتقد أن النشاط المبكر للجسم تحت المهاد راجع إلى وجود ورم فيه، لذلك فمن الأهمية بمكان المحافظة على مراجعة طبية متخصصة، إما في أقسام الأطفال أو في أقسام الجهاز العصبي، في جميع حالات البلوغ المبكر.

فتاوى لجنة الفتوى في وزارة الأوقاف الكويتية

إعداد التحرير

لاشك أن التجدد ومسايرة العصر من خصائص الرسالة الإسلامية الخالدة والصالحة لكل زمان ومكان، وهو لازم من لوازمها، وضمان لبقاء قدرتها على التكيف مع متغيرات الزمان والمكان، والاستجابة لمتطلبات المسيرة الإنسانية المتواصلة وحركة الحياة المستمرة في كل عهودها ومجتمعاتها ومعطياتها المختلفة بمعين لا ينضب وعطاء لا يتوقف، ومن مقتضيات الفقه لتحقيق تلك المقاصد عدم الجمود عند موقف واحد دائم في الفتوى أو التعليم أو التأليف والتقنين، بل ينبغي مراعاة مقاصد الشريعة الكلية وأهدافها العامة عند الحكم في الأمور الجزئية الخاصة.

٣٦/١/٨٨ع الاقتراض من البنوك الربوية لشراء سكن

فتوى رقم ١٤٩٩٢

أنا بحاجة ضرورية لشراء مسكن لي في بلدي، وأحتاج إلى مبلغ من المال وأردت أن أقترض من بيت التمويل الكويتي، فأنا محول راتبي على بيت التمويل ولكن بيت التمويل لا يعطي قروضاً.. فهل يجوز لي وأنا في هذه الحالة أن أقترض من البنوك الربوية؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إنّ الحالة التي شرحها المستفتي في استفتائه لا تبيح له الاقتراض بالربا، لأن ملايين الناس من أمثاله ليست لهم بيوت يملكونها، فيمكنه دفع حاجته بالسكنى بأجر كأمثاله من غير أن يتورط في الاقتراض بالربا.. والله أعلم.

٣٤/١ح/٨٨ بيع ما هو مخلّ بالآداب الإسلامية

فتوى رقم ١٥١٥

لقد دأبت بعض المحلات، التي صرح لها من قبل وزارة الإعلام ببيع الأشرطة فقط، على وضع صور مخلة بالآداب وخادشة للحياء ومنافية للأخلاق والذوق فضلا عن خروجها عن تعاليم الدين الحنيف؛ لما فيها من خلاعة وإثارة لغرائز الشباب، وكل ذلك من أجل لفت نظر المارة من الرجال والشباب والفتيات لشراء الأشرطة، دونما وجود علاقة بين بيع الأشرطة المرخص لها والصور الفاضحة، وهو أيضا خروج عن حدود الترخيص المصرح به للمحل، وإذا كان الأمر كذلك نرجو منكم إفتاءنا عن:

١. مدى سلامة أو خطأ هذا العرض من الناحية الشرعية من جهة صاحب المحل، والعاملين فيه والجهة المسؤولة عنه والمنوط بها الرقابة عليه.

٢. مدى شرعية الكسب المادي الذي يجنيه أصحاب المحال من حيث كونه حلالا أم حراما؟

أجابت اللجنة بما يلي:

أولا: الإعلان عن المبيعات يجب أن يخلو من الوجوه المحرمة، وعن كل وسائل الإثارة والإغراء بالمفاسد، وذلك في عباراته وما اشتمل عليه من الصور، فلا تظهر فيه العورات أو المفاتن أو التصرفات المحرمة المنافية للآداب الإسلامية، ويجب على الجهات المسؤولة عن الترخيص بالإعلانات أن تمنع عرض مثل هذه الإعلانات، كما يحرم على صاحب المحل ذلك.

ثانيا: ترويج المبيعات بمثل هذه الإعلانات ينتج عنه كسب مشبوه إن كان أصل البيع والمبيع حلالا.. والله أعلم.

٣٧/٢/٨٨ع الوساطة في بيع وشراء الأسهم

فتوى رقم ١٥١٧

أنا موظف أعمل في البورصة (سوق الأوراق المالية) وعملي ينحصر فقط في تدوين بيانات المشترين للسهم (اسم المشتري والبائع- سعر السهم- كمية الأسهم)، ولا شأن لي بما يعد بعد ذلك، فهل تصح لي مزاولة هذا العمل أم لا؟ أو بمعنى آخر هل الراتب الذي أتقاضاه من هذا العمل حلال أم حرام؟

واستفسرت منه اللجنة فتبين من كلامه أن من جملة عمله أن يقوم بتبليغ القائم بالشراء والبيع في قاعة التداول بأن يبيع أو يشتري بالسعر المرغوب حسب رغبة العميل.

أجابت اللجنة بما يلي:

أما العمل في التوسط لبيع وشراء الأسهم التي منها أسهم بنوك ربوية ومنها أسهم شركات مباحة، فإن حكمه يختلف بحسب نوع الأسهم، فيحرم التوسط ببيع وشراء أسهم البنوك الربوية والشركات التي غرضها الأساسي في التعامل لا يباح، وأما الراتب فإن استقل العمل في التوسط لبيع وشراء أسهم الشركات المباحة فيكون الراتب كله حلالا، وأما إذا استمر العمل

في كلا النوعين وكان الغالب الحلال فالراتب مشبوه وعليه التخلص من المقدار الذي يغلب على ظنه أنه ناتج من العمل المحرم وذلك بالتصدق به في وجوه البر العامة عدا طبع المصاحف وبناء المساجد.. والله أعلم.

٢٧/١ ع/٨٨ موت الكفيل هل يلغي الكفالة؟

فتوى رقم ١٥٢٦

توفي أخي من والدتي، وهو كافل بمبلغ ١٦٠ مائة وستون ألف دينار كويتي، ومعطي مستندا (شيكا) على نفسه حسب طلب الدائن، فهل يعتبر هذا دينا في ذمة المتوفى أمام الله عز وجل أم كفالة؟ وهل الكفالة انتهت مع موت الكفيل؟ علما بأن المستفيدين على قيد الحياة.

أجابت اللجنة بما يلي:

المبلغ الذي كفل به المتوفى يعتبر شاغلا لذمته، وعند المطالبة يُبدأ بسداده من التركة قبل قسمتها ما لم تنته الكفالة، إمّا بالإبراء أو بأداء المدين الأصلي، ولا تنتهي الكفالة بموت الكفيل أو المكفول أو المستفيد من الكفالة (المكفول له).. والله أعلم.

٢/٤٧ ع/٨٨ العمل في تحرير الكفالات

فتوى رقم ١٥٢٧

شركة تجارية نشاطها التجاري قائم على النقليات العامة البرية والبحرية والركاب داخل الكويت وخارجها، تقوم هذه الشركة بكفالة السيارات الشاحنة وخلافها والبواخر وتأمين عملها داخل البلاد وخارجها، وتتحمل مسؤولية ذلك أدبيا، ومحتمل ماديا أمام جهات الاختصاص، صاحب هذه الشركة عرض عليّ العمل معه في أوجه هذه النشاطات الخاصة بها مقابل نصف الإنتاج، سواء كان ذلك من تسجيل السيارات وضمانها أو مباشرة مقاولات النقل وما شابه.

هل يعتبر عملي هذا وما أتقاضاه من أجر يمثل نصف الإنتاج بعد خصم كافة المصاريف المكتبية والموظفين هل يعتبر من وجه الشرع حلالا أم حراما؟ علما بأنني لست مالكا للشركة ولا الترخيص بل أعمل بمجهودي فقط، وجزاكم الله خيرا.

وحضر السائل إلى اللجنة وأفاد بأن ما يؤخذ من المال على الكفالة إنما هو عن الأعمال التي تتعلق بالكفالة ولا يؤخذ المال على مجرد الكفالة، كما أن المكتب لا يتعامل في كفالات الأشخاص (عمل الإقامة).

أجابت اللجنة بما يلي:

حيث إن الأعمال هي الغالبة في نشاط المكتب على الرغم من وجود الكفالة، وبما أن هذا المكتب لا يتعامل بالكفالات المجردة عن الأعمال، كما أنه لا يتعامل في كفالات الأشخاص (عمل الإقامات) فإن الإيراد الذي يحصل عليه هو مقابل خدمات وأعمال هو كسب مشروع.. والله أعلم.

٢/٣٤ ع/٨٨ الحجر على الوالد المخرف

فتوى رقم ١٥٢٨

السؤال خاص بالوالد البالغ من العمر ٩٠ عاما والخوف من عقوق الوالدين.

حسب التشخيص الطبي أصيب الوالد أخيرا بما يسمى بفقدان الذاكرة أو «عته الشيخوخة» وهو ما يؤدي إلى عدم تذكر الأماكن ولا الأسماء.

حسب تعود الوالد قبل ذلك كان يخرج من المنزل يوميا مرة أو مرتين ويعود مباشرة بمفرده بعد جولة خفيفة حول المنزل، في ٢١ من شهر يونيو الماضي خرج الوالد ولم يعد إلا بعد أربعة أيام مضنية من البحث عنه في المستشفيات وأقسام البوليس.

السؤال: ١. حيث إنه ما زال يصرّ على الخروج يوميا من المنزل كما كان في السابق ولا يوجد في المنزل إلا أختي التي لا تستطيع منعه من الخروج.. هل يصح إيداعه في إحدى المستشفيات الخاصة وليست العامة التي ترعى مثل هذه الحالات؟

٢. هل يمكن التحفظ على ماله الخاص والنفقة عليه منه؟ مع ملاحظة أن هناك تفاصيل أخرى لابد من توضيحها ولا يكفيها مجال هذه الورقة.

وبعد أن استمعت اللجنة إلى بيان حال والد المستفتي، وما يحصل منه وما يعرض له من الخروج من بيته واحتمال الضياع وأنه خرج وغاب أربعة أيام ثم وجد في الشارع بعد عثور رجال الشرطة عليه، وأخذوا على أولاده تعهدا بالمحافظة عليه ومنعه من الخروج وحده ولم تحصل جدوى من وجود ابنته معه ولا بتفرغ أحد أولاده للقيام برعايته.

أجابت اللجنة بما يلي:

لا مانع من إيداعه في احدى المستشفيات والإنفاق على حاجاته الضرورية المتصلة بطعامه وعلاجه مع استمرار تفقده والتأكد من حسن معاملته من قبل العاملين في المستشفى إلى أن يتم شفاؤه.. والله تعالى أعلم.

٢/١٧ ح/٨٨ بالرضاع صار خاله أخا له فحرمت عليه ابنته

فتوى رقم ١٥٣٧

السؤال: أرضعت أمي ابن خالي مع أختي الكبيرة أكثر من خمس رضعات زمن الرضاع، ويريد أخي الأصغر الزواج من بنت ابن خالي هذا.. فهل يصح هذا الزواج؟ علما بأن أخي الأصغر هذا أخ شقيق لي ولأختي الكبيرة.

أجابت اللجنة بما يلي:

بأنه إذا كان الأمر كما جاء في السؤال فتكون من يريد زواجها بنت أخ من الرضاع لجميع أبناء المرضعة فلا تحل له لحرمة بنت الأخ من الرضاع كما تحرم من النسب.. والله أعلم.

إعداد: خالد خلاوي

ثق بنفسك.. تتميز

الثقة بالنفس من أهم الطرق التي تؤدي إلى النجاح والتميز في كل مجالات الحياة، وذلك لأن الواثق بنفسه متميز في قوله وعمله واعتقاده، ففي القول يتحدث بانطلاقة وبكل صراحة معبرًا بقوة عن شخصيته وعما يريد، وفي الوقت نفسه يفعل ما يؤمن به ولا يخشى رأي الناس مادام ما يعمله صحيحًا وليس فيه معصية، قال سفيان الثوري- رحمه الله: من عرف نفسه لم يضره ما قاله الناس عنه مدحًا أو ذمًا!.

ومن ناحية الاعتقاد، فثقته بنفسه مستمدة أساسًا من الثقة بالخالق عز وجل وبما منحه من مواهب وإمكانيات، وهذا الاعتقاد يحمي الواثق بنفسه من آفات الغرور والعجب بالعمل والتكبر على من حوله لأنه موقن أن هذه الإمكانات إنما هي من نعم الله تعالى عليه، وإن فاعليتها إنما هي مرهونة بعون الله تعالى وتوفيقه.

فالثقة بالنفس كما يعرفها أحد خبراء التنمية البشرية: هي إيمان الإنسان بأهدافه وقراراته وقدراته وإمكاناته، أي الإيمان بذاته. ويحتاج هذا الإيمان إلى العمل والإنجاز ليبرهن على صدق وقوة هذه الثقة، فالإنجاز من أكبر وسائل تعزيز الثقة بالنفس، ليس على مستوى الفرد وحسب بل على مستوى الأمم والشعوب أيضًا، فكثير من الإنجازات التي حققتها أمة من الأمم نتاج تعزيز الثقة بالنفس لدى أبنائها، وما لحقت الهزائم والإخفاقات بأمة من الأمم إلا وكان من أسبابها هزيمة نفسية استشرت بين أبنائها، يقول مونتغمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ): أهم مميزات الجيوش الإسلامية لم تكن في المعدات أو التسليح أو التنظيم، بل كانت في الروح المعنوية العالية.

و سئل القائد الشهير نابليون: كيف استطعت أن تولد الثقة في نفوس أفراد جيشك.؟! فأجاب: كنت أرد على ثلاث بثلاث

- من قال لا أقدر.. قلت له.. حاول.
- من قال لا أعرف.. قلت له.. تعلم.
- من قال مستحيل.. قلت له.. جرب.

فتعزيز الثقة بالنفس والتخلص من الأفكار السلبية من أهم خطوات التنمية البشرية سعيًا إلى تحقيق التقدم والازدهار للأفراد والمجتمعات، وهناك بعض الخطوات التي يُمكن بها التخلص من كثير من الأفكار والمشاعر السلبية، سواء كانت في الفكر أو السلوك أو الأخلاق أو العادات أو الكلمات أو غيرها؛ لترفعها من على كاهلك وتحرر نفسك من وطأتها وتنطلق بالنفس نحو الحياة بثقة أكبر وآمال مشرقة أوسع طرحها الدكتور عوض بن محمد القرني في كتابه (حتى لا تكون كلا.. طريقك للتفوق والنجاح) وهذه الخطوات هي:

١- حدد- بتجرد وبلا مبالغة- أهم الأفكار والصفات السلبية في حياتك.

٢- أفرد كل فكرة أو صفة على حدة.

٣- فكّر فيها تفكيرًا منطقيًا تحليليًا يؤدي إلى معرفتها وذلك بمعرفة أسبابها وحقيقتها، وهل هي واقع حقيقي فعلًا أو وهم وخيال؟

٤- إن كانت من الأوهام فحرر نفسك منها وإن كانت واقعًا حقيقيًا فتخلص من أسبابها وقلصها إلى أدنى قدر ممكن، واعلم أن الصفة كلما كانت أكثر رسوخًا في حياتك كلما كان استبعادها يحتاج لجهد أكبر وزمن أطول.

٥- اربط ذهنك وفكرك بشكل مركز - وليكن في لحظات صفاء وبعد عن الشواغل والقلق- بموقف إيجابي مهمّ في حياتك مستعيدًا كل تفاصيله من صوت وصورة ومشاعر وأجواء محيطة، فإذا بلغت الذروة من النشاط الذهني والارتياح النفسي والانشراح القلبي وغبت عن واقعك أو كدت.. فحرك شيئًا من جوارحك حركة معينة متميزة تمامًا كأن تكبر أو تسبح أو تهلل مشيرًا مع ذلك بأصبعك إشارة خاصة، وليكن هذا الموقف مثلًا خبر نجاحك أو يوم زواجك أو ليلة قمتها لله أو سماعك خبرًا سارًا للمسلمين أو أول يوم رأيت فيه أحد الحرمين أو نحو ذلك.

٦- كرر ذلك مرات ومرات حتى يرتبط هذا الموقف الإيجابي بكل مشاعرك وتداعياته النفسية والشعورية بهذه الحركة آليًا، فبمجرد صدور هذه الحركة منك تنتقل آليًا إلى تلك الحالة النفسية الإيجابية العالية، وإن لم تتذكر الموقف المادي الذي كان سببًا لها.

٧- إذا وردت عليك أي من تلك المشاعر أو الأفكار السلبية في أي موقف فما عليك إلاّ أن تغمض عينيك قليلًا وتخرج من تلك الأفكار ثم تتخيل أمامك لوحة كتب عليها بخط بارز ولون صارخ كلمة «قف»!.

تأمل هذه الكلمة بعض الوقت وكرر النظر فيها مرة بعد أخرى حتى كأنك لم تعد ترى غيرها.

٨- تجاوزها بنظرك متخيلًا وراءها حدائق غناء وأنهارًا جارية وطيورًا مغردة ونسيمًا من الهواء عليلًا وتمتع به قليلًا، كل ذلك وأنت مغمض لعينيك.

٩- انتقل إلى المثير الإيجابي وحرك الجارحة التي أصبحت مفتاحًا له كما في الفقرة رقم (٥) واستغرق فيه قليلًا حتى تتبدل حالتك النفسية وتختفي مشاعرك السلبية تمامًا.

١٠- عد للتفكير فيما كنت فيه من شأن ومن عمل.

١١- إذا عادت الأفكار السلبية للإلحاح مرة أخرى فتوقف عن العمل تمامًا في هذه اللحظات، وعش فقط في ذكريات الحالة الإيجابية.

١٢- لا تنس اللجوء إلى الله ابتداء ونهاية؛ لأنه هو الذي أضحك وأبكى، فبالتوبة والاستغفار ودوام ذكر الله تحيا القلوب.

صور من حياة المتميزين

ربعي بن عامر

كان الصحابي الجليل ربعي بن عامر مثالًا على تربية النبي ﷺ على الثقة بالنفس وفي قوة رؤية المسلمين لاعتقادهم ورسالتهم في الحياة، وبدا ذلك واضحًا جليًا في حواره الشهير مع قائد الفرس رستم، فتروي المصادر التاريخية المختلفة أن ربعي رضي الله عنه دخل على رستم وهو يجلس على كرسي من ذهب وحوله الحرس وقد فرش الأرض بالسجاد الفاخر فلم يأبه لذلك ولم تهتز ثقته بنفسه، بل مضى يمشي بعزة وهو يضرب برمحه على السجاد ووقف أمام رستم شامخًا، ولما سأله عن سبب مجيء المسلمين إلى الفرس

قال له: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله، قال رستم: وما موعود الله؟ قال ربعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا.

فرد عليه ربعي: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك أو الجزاء فنقبل ونكف عنك وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه وإن كنت إليه محتاجا منعناك أو المنابذة في اليوم الرابع ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى.

فتعجب رستم من قوة حديثه وقال: أسيدهم أنت، قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

كلمات في التميز

الثقة في النفس

الشخص الواثق بنفسه له ضحكة تختلف عن الآخرين.. حتى تنفسه وحركاته لهما شكل يختلف عن الآخرين.

إبراهيم الفقي

ربما لم يعلق الآخرون آمالا عريضة علي.. ولكني كنت أعلق آمالا عريضة على نفسي.

شانون ميلر

من وثق بنفسه لا يحتاج إلى مدح الناس إياه، ومن طلب الثناء فقد دلّ على ارتيابه في قيمة نفسه.

غوستاف لوبون

تحدثك دائما عن نفسك دليل على أنك لست واثقا منها.

مصطفى السباعي

الشخص الواثق بنفسه يقول: يبدو الأمر صعبًا ولكنه ممكن.. أما غير الواثق فيردد: الأمر ممكن ولكنه يبدو صعبًا.

توماس كارليل

إعداد: هالة محمد

نظام مساند لدماغ الانسان!

يبدو الأمر كأنه من حكايات الخيال العلمي، لكن العالم «ريموند كورز ويل» يؤكد أنه سيصبح من الممكن خلال عشرين عامًا بلورة نظام مساند لدماغ الإنسان يحفظ فيه كل ذكرياته وإجراء عملية نسخ احتياطية لما يحتويه الدماغ من أفكار ومعلومات.

«كورز ويل» الذي اخترع عددًا من الابتكارات الرائدة في مجال الحاسوب من بينها تكنولوجيا التعرف على الأصوات يقول: إن نظريته هذه تعتمد على التوقع -القائم باستمرار - بشأن تطوير وتوسيع استخدام الروبوتات الصغيرة التي يمكن لها ان تتحرك داخل الدم والقيام فيه بعمليات محددة ودقيقة.

حقائق عن كوكب المريخ

■ بالرغم من تسميته بالكوكب الأحمر فإن لون المريخ يميل إلى البرتقالي الداكن.

■ المريخ يضم اعلى جبل معروف في النظام الشمسي وهو جبل اولمبس البالغ ارتفاعه ٣٤ كليو مترا اي ثلاث مرات ارتفاع ايفرست.

■ حجم المريخ نصف حجم الأرض وبه منطقتان قطبيتان يغطيهما الجليد، كما أن به مواسم تشبه مواسم كوكبنا الارضي. واليوم المريخي اطول بـ٤١ دقيقة من اليوم في الارض.

■ إن ثبوت وجود حياة على كوكب المريخ سوف يتم الاعلان عنه هذا العام، وذلك بعد تحليل قطع من الكوكب جلبت الى الارض.

اكتشاف فيروس كروف العملاق

اكتشف العلماء فيروسًا ضخمًا في البحر يعتقد أنه يلعب دورًا جوهريًا في سلسلة الغذاء في البحار، ويعتبر هذا الفيروس الذي اكتشفه العلماء أكبر فيروس في البحار وثاني أكبر فيروس في العالم على الإطلاق. وعثر على الفيروس الذي أعطي اسم «كافيتريا ريونبرجينسيس فايروس» والذي يعرف اختصارًا بـ«كروف» في المناطق البحرية قبالة ولاية تكساس الأمريكية ويصيب أحد الأجسام العضوية الهائمة في مياه البحر.

ويشتمل الفيروس على ٧٣ ألف زوج من القواعد في الحمض النووي.

ولا تعتبر الفيروسات في الأصل كائنات حية حيث إنها لا تستطيع التكاثر، إلا في الخلايا التي تصيبها من النباتات والحيوانات أو الإنسان.

وتم التقاط الفيروس كروف من البحر في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، ولكن العلماء لم يكتشفوا حجمه وما يمكن أن يكون له من أهمية إلا الآن.

أما أكبر فيروس عرفه العلماء حتى الآن فيصيب أميبيا المياه العذبة ويشتمل على ١,٢ مليون زوج من القواعد في الحمض النووي ويحمل اسم «اكانثاموبا بوليفاجا ميميفايرس».

كوكب جديد باسم «اتش اي بي ١٣٠٤٤»

بعد اكتشاف حوالي ٥٠٠ كوكب من خارج النظام الشمسي تقع ضمن مجرتنا منذ عام ١٩٩٥م رصد علماء فلك أوربيون للمرة الأولى كوكبًا من مجرة أخرى، وقد أطلق على هذا الكوكب وهو من خارج نظامنا الشمسي ومجرتنا اسم «اتش اي بي ١٣٠٤٤» ويقع هذا الكوكب في مدار نجمة بعيدة باتت في نهاية مشوارها على مسافة ٢٠٠٠ سنة ضوئية عن الأرض (السنة الضوئية توازي ٩٤٦٠ مليار كيلو مترًا) في كوكبة الكور الجنوبية.

ويقول الباحثون: إن اكتشافهم الأخير مختلف، لأن الكوكب يدير شمسًا تنتمي الى مجموعة من النجوم تسمى «تيار هيلمي» وكذلك تنتمي إلى مجرة قزمية منفصلة التهمتها مجرة درب التبانة قبل ٦-٩ مليارات سنة عبر ما يمكن أن يوصف بأمر شبيه بـ «آكل النجوم»، ويعتقد أن كتلة الكوكب الجديد أكبر بمرة ونصف المرة من كتلة المشتري وهو كوكب غازي يعتبر الأكبر في نظامنا الشمسي وفي النقطة الأقرب الى مداره البيضوي يمر الكوكب على عُشر المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس، ويكمل دورته في ١٦٢ يومًا فقط، واكتشاف هذا الكوكب الجديد الخارج عن النظام الشمسي يثير أسئلة مهمة حول تشكل الكواكب الضخمة، إذ إن هذه النجمة تتضمن على ما يبدو عددًا قليلًا من العناصر الثقيلة مثل المعادن وفيها فقط الهيدروجين والهيليوم.

رقاقة تسمح للمكفوفين برؤية جزئية

استطاع الفنلندي ميكا تيرهو (٤٦ عاما)، الكفيف بالوراثة، أن يتعرف على أحرف وعلى الساعة عبر رقاقة زرعت وراء شبكية العين.

وقال الباحثون الذين أجروا الزراعة لتيرهو في ألمانيا، بأن هذا قد ينجح في المرضى الآخرين.

وتسمح الرقاقة للكفيف الكشف عن الكائنات عبر عيونهم، وقد نشرت تفاصيل هذا المشروع البحثي في مجلة الجمعية الملكية B. وقد نجح البروفيسور أيبرت زرينير، من جامعة توبنجن في ألمانيا مع زملائه في شركة خاصة في تجربة الرقاقة التي تشبه شبكية العين على ١١ شخصا.

وتعمل الرقاقة عن طريق تحويل الضوء الذي يدخل العين إلى نبضات كهربائية تغذي بدورها العصب البصري وراء العين. وقد كانت الرقاقة في التجربة الأولية مدعومةً من الخارج بكابل، الذي يخرج من الجلد من خلف الأذن ليوصل ببطارية.

ويختبر فريق البحث حالياً تطوير الرقاقة بحيث تزرع من تحت الجلد وتربط بالأذن.

الجلد يتحول إلى دم!

اكتشف علماء كنديون طريقة لتحويل الجلد إلى دم فيما يعتبر اختراقًا طبيًا كبيرًا يمكن أن يولد مصادر جديدة للدم.

فهذا الاكتشاف، الذي يقف وراءه باحثون من جامعة ماكماستر، يمكن في يوم من الأيام أن يسمح لأي شخص بحاجة للدم بعد الخضوع لجراحة أو علاج كيميائي، أو يعاني من اضطرابات دموية مثل فقر الدم، أن يحصل عليه من رقعة صغيرة من جلده الخاص، مما يلغي خطر رفض نظام المناعة في الجسم لدم من متبرع ما، وتوقع الباحثون التمكن من تطبيق التجارب على الإنسان خلال سنتين.

الكويكبات قد تدمر طبقة الأوزون

قال باحثون أميركيون أن اصطدام كويكب بالأرض قد يؤدي إلى إزالة طبقة الأوزون، دافعا الناس للعيش كمصاصي الدماء والاختباء في المنازل خلال ساعات النهار والخروج ليلا.

ووفق الباحثين في معهد «بلانتاري ساينس» بمدينة تاكسون في ولاية اريزونا، فإن كويكبا على بعد حوالي كيلومتر واحد من طبقة الأوزون قد يخلق ثقبا فيها ويؤدي إلى خسارة كبيرة للحماية ضد الأشعة ما فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس، وأظهرت نماذجهم على جهاز الحاسوب دمار الأوزون الناتج عن تأثير الكويكب في المحيطات في العالم التي تطلق الأبخرة مئات الأميال في اتجاه الغلاف الجوي.

وقال الباحثون: إن المواد الكيماوية مثل الكلوريد والبروميد التي تنفصل عن بخار الماء قد تتسبب في تدمير طبقة الأوزون التي تحمي الحياة على الأرض، مما قد تحدثه الأشعة ما فوق البنفسجية.

من هنا وهناك

■ أنتج علماء نسخة مصغرة جدا من الكبد البشري في المعمل باستخدام الخلايا الجذعية، ويزيد النجاح في تلك التجربة من الآمال بإمكانية تصنيع اكباد للزرع في المستقبل، وان كان الخبراء يقولون ان ذلك امامه سنوات طوال.

وعرض الفريق البحثي، من المركز الطبي المعمداني في جامعة ويك فورست في الولايات المتحدة، نتائج تجربته في مؤتمر في بوسطن، وقال علماء بريطانيون ان التجربة «تطور مثير» لكنه ليس من المؤكد بعد امكانية انتاج كبد كاملة.

■ بات بإمكان الهاتف القيام بكل معاملات الوصول والمغادرة في أحد فنادق العاصمة السويدية الكبرى، فيحل مكان مفتاح الغرفة في تجربة ريادية حول تطبيقات جديدة للهواتف النقالة.

■ كشفت الصين أخيرًا عن جهاز حاسوب خارق قادر على إجراء أكثر من ٢٥ ألف تريليون عملية حسابية في الثانية ولكي يتوصل إلى مثل هذه السرعة الخارقة يعتمد الحاسوب في أدائه على أكثر من ٧٠٠٠ معالج رسوم وصور غرافيك واكثر من ١٤ ألف رقاقة إنتل.

■ تمكن العلماء للمرة الأولى من إظهار أن جهاز المناعة لجسم الإنسان قادر على تدمير فيروسات البرد بعد ان تكون هذه الفيروسات قد غزت العرين الداخلي للخلية البشرية، وهو التطور الذي كان يعتقد حتى وقت قريب أنه ليس ممكنًا، ومن شأن هذا الاكتشاف أن يفتح الطريق لتطوير طبقة جديدة من الأدوية المضادة للفيروسات.

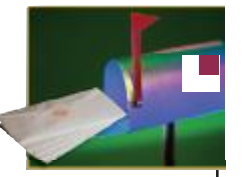

شاب.. الفراغ صديقه

ماذا أكتب أو ماذا أقول، هذه كلمات ليست من كاتب، أكتب لكي أدرك معنى الحياة، فالحياة أتعبتني.

في ظل انغماس العالم باللذائذ والشهوات، وتفجر الطاقات وظهور النزوات ظهر شخص غريب في عالم غريب إنه أنا، وأنت الذي تشبهني أكتب لك لكي تساعدني، أنصفني ولا تخذلني، وهاك قصتي:

قصتي قصتك وقصة كل شاب لم يدخل في قلبه نور الإيمان أو فلنقل منصفين ربما دخل ولكن إلى أين؟

دخل ليدفن كما يدفن الميت في التراب!

فلطالما سمعنا عنه من أهلينا الذين ولدونا مسلمين من آباء مسلمين وهلم جرا، لكن لا أحد منا يدري كيف يعيش!.

معظمنا يعيش لأنه يعيش، إني كمن يضحك على نفسه، ساعة تراني ملتزما، وساعة أترك لنفسي العنان تسرح بي كيفما تشاء، لكن حبذا ساعة الالتزام كساعة اللهو فهي كالبذرة بالنسبة للبطيخة.

أتسألني عن إنجازاتي؟ أقول لك لا شيء.

أتسألني عن أصدقائي؟ أقول لك لا شيء.

لطالما سمعنا بالمقولة التي تقول: «قل لي من تصاحب؟ أقل لك من أنت» فكيف بمن يكون الفراغ صديقه، أنيسه وجليسه، والفراغ إنجازه، ماذا ستقول عني؟ قل ما تشاء. فأنا الفراغ بذاته.

وجودي لا معنى له.

أطمح كي أكون.

أكون كلمة لها معنى في هذه الحياة، أو فلأذهب أبعد من ذلك لأكون الفاعل ولو ليوم واحد فدائما أكون مفعولا به.

لعلي أجد ذاتي، أجدني وأجدك أنت الذي مثلي.

يا أخي ألم في صدري يصرخ، أمسك بيدي، دعنا نسلم من جديد، دع نور الإيمان يحيي قلوبنا، دعنا نطاول النجوم.

أقولها ولا أعرف ما دفعني لذلك؟

لعلها الفطرة أو الفراغ نفسه.

لا أعرف، لكن دعنا نحاول لكي نجد أنفسنا، ولا تنس ما لك وما عليك، فلنكن كما كان أصحاب نبي الهداية محمد ﷺ.

معاذ أيمن أبوالشعر

فرصة هذه الجموع

أرى جموع المسلمين وقد اتجهت لبيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام في مشهد مؤثر كل عام حيث يؤدي هؤلاء الحج، فريضة وقرت في القلب ودمعت من أجلها العيون، حيث ترجو هذه الجموع رحمة ربها وتطلب مغفرته، ولكن وللأسف فإن الأكثرية تأبى أن تدفع الثمن، فالثمن غال وأغلبية الجموع تعايشت مع الذنوب وأحزنها أن حال المسلمين اليوم تتنازعه ريب المنون، فالقتل والذبح والفقر والذل من رموز حياتهم مع الحزن والأنين، وتقطعت بهم السبل حيث هجروا قرآنهم المبين، واليوم يجأرون إلى الله في الصعدات بالتلبية، فلعلهم يكونون مخلصين ليعودوا إلى أوطانهم مغفورا لهم أجمعين.

عصام الحسين حميد

«الإسلام والفقر»

الفقر داء لعين يفتك بجسد وعقل وروح وكيان وحاضر ومستقبل الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، ويحيل الأمة قعيدة طريحة لا تقوم لها قائمة، الإسلام يقدم لنا الوقاية منه والعلاج له فهو المصل الواقي والعلاج الشافي، وذلك وفق نظام شامل فريد متوازن لتحقيق التنمية الشاملة وعمارة الأرض ولتحقيق المعنى الحقيقي للاستخلاف.

الإسلام يقدم لنا الحل الأمثل لمشكلة الفقر، الحل الوافي الشافي الكافي وفق نظام دقيق وعميق ينظر إلى الإنسان وإلى الحياة وإلى الكون نظرة فريدة، لا شرقية ولا غربية، نظرة شمولية لا تقبل الأخذ والرفض أو الخيار أو الجدل أو التجزئة، نظرة أساسها منهج العلي القدير في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم ﷺ وسيرة الصحابة والتابعين.

الإسلام يقدم لنا التدابير والوسائل للوقاية من هذا الداء اللعين ألا نقع فيه، كذلك التدابير والوسائل للعلاج منه.

المنهج موجود وساطع سطوع الشمس ظهيرة الصيف، لكنه لما ضعف الإيمان في حياة الناس ومجريات الأمور كان الفقر والتخلف والمرض والهوان.

- أين الإيمان الحق الذي هو روح الأمة وريحانها وقلبها وعقلها وعلمها وعملها؟!

- أين العقل الفصيح والقلم المعلم والساعد السحري والسيف المنتصر؟!

- أين الإيمان الحق الذي ينعكس على الحياة كلها فيصبغها بصبغة الربانية ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٨).

إن الإيمان الحق- اعتقادا وعملا- هو الطريق الوحيد المنقذ للأمة جمعاء من براثن الفقر والمحقق للتنمية الشاملة بكل أبعادها، كي ترفع هامتها وتعلو قامتها وتشرق جبهتها وترفرف رايتها وتعود إلى مكانتها قائدة ورائدة تنشر الرخاء والأمن والخير والعدل والنور والعلم والحرية في العالمين.

محمد علي الشريف

ماتت فيهم النخوة

لقد أيقن بنو صهيون أن المعتصم قد ولّى ومات وأن شبيه صلاح الدين لن يأتي في قريب الأوقات وأن حال العرب والمسلمين اليوم أشبه بالأموات وبالتالي تغول بنو صهيون كل يوم في هتك الأعراض ودهس المقدسات، حيث أيقنوا أن ردود الفعل في الغالب الأعم هي الصراخ وعالي الأصوات، فزادوا طغيانا واستهانة بكل ما كان يهب المسلمون من أجله قبل النفس والذات، فشاهدنا بني صهيون وهم يحرقون المساجد مرات، ويحرقون المصحف الشريف أمام الجماعات، ويحفرون الأنفاق في القدس ويزيفون التاريخ ويهدمون البوابات، ويهتكون عرض الأسيرات الطاهرات ويكسرون عظام المجاهدين أمام الشاشات، وفي الخليل وأمام العالم أجمع قتلوا نشأت الكرمي ومأمون النتشة في يوم جمعة ثم هدموا البيت على من فيه بالدبابات، هذا فضلا عما يقومون به يوميا من احتلال وهدم وطغيان وقتل وغارات، وترويع لأصحاب الأرض وبناء مستعمرات.

عبدالله الحسين محمد

معلمة الرجال

إلى كل من خاض في عرض أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وإلى كل من سبها سواء في الماضي أو في الحاضر، إلى كل من لم يعلم مكانتها رضى الله عنها وإلى كل من أحبها وعرف منزلتها ووقرها أكتب هذا الموضوع وأدعو الله أن يجعله في ميزان حسناتي.

فالسيدة عائشة رضي الله عنها أثبتت للعالم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا أن المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال فيتعلمون منها، فالسيدة عائشة رضي الله عنها ملأت الدنيا نورًا بعلمها لأنه أتيح لها ما لم يتح لغيرها فلقد تولاها في طفولتها الصديق أبوبكر شيخ المسلمين وأفضلهم، وتولاها في شبابها معلم البشرية وخاتم الرسل وأكرم البشر زوجها رسول الله ﷺ فجمعت من العلم والبيان ما لم يتسن لغيرها.

ولو كان النساء كمثل هذي

لفضلت النساء على الرجال

فهي البكر التي تزوجها وأحبها الرسول ﷺ واختار الإقامة عندها عندما مرض وتوفي بين سحرها ونحرها ودفن في بيتها، فلقد بلغت السيدة عائشة رضي الله عنها من العلم منزلة عظيمة حتى قال أبوموسى الأشعري: كنا أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة رضي الله عنها وأرضاها، وكانت بلاغتها تعادل علمها فقال الأحنف: سمعت خطب أبي بكر وعمر وعلي والخلفاء إلى يومي هذا فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن من فم عائشة، وكانت رضي الله عنها كريمة النفس كريمة اليد صبرت مع رسول الله ﷺ على الفقر والجوع حتى كانت تمر عليها الأيام الطويلة وما يوقد في بيت الرسول ﷺ نار لخبز أو طبخ، وإنما كانا يعيشان على التمر والماء، وعندما أقبلت الدنيا على المسلمين كانت تتصدق بكل مالها على الفقراء حتى إنها كانت تنسى أن تبقي معها درهمًا واحدًا لتشتري لنفسها طعامًا تفطر به وهي صائمة، هكذا كانت معلمة الرجال صابرة راضية في الضراء شاكرة جوادة في الرخاء، فداك نفسي وروحي يا أمي، ويا أمة الإسلام لصون عرضها قومي وقولي لمن سبها: خسئت، فهي ليست أمه بل أم المؤمنين.

رضا ابوالغيط

العقل والفطرة

عندما سئل كبير محرري ديرشبيجل الألمانية عن سبب إسلامه أجاب:

«لقد عدت إلى فطرتي»، إنها إجابة بليغة حكيمة فطرية نقية.. إنه الإسلام الذي فطر الله عليه الناس جميعًا ولم يكن لأحد من المسلمين فضل في إسلام أمثال هذا الصحفي الألمعي، والأمر نفسه جرى مع المذيعة الإعلامية اللامعة «كريستينا» والتي عملت بالقنوات الشهيرة من أمثال «إم تي في» و«ان بي سي» وغيرها، وهي فرنسية الجنسية وأسلمت في نهاية القرن الماضي وقالت عن سبب إسلامها: إنها استجابت لنداء الحق داخلها وإنها شعرت بأن الله أرشدها وإليه قربها وإنها لا تعبأ بمن يحاربها ومن أجل حجابها فصلها وبسبب إسلامها طاردها.

إنها نماذج أسلمت وبالعقل والفطرة آمنت.

ناهد السيد شعبان

إعداد: التحرير

منجيات ومهلكات

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ منجياتٌ، وثلاثٌ مهلكات؛ فأمَّا المنجيات: فَخَشية الله في السِّرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى؛ وأمَّا المهلكات: فشُحٌّ مطاعٌ، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسِهِ».

(شعب الإيمان)

غدر الأخلاَّء

قال الشَّافعي رحمه الله تعالى:

إنِّي صَحِبتُ أُناسًا ما لهم عـــددٌ
وكنتُ أحسبُ أنِّي قد ملأتُ يدي
لمَّا بلوتُ أخلائي وَجَدْتُهـــم
كالدَّهر في الغدرِ لم يُبقوا على أَحدِ
إنْ غِبتُ عنهم فَشَرُّ النَّاسِ يَشتُمُني
وإنْ مرضتُ فخيرُ النَّاسِ لم يعُدِ
وإنْ رأَوني بخيرٍ ساءَهُم فَرحـــي
وإنْ رأَوني بِشَرٍّ سَرَّهم نَكَـــدي

(ديوان الإمام الشَّافعي)

كناية جميلة

وقفت امرأة على باب قيس بن عبادة فقالت: أشكو إليك قلة الجِرْذَان!
فقال قيس: ما أَحْسَنَ هذه الكناية! املأوا بيتها خُبْزًا وسمنًا.

(طرائف عربية)

شهر صفر

هو أحد الشهور الإثنى عشر الهجرية، وهو الشهر الذي بعد المحرم، قال بعضهم: سمِّي بذلك لإصفار مكَّة من أهلها (أي خلّوها من أهلها) إذا سافروا فيه، وقيل: سَمَّوا الشهر صفرًا لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صِفْرًا من المتاع (أي يسلبونه متاعه فيصبح لا متاع له).(لسان العرب لابن منظور)

وكان للعرب في شهر صفر منكران عظيمان، الأول: التلاعب فيه تقديمًا وتأخيرًا، والثاني: التشاؤم منه، ولكن النبي ﷺ هذب هذا الاعتقاد بقوله: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامَة ولا صَفَر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»

(رواه البخاري ومسلم).

أصبحت تطلبني ثمانية!

قيل للإمام الشافعي رحمه الله كيف أصبحت؟ قال: أصبحت تطلبني ثمانية:

الله تعالى بفروضه، ورسوله ﷺ بالسنة، والدهر بصروفه، والعيال بقوتهم، والحفظة بما ينطق لساني، والشيطان بالمعاصي، والنفس بالشهوات، وملك الموت بقبض روحي.

(عين الأدب والسياسة)

إنك لا تنال ما تريد

كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء: أما بعد، فإنك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره، فليكن قولك ذكرًا، وصمتك فكرًا، ونظرك عبرة، واعلم أن أعجز الناس من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله، وأن أكيسهم من أتعب نفسه وعمل لما بعد الموت.

(بهجة المجالس)

علامات النِّفاق

عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أنَّ النبي ﷺ قال: "أَربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان في خصلةٌ منهنَّ كان فيه خصلة من النِّفاق حتى يدعها: إذا اؤتمنَ خَانَ، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ" (البخاري).

وما أحسن قول الشاعر:

إذا قلتَ في شيءٍ "نعم" فأتمه
فإنَّ "نعم" حقٌ على الحرِّ واجبُ
وإلا فَقُلْ "لا" تستَرِح وتُرِحْ بها
لئلا يقولَ النَّاس إنَّك كاذبُ

(القول العلي للسفاريني)

تكره منه مثل ما يكره منها!

مرَّ رجل أشمط بامرأة عجيبة في الجَمال فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا، فقالت: كأنك تخطبني؟ قال: نعم، فقالت له: إنَّ فيَّ عيبًا، قال: وما هو؟ قالت: شيب في رأسي؛ فثنى عنان دابته (أي أراد الذهاب) فقالت: على رسلك، فلا والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء، ولكني أحببت أن أعلمك أني أكره منك كما تكره مني.. فأنشد:

رأين الغواني الشيب لاح بمفرقي
فأعرضن عني بالخدود النواضر

(نوادر من التاريخ)

تحمّل الإمام عن المأموم

يتحمل الإمام عن المأموم في الصلاة:

١. القراءة.
٢. سجود السهو، إذا دخل مع الإمام من أوّل الصلاة.
٣. سجود التلاوة، إذا قرأ في صلاته آية السجدة.
٤. السترة، لأن سترة الإمام سترة لمن خلفه.
٥. التشهد الأوّل، إذا سُبق بركعة في الرباعية.

(منار السبيل في شرح الدليل)

قراقوش

بهاء الدين أبوسعيد قراقوش، نشأ في خدمة القائد صلاح الدين، وناب عنه في أحايين، وخاض معه بعض المعارك، وتولى «عكا» بعد أخذها من الإفرنج الذين عادوا واستولوا عليها فأسروه وافتداه صلاح الدين منهم بعشرة آلاف دينار.

وأما شهرته بالظلم فهي تلفيق من الأسعد بن مَمَّاتي في كتابه: «الفاشوش في أحكام قراقوش» الذي لا يصح شيء فيه، غير أنه كان رجلًا حازمًا شجاعًا.

(مشاهير العالم)

الحذر من الإفراط في إظهار النعم

مازال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء، لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها لأشد من كل نائبة، كان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية، ثم نكتة ينبغي التفطن لها، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ النعم فأصابه عدوه بالعين، فلا يفي ما تبجح به بما يلاقي من انعكاس النعمة.

والعين لا تصيب إلا ما يستحسن، ولا يكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع.

فليكن الإنسان مظهرًا للتجميل مقدار ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه في خير، وليحذر الإفراط في إظهار النعم، فإن العين هناك محذورة.

(صيد الخاطر لابن الجوزي)

قَنَاعَةٌ

رأى أبوالعتاهية أعرابيًا في ظِلِّ مِيلٍ (منار يُبنى للمسافر) فقال له: من أين معاشكم؟ فقال: منكم معشر الحُجَّاج تمرون بنا فننال من فُضُولكم، وتنصرفون فيكون مثل ذلك. فقال له: إنما نمرُّ وننصرف في وقتٍ من السنة، فمن أين معاشكم؟ فأطرَقَ الأعرابيُّ ثم قال: لا والله ما أدري ما أقول إلَّا أنّا نُرْزَقُ من حيث لا نحتسب أكثر مما نرزق من حيث نحتسب؛ فولَّى أبوالعتاهية وهو يقول:

ألا يا طالب الدُّنيا دَعِ الدُّنيا لشانيكَا
وما تَصْنَعُ بالدُّنيا وظِلُّ الميل يكفيكا

(قصص العرب ٢/٢٨٢)

علماءُ الآخرة

«من صفات علماء الآخرة أن يعلموا أنَّ الدنيا حقيرة، وأنَّ الآخرة شريفة، وأنهما كالضَّرَّتَيْن، فهم يُؤْثِرون الآخرة، ولا تخالف أفعالُهم أقوالَهم، ويكون ميلهم إلى العلم النَّافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يَقِل نفعها إيثارًا لِمَا يعظم نفعه».

(مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ت: ٧٤٢)

هذا الحنين إليه..!

روت كتب تاريخ الأدب أنه عندما ترجموا «لكسرى الفرس» قول الأعشى في مطلع قصيدة له:

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرّقُ

وما بيّ من شوقٍ ولا بي تعشّقُ

قال: إن سهرًا بلا ألمٍ من مرضٍ أو عشق لمريب، لابدَّ أنه لص.

ولقد كان كسرى في قوله هذا مجانبًا الواقع، بعيدًا عن الجنب الإنساني الذي هو الفطرة البشرية في الحنين إلى الموطن الأول، إلى مرابع الصبا ومعاهد الطفولة، وقد يكون السبب في تعليقه على بيت الشاعر الأعشى المذكور، أنه لم يترك مراتع طفولته، وملاعب صباه، وأركان إيوانه.

إنه الحنين إلى الوطن، ذلك الذي يجعل الطيور تحنّ إلى أعشاشها، وهو الذي جعل «ميسون بنت بحدل الكلبي» امرأة الخليفة معاوية بن أبي سفيان تحنّ إلى عشقها الأزلي للصحراء، وإلى خيمة أهلها، فبكت ببيت شعر متواضع من شرفة قصر الخضراء قائلة:

لَبيتُ تخفق الأرواح فيهِ

أحبُّ إليّ من قصرٍ منيفُ

والوطن هو الأم التي تستحق من أبنائها الرفق والعطف والشوق والبذل والتضحية.

وهو هو الحنين وليس غيره من جعل كلّ سيّدات القصر الفرعوني يعجزن عن إسكات بكاء الطفل (موسى) ، فهو بفطرته حنّ إلى وطنه، الذي يتمثل في حضن أمّه.

ونفسه هو الحنين الذي جعل شاعر العربية الكبير أبا الطيب المتنبي بكل عنفوانه وكبريائه وغروره، يتذمر ويتضجر من شعب «بوان»، وهو إحدى جنان الأرض الفاتنة البديعة آنذاك، فلم يستطع هذا المكان الرائع أن يمحو صورة الصحراء من ذاكرته! بل فضل الصحراء بقساوتها وحرارتها وجدبها، ولم يرَق له نعيم غير نعيم حضن وطنه لينام على وسادته، وهي لم تكُ أكثر من بردتهٍ يجمع أطرافها ويضعها تحت رأسه.

هكذا هو العربي الأصيل، إنه لا ينسى بلده ولا يرى أجمل من وطنه، كما قال الجاحظ في رسالته «الحنين إلى الأوطان»: كانت العرب إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة موطنها رملًا.

فلا غرابة ولا عجب من أن يسهر العربي المغترب عن وطنه من غير مرض أو عشق، وأن يكون سبب سهاده وأرقه الحنين والشوق إلى الوطن الحبيب الغالي.

وكم من مغترب بكى وسيبكي عندما يسمع الشاعر الصمّة القشيري يحنّ باكيًا لبعده عن موطنه وبلاده فيقول:

وأذكر أيّام الحمى ثم انثني

على كبدي من خشيةٍ أن تصدّعها

اللهم آمنا في أوطاننا.

• أحمد بشار بركات

الإصدار التاسع عن الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تم إصدار الطبعة الثانية من كتاب « لا إنكار في مسائل الإجتهاد » بعد نفاد الطبعة الأولى

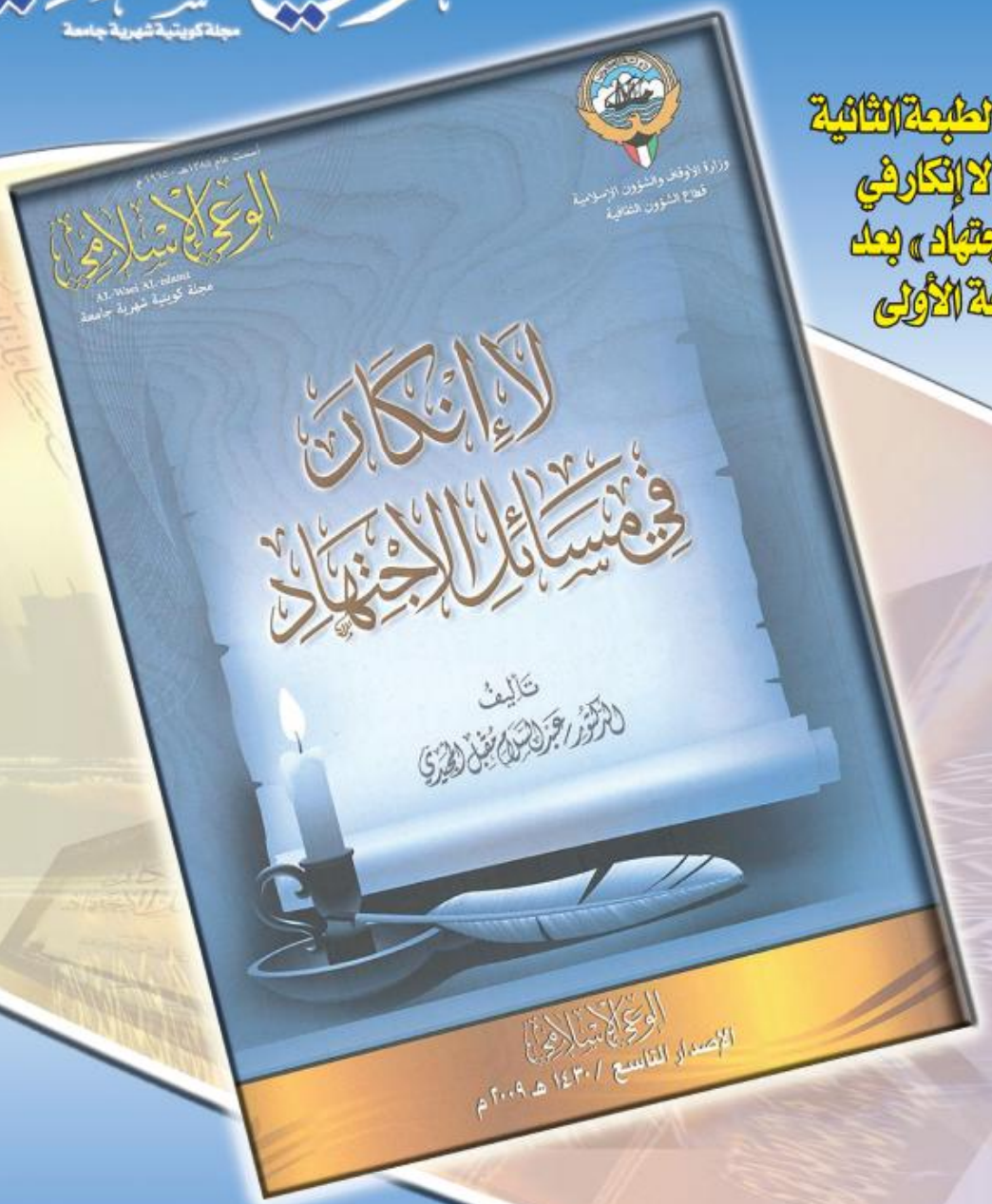

يعتني الكتاب بتأصيل مسائل الاجتهاد وضبطها بضوابط سديدة ، ويعالج قضية الاختلاف مع الحرص على جمع الكلمة والبعد عن الفرقة وحرمة التطاول على أهل العلم .

الكتاب يؤكد أنه لا إنكار على من يسلك الاجتهاد ، والإنصاف خير الأوصاف في باب الاختلاف والرجوع إلى الاتفاق أولى من الافتراق.

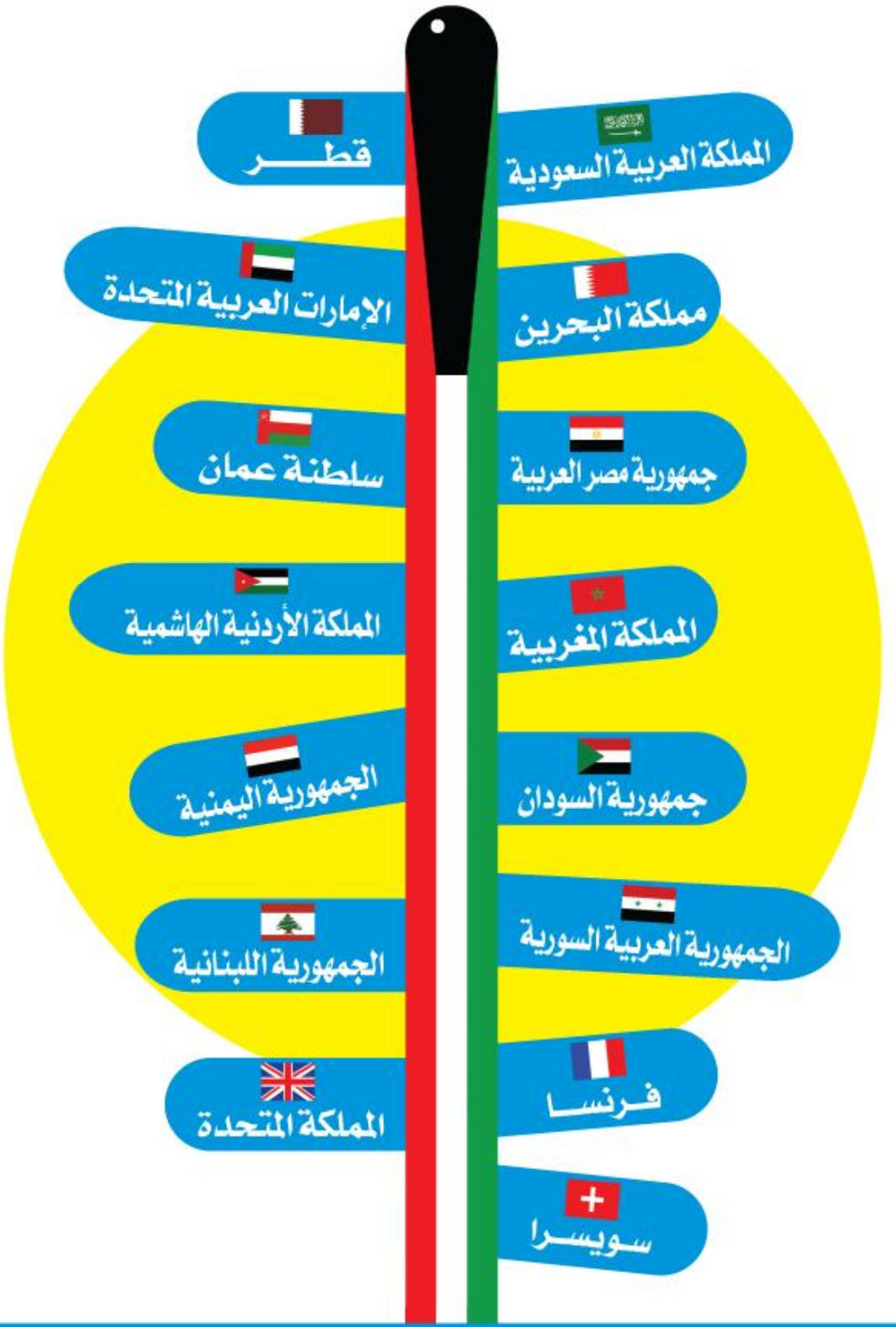

أماكن توزيع مجلة الوعي الإسلامي في العالم

الكويت ـ المسجد الكبير ـ بدالة : ١٨٤٤٠٤٤ ـ هاتف : ٢٢٤٦٧١٣٢ ـ ٢٢٤٧٠١٥٦ (٩٦٥+) ـ فاكس : ٢٢٤٧٣٧٠٩ (٩٦٥+)

E-mail: info@alwaei.com - Website: www.alwaei.com